الهجاء والهجاؤون

في صدر الإسلام

الدكتور محمد محمد حسين
رئيس قسم اللغة العربية
في جامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

الهجاء والهجاءون



الهجاء والهجاؤون

في صدر الاسلام

تأليف

الدكتور محمد محمد حسين

رئيس قسم اللغة العربية في جامعتي
الاسكندرية وبيروت العربية



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩





بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله رب العالمين ، حمد شاكر لآلائه راج عفوه ، وأسأله أن ينجينا من فتنة الدنيا ومنعذاب الآخرة ، وأن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين. كما أسأله أن يصلي ويسلم على عبده ونبيه وخاتم رسله سيدنا محمد ، وأن يربط قلوبنا على محبته ، وأن يجعل هذه الرابطة وسيلتنا إلى الاهتداء بهديه والسير على سنته والتماس بركته . وبعد :

هذا هو القسم الثاني من تاريخ فن الهجاء . وهو يؤرخ هذا الفن في العصر الإسلامي . وأقصد بالعصر الإسلامي عصر النفوذ العربي الذي انتهى بغلبة النفوذ الفارسي ، وتقويض هذه الدولة العربية ، التي كان من أبرز صفاتها التعصب للعروبة في شتى مظاهرها الخلقية والاجتماعية والأدبية .

والعصر الأدبي الذي نؤرخ هذا الفن فيه ، لا يساير التقسيم التاريخي ، ولا يجري على ما جرى عليه جمهور مؤرخي الآداب ، من تقسيمها تبعاً للتقسيم التاريخي. فهو يبدأ منذ وفاة النبي ﷺ ، وينتهي بانتهاء القرن الأول الهجري . والواقع أن المطابقة التامة بين تاريخ الأدب وبين التاريخ السياسي ، تعرّض الباحث لأخطاء كثيرة ، وتورطه في تعسف غير قليل . فدارس الأدب — وهو مرآة صادقة دقيقة لحضارة العصر ولمزاج أفراده — لا يلاحظ فرقاً كبيراً بين لون هذا الأدب في عصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، وبين لونه في الصدر الأول من العصر الأموى . بيد أنه يلاحظ هذا الفرق واضحاً إذا قارن بين الصدر الأول من العصر الأموي وبين الشطر الأخير من حياة هذه الدولة .

فالأدب في عصر الخلفاء الراشدين ، وفي الصدر الأول من العصر الأموي — وهو ما نسميه بالعصر الإسلامي — أدب عربي خالص ، يجرى على ما جرى عليه الأدب العربي القديم ، في أسلوبه ، وفي أغراضه ، وفي صوره ، وفي أوزانه ، مع بعض التطورات التي اقتضتها طبيعة الظروف . فهو عربي في ديباجته وأسلوبه ، إسلامي في موضوعه ومضمونه ، وفيما تأثر به من أسلوب القرآن وبلاغة الناشئين في حجره والمتأدبين بأدبه . أما الأدب في القسم الثاني من ذلك العصر ، فهو متأثر بالحضارة الفارسية ، وبالترف والخلاعة ، اللذين نشآ من شيوع الغناء والمجون ، وكثرة الجواري وغلبتهن على قلوب العرب. وقد انحرف به ذلك في بعض الأحيان عن طبيعته العربية ، وزيف وجه الإسلامي وشوهه .

ولسنا هنا في مقام المقارنه بين العصرين ، وتفصيل الفوارق بينهما . ولكنا أحببنا أن نوضح السبب الذى جعلنا نعدل عن التقسيم المألوف ، فنخلط بين عصر الخلفاء وبين قسم من العصر الأموي من جهة ، ونفصل بين شطر هذا العصر الأول وشطره الثاني من جهة أخرى .

وليس يفهم من هذا أننا ننكر الصلة القائمة بين التاريخ السياسي وبين تاريخ الأدب . فهذه الصلة قائمة بينهما ، قيامها بين الأدب وبين ألوان المعارف الإنسانية . ولكن الذي ننكره هو وضع العصور الأدبية في حدود التواريخ التي تعين قيام الدول وسقوطها . فليست العبرة في ذلك بقيام دولة وسقوط أخرى . ولكن العبرة في شكل الحضارة السائدة ، وألوان الثقافة الغالبة ، وحالة المجتمع القائمة . وليس هناك ما يمنع أن تتقاربهذه العناصر جميعاًوتتشابه في دولتين ، هما عصران مختلفان عند المؤرخ ، بينما تتباين أشد التباين في دولة واحدة ، هي في عرفه عصر واحد . ؟

بيروت في ٢٧ رجب ١٣٨٩
(٩/١٠/١٩٦٩)

نشأة الأحزاب السياسية

عاش العرب في جاهليتهم كما رأينا على النظام القبلي ، لا يعرفون لهم رابطة غير العصبية القبلية . فلما جاء الإسلام دعاهم إلى رابطة جديدة هي رابطة الدين . ونشأ جيل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثلون الدين في سلوكهم وفي تفكيرهم أصدق تمثيل . بينما ظل الأعراب ممن دخلوا في الإسلام قبيل وفاته ﷺ وبعد فتح مكة – وهم كثرة العرب – على ما نشئوا عليه من قيم ، لم تتح لهم الفرصة لتذوق النظام الجديد الذي جاء به الإسلام ولممارسته. لذلك لم يستطيعوا أن ينسوا وطنهم الأول الصغير ، ليتفانوا في الوطن الكبير والاتحاد الجديد ، الذي نشأ من ضم هذه الأوطان القبلية الصغيرة ، تحت سلطة مركزية جديدة تدبر شؤون الأمة الإسلامية . لم يكن ذلك الأعرابي يحمل لهذا الوطن الجديد شيئاً من الحب أو التقديس ، وكل الذي فهمه أن قريشاً قد فرضت سيادتها على بقية القبائل العربية . وكان أثقل شيء على نفسه ، هذه الأموال التي فرضها عليهم الإسلام ، وسماها « زكاة ». ولم تكن الزكاة في ظاهر أمرها – إذا صرفنا النظر عن حقيقتها الروحية وأثرها في تطهير النفس وإخراجها عما فطرت عليه من الشح والأثرة – إلا نوعاً من الضرائب ، التي يدفعها الأفراد للدولة الآن ، مقابل حمايتهم وتدبير شؤونهم ، بما يكفل لهم حياة مطمئنة ، قريبة غاية الجهد من تحقيق السعادة لسائر الأفراد . ولكن البدوي لم يفهم هذا الوطن الجديد ، ولم يعرف شيئاً عن الأمة ، ولم يستطع عقله البدائي أن يفهم الحكمة في وجودها ، أو الفوائد التي تحققها . فهو يختص القبيلة بكل حبه وعواطفه ، ويرى قوتها كفيلة بتحقيق غاياته ، ويرى أن فناءها في هذا المجموع الكبير ، تضحية لا مبرر لها . فالزكاة في نظره ، ليست

إلا إثارة تدفع لقريش ، وتوضع تحت تصرفها ، لتنفقها حيث تشاء . لذلك لم يكد النبي ﷺ يموت ، حتى انبعثت هـــذه العصبيات قوية جارفة ، تريد أن تتحلل من كل قيد ، وأن تعود إلى حياتها الأولى الحرة الطليقة . منكرة حق الخليفة في الزكاة . ولم يكن الخليفة في نظر هؤلاء البدو سوى أمير قرشي يريد أن يفرض سيادته عليهم . وخير ما يصور هذا التفكير البدوي، الذي ينفر من النظام ، ويأبى الاعتراف بالسلطان ، ولا يرضى إلا حياة الخلاف والتناحر ، أبيات الحطيئة التي قالها في الردة :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا   فيا عجبا ما بالُ دِينِ أبي بَكْرِ

أيورثها بَكراً إذا مات بعده؟   وتلك لعمر الله قاصمة الظهر !

ورأت القبائل أن قريشاً لم تفضلهم وترجح عليهم إلا بالنبوة . فليكن فيهم إذاً أنبياء . ففي ربيعة نبي من حنيفة هو مسيلمة . وفي مضر نبي ونبية . أما النبي فمن أسد وهو طليحة بن خويلد ، وأما النبية فمن تميم وهي سجاح . وفي اليمن نبي هو الأسود العنسي .

وينهض رجل الإسلام الكبير للجهاد في سبيل إعادة بناء الأمة الإسلامية ، بعزيمة لا تعرف وهناً ولا فتوراً ، وإيمان صادق عميق ينتهي آخر الأمر بالظفر على هذه الفتنة . وإعادة القبائـــل المنشقة إلى الطاعة والخضوع لدين الله . والقارىء لشعر القبائل في حركة الردة لا يجد فيه معارضة لمبادىء الإسلام . فالحركة ليست ثورة على الإسلام ،لأنه لم يدخل قلوب هؤلاء البدو من الاعراب، الذين كانوا قِوام تلك الحركة . ولكنها محاولة لاسترداد سلطة القبيلة المسلوبة . فالشعر منصب كله على القبائل والأفراد . والمسألة في حقيقتها عصبية خالصة .

يقول الخطيل بن أوس أخو الحطيئة (١) :

فِدىً لبني ذُبيان رَحْلي وناقتي   عشيةَ يُحدَى بالرماح أبو بكر

(١) الطبري . حوادث سنة ١١ هـ.

ولكن يُدَهْدَى بالرِّجال فهِبْنَه إلى قَدرِ ما إن تُقِيمُ ولا تَسْري[1]
ولله أجنادٌ تُذاقُ مَهانَةً لتُحسَبَ فيما عُدَّ من عَجَبِ الدَّهرِ[2]

ويقول أبو شجرة بن عبد العزى السُّلَمي وهو ابن الخنساء[3] :

صحا القلبُ عن مَيٍّ هواهُ وأقصرا وطاوع فيها العاذلين فأبصرا
وأصبح أدنى رائدِ الجهل والصبا كما وُدُّها عنا كذاك تغيرا
وأصبح أدنى رائدِ الوصل منهُمُ كما حبلُها من حَبْلنا قد تَبَتَّرا
ألا أيها المُدْلِي بكثرة قومه وحظُّك منهم أن تُضام وتُقهرا
سَل الناسَ عنا كلَّ يوم كريهةٍ إذا ما التقينا دارِعِين وحُسَّرا
ألسنا نُعَاطِي ذا الطِّماح لجامَه ونطعن في الهيجا إذا الموتُ أقفَرا[4]

---

(١) دهديت الحجر فتدهدى دحرجته . هبنة كذلك هي بالنص في كل نسخ الكتاب كما جاء في طبعة المعارف . لعلها من أهاب بالابل والخيل إذا زجرها قائلا هاب هاب ، فيكون المقصود أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ويدفعونهم إلى قدرهم وحينهم . ومن الواضح أن هناك بيتاً أو أبياتاً ساقطة بين البيت الأول والثاني . ولعل في البيت الثاني تحريفاً . ولعل صوابه : ولكن يدهدي (على البناء للمعلوم . والضمير لأبي بكر) بالرجال مهينة (على البناء للمفعول ، حال من الرجال) . إلى قدر ما إن يقيم ولا يسري (والضمير في الفعلين لأبي بكر . يعني أنه في حيرة من أمره لا يدري ماذا يصنع) وقصة الأبيات في الطبري في حوادث سنة ١١.

(٢) يسخر بجنود الله من المسلمين ، يقول هل رأيتم أعجب من هذا ؟ جنود الله تذوق الذل والهوان !

(٣) الطبري حوادث سنة ١١ .

(٤) طمحت الدابة طماحاً وطموحاً نشزت وجمحت لوفرة نشاطها . عاطاها اللجام ناولها إياه ومده لها . أي أنهم فرسان يندفعون مع هذه الجياد الجموحة مرخين لها العنان . إذا الموت أقفرا يعني أقفرت ساحته (والمقصود هو ساحة القتال) من الفرسان .

وعارَضةُ شهباءُ تخطِرُ بالقنا ترى البُلْق في حافاتها والسنَّورا [1]
فرويّتُ رُمحي من كتيبةِ خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمَّرا

وبما يصور أن العصبية روح هذة الحركة والدافع إليها ، ما يروي الطبري من خروج الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس إلى أبي بكر ، وقولهم له (اجعل لنا خراج البحرين ، ونضمن لك أن لا يرجع من قومنا أحد) . وقد رضي أبو بكر بهذا الشرط وكاد ينفذه . لولا أن سيدنا عمر رضي الله عنه اعترض ومزق الصحيفة غاضباً [2] .

ويمضي سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بعد سنتين من خلافته ، ويخلفه سيدنا عمر ، فيحكم الجزيرة بحزمه الصارم . مندفعاً في الفتوح كالسيل الجارف . لا يقف في سبيله شيء . ثم ينتهي حكمه بهذه المأساة المروعة ، التي ذهب الخليفة الكبير ضحيتها ، فتنتهي الخلافة إلى بيت من قريش ، عريق النسب في الجاهلية ، كانت المنافسة قائمة بينه وبين بني هاشم . وقد امتدت الدولة العربية ، واتسعت رقعتها ، حتى أصبحت إمبراطورية كبيرة ، قد ابتلعت دولتين عريقتين . هما الفرس والروم . ولم تعد النظم العربية الساذجة ، التي تركز السلطة في يد الخليفة ، والتي تقوم على الزهد المطلق ، وتنفر من ادخار المال ، وتتحرج من إنشاء خزينة للدولة ، كافية لضبط ذلك الملك العريض . ولم يعد الأمر كما كان ، مقصوراً على إقامة حدود الدين ، والتمسك بقانونه الأخلاقي القويم . فالعرب الذين كانوا يعيشون منذ سنوات قلائل على النظام القبلي ، قد

---

(١) عارضه : قابله بمثل ما أتى . شهباء : كتيبة شهباء أي بيضاء لكثرة ما على فرسانها من سلاح . البلق : وصف لموصوف محذوف أي الجياد البلق ، جمع أبلق وهو ما كان فيه سواد وبياض . السنور : كل سلاح من حديد . وقد يكون هناك بيت ساقط قبل هذا يعود عليه ضمير (وعارضه)

(٢) الطبري حوادث سنة ١١ .

أصبحوا أمام مشاكل جديدة خطيرة ، هي سياسة هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، وتدبير أمورها ، وضبط شؤونها . فهم أمام مشاكل مالية وإدارية وسياسية ، لا عهد لهم بمثلها في عزلتهم القديمة .

وتضطرب الأمور وتتعقد على عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويفلت زمام الأمر من يده ، وقد غلت الأمصار بالفتنة التي دبرها ذلك اليهودي المفسد (عبدالله بن سبأ) الملقب بابن السوداء ، الذي تستر تحت ستار الدين فاستغوى كثيراً من المسلمين في زمانه ، ثم لم يعدم من قصار النظر الغافلين عن حقيقة أمره من يزيف حقيقته على المسلمين ، ويردد أكاذيبه ومفترياته في تاريخهم المتداول المأثور . ويندفع الدهماء في طوفان مدمر يجرف في طريقه هذا الخليفة الطاهر الطيب القلب .

وأصبح من الواضح أن المسلمين لم يعودوا في حاجة إلى رجل دين وتقوى فحسب ، ولكنهم أصبحوا في حاجة إلى رجل يجمع إلى ذلك حزماً وسياسة وعبقرية إدارية تستطيع أن تنشىء قواعد للحكم إنشاء . وتخلق من العدم نظماً وقوانين ، تستطيع أن تساير التوسع الجديد . وقد وجد العرب ضالتهم آخر الأمر ، في عاهل العرب الأول ، ومنشىء الدولة الإسلامية الكبرى معاوية بن أبي سفيان .

وكان بين مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه وبين ما يسميه المؤرخون عام الجماعة الأول ، الذي انتهى فيه الأمر إلى معاوية ، ست سنوات ، اضطربت فيها الجزيرة بالفتن ، واجتاحتها موجة من الحروب المدمرة في كل مكان ، كانت كلها قتالاً حول شخص الحاكم ونظام الحكم . وقد ظهر في هذه الحروب لون جديد من العصبية هو العصبية الإقليمية ، فقد أصبح الشام حزب معاوية، وأصبح العراق حزب علي ، وأصبح الحجاز موطناً للمعارضة ، يقودها زعماء قريش الساخطون على ما آل إليه أمر المسلمين ، فيهم طلحة والزبير وعبدالله بن عمر

وعائشة أم المؤمنين . وفي هذه الحروب ، وضع أساس الأحزاب الثلاثة التي كان لها أعمق الأثر فيما يلي من الناحيتين التاريخية والأدبية ، وهي : حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الأمويين ، ومعها حزب رابع لم يعمّر طويلاً ، وهو حزب الزبيريين .

ولست أحب أن أزج بنفسي في الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما . فما ينبغي لمسلم يقدر أصحاب رسول الله ﷺ حق قدرهم وينزلهم منازلهم أن يدخل في ذلك . فقد كانت فتنة تحكم فيهـــا أهل الشر والباطل ، الذين بيتوا النية على هدم الإسلام وتفريق جماعة المسلمين ، من عصابة ابن سبأ ومن تبعهم عن قصر نظر أو فساد دين، فروجوا شائعات وأكاذيب بقصد الإثارة والتهييج، ليس من موضوع هذا الكتاب أن يتتبعها بالنقض [1] . ولكني أحب أن أنبه إلى أن سيدنا علي رضي الله عنه إن كان في منزلة أفضل من منزلة معاوية لا شك، فإن ذلك لا يغض من قدر معاوية ومن منزلته في سياسة الناس وتدبير الدولة ، وهي مكانه استحقها عن جدارة منذ ولاه عمر رضي الله عنه الشام . فقد مرن على السياسة في هذه الحقبة الطويلة التي ولي فيها أمر الشام ، وأعانه على ذلك أنهم أهل طاعة ، قديمو العهد بالنظام والملك . وقد استطاع بحلمه وسعة صدره ونعومة مكره ، أن يكسب حبهم وإعجابهم . وكان مع هذا داهية عارفـاً بالرجال ، يحسن اختيار بطانته ، ويعرف أين يضع ثقته . وكان بعـــد هذا حكيماً يحسن تقدير الظروف ، ويعرف متى يأخذ الحق كله ، ومتى يتقي الشر الكبير الخطير والفتنة الجامحة بالإغضاء عن بعضه إلى حين .

وقد بدا له في ظل الظروف التي كان يجتازها المسلمون وقتذاك ، وفي ضوء تجاربهم السابقة ، أن من صالح دولتهم الناشئة أن يكفيهـا شر المحن والثورات

---

(١) راجع في ذلك كتاب « العواصم من القواصم » لأبي بكر بن العربي .

التي تتعرض لها فيما يقع بين الناس من خلاف عقب موت كل خليفة، فأخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته. وقد يكون مخطئاً أو مصيباً فيما قدر من أن هـذا هو العلاج الصحيح. وقـد يكون يزيد أو لا يكون بحيث رجا أبوه أن يكون. فالأمر لا يعدو أن يكون اجتهاداً يخطىء فيه المجتهد أو يصيب.

كان هَمُّ معاوية الأول أن يوطد أركان الدولة، ويدعم النظام والاستقرار والولاء للجماعة – أو ما نسميه الآن بالدولة – ممثلة في الخلافـة. فمضى يوضع أركان حزب سياسي قوامه الشعراء، يغدق عليهم العطاء. وتألف قلوب أعدائه من أصحاب النفوذ. وأحسن اختيار ولاته من أصحاب الحزم، ثم أطلق يدهم في أقاليمهم، إلا فيما يمس السياسة العامة. ثم أوجد نظام البريد، ليسهل الاتصال بينه وبين عماله. وأوجد ديوان الخاتم، ليكون سجلاً لتوقيعات الخليفة التي يبعث بها إلى الأقاليم، فلا تتكرر مأساة سيدنا عثمان. واتخذ الحجّاب والحرس، لأن من في مثل مكانه، لا يأمن أن يكون بين رعاياه موتور متهوس، ينتهز منه غرة فيقتله، بل لا يأمن مكر المجوس واليهود في مثل غدرهم بعمر وعثمان رضي الله عنهما من قبل. كل هذه السجايا، جعلت معاوية خليقاً بما وصفه به ابن عباس رضي الله عنه حين قال: ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرياسة والملك.

ولكن هذا الاستقرار لم يطل عهده بعد معاوية، فقـد كان من سوء حظ الناس، أن جاء بعد يزيد ابنـه معاوية الثاني وكان ضعيفاً زاهداً، فأبى أن يَستخلِف، وترك أمر الناس فوضى، فثارت الفتنة من جديد، وكثر المطالبون بالملك والخارجون في كل مكان، من زبيرية وشيعة وخوارج.

وتفرقوا شِيَعاً فكلُّ مدينة فيهـا أمير المؤمنين ومِنْبَرُ

واحتكم الناس إلى السيف من جديد وأصبح الملك للغـالب، كما يقول كعب بن جُعَيْل التغلبي:

أصبحت الأمـــة في أمر عجب والمُلْكُ مجموعٌ غداً لمن غلب
فقلتُ قولاً صادقاً غيرَ كذِبْ إنّ غداً تَهلِك أعلامُ العرب

وأسرف الناس فى القتل وفي إراقة الدماء ، حتى ملوا الحرب ، واستيقظت روح الجاهلية في المتحاربين ، فرأوا أنهم إنما يقاتلون من أجل قريش ، كما تقول هذه المرأة الثكلى ، التي فقدت أولادها الثلاثة في صفين [1] :

أعينَيَّ جودا بـدمعٍ سَرِبْ على فتيةٍ من خيـــار العرب
وما ضرَّهم غيرُ جنْي النفوس بأي امرىءٍ من قريشٍ غَلَب

وكما يقول الشاعر الطائي :

وإن امرءًا يُعطي الأسنَّة نحره وراء قريشٍ لا أُعدُّ له عقلا
يذمون لي الدنيا وقد ذَهَبوا بها فما تركوا فيهـــا لمُلْتَمِسٍ ثُعْلا

ومنه شعر علي بن الغدير الغَنَوي ، الذي يزعم فيه أن الناس لا يقاتلون إلا من أجل قريش ، فهم في وهمه أصل الشر وأس البلاء ، ومن الخير للناس أن يدعوهم وشأنهم ، ولا يهلكوا أنفسهم في سبيلهم [2] :

من مبلغٌ قيسَ بن عيلانَ كلَّها بما أحتازَ منها أرضُ نجدٍ وشامُها
فلا تهلكنكم فتنةٌ كلُّ أهلهـــا كحيران في طخياء [3] داج ظلامها

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٠ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ٢٣ .

(٣) الطاخية الظلمة الشديدة ، والطخياء الليلة المظلمة .

فشأنَ قريشٍ والخصومةَ بينها إذا اختصمت حتى يقومَ إمامها
همُ أخذوها بين حتفٍ معجَّلٍ وخطةِ خسفٍ لا تزال تسامها
فضموا جناحيكم إلى مُرجحِنَّةٍ معاحربها إنحاربتْ أوسلامُها[1]
وشيموا سيوفَ الهند حتى تَبَيَّنوا على أيِّ أعداء يُسَلُّ حسامها[2]
وخلوا قريشاً تقتتلْ إن ملكها لهـــا وعليها بِرُّها وأثامها
فإن وسعتْ أحلامها وسعتْ لها وإن عجزتْلم يَدمَ إلا كِلامُها
فإن قريشاً مهلكٌ من أطاعها تنافسُ دنيا قد أَحَمَّ انصرامها[3]

ثم يقرر السيف للمرة الثانية ، أن بني أمية هم أولى الناس بالملك ، فيستقر لهم الأمر على نظام الخلافة الوراثية .

كان لهاتين الثورتين الكبيرتين آثار خطيرة في التفكير العربي ، لا تخلو من خير . فقد صحبتها حركة فكرية عنيفة ، لا تضارعهـا إلا هذه الحركة التي صحبت ظهور الإسلام . وللمرة الأولى بدأ الناس يناقشون نظام الحكم ، وأتيح لهم أن يروا ألواناً مختلفة من البرامج السياسية ، يعرضها عليهم المرشحون للحكم ، كل منهم يحاول استمالتهم إلى جانبه . وبدأت العصبيات الجاهلية القديمة تتخذ صورة حزبية مهذبة ، تقوم على نظريات سياسية واضحة محددة . فأتباع بني أمية في الشام — ومعظمهم من اليمنية ، الذين أصهر معاوية إلى قبيلة كبيرة

---

(١) مرجحنه أي راجحة رشيدة ، ضموا جناحيكم الى مرجحنة اي كتيبة مرجحنة أو خطة مرجحنة من الرجحان . الضمير في (حربها) لقريش .

(٢) شام من الأضداد في اللغة تقول شام سيفه استله وشامه أغمده أيضاً والمقصود هنـــا المعنى الأخير .

(٣) أحم دنا وحان .

منهم هي قبيلة كلب – يقرون النظـــام الجديد ، الذي يقوم على التوريث ، وتأخذ فيه البيعة شكلاً صوريـــاً . وأتباع ابن الزبير في الحجاز متمسكون بالنظام القديم ، الذي يقوم على الانتخاب ، ولكنهم يحصرون حق الخلافة في قريش . والشيعة يرون في الخلافة أو الإمامة كما يسمونها شيئاً من القداسة التي لا تكتسب اكتساباً ، ولكنها تورث توريثاً. فسلالة النبي ﷺ من ابنته فاطمة هم وحدهم أصحاب الحق في الخلافة ، وحقهم في ذلك ثابت من عند الله ، ليس للناس فيه رأي أو خيار . والخوارج يمثلون التطرف في المساواة الإسلامية ، فهم لا يرون الخلافة حقاً لقريش أو لفرع معين منها، بل لا يرونها حقاً للعرب مقصوراً عليهم لايتجاوزهم إلى غيرهم . فالخلافة عندهم تصلح في أفنـــاء الناس كلهم ، من كان منهم قائماًبالكتاب والسنة عالماً بهما . ثم هم بعد ذلك يخالفون بقية الأحزاب ، في حق سحب الثقة من الإمام الجائر ، فالخلافة عندهم ليست بالحق الذي يوهب مدى الحياة ، وهناك فرقة من الخوارج هم النجدية ، يمثلون الفوضوية اللاحكومية ، فهم يرون أن النـــاس يستطيعون أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وأن ينظموا أمورهم ، من غير حاجة إلى إمام .

وقد كان للعصبيات الجاهلية أثر واضح في نشأة الأحزاب الجديدةوتكوينها، فحروب العراق والشام ليست إلا امتداداً للنزاع القديم بين المناذرة والغساسنة من ناحية ، وبين النزارية والقحطانية من ناحيـــة أخرى . شاءت الظروف أن يكون جند معاوية يمنيين ، لأنهم معظم أهل الشام ، فلم يكن لأهل العراق بد – ومعظمهم نزارية – من أن يكونوا جند المعارضة . وانساق اليمنيون منهم مع جمهور الناس متأثرين بعصبية الإقليم ، ولكنهم ظلوا متمسكين بعصبيتهم اليمنية لا ينسونها . فالأشعث بن قيس لا يرشح في التحكيم بين علي ومعاوية إلا أبا موسى الأشعري . فإذا اعترض عليّ عليه ورشح ابن عباس ، قال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مضري [1] . ثم هو يثبط الناس عن علي ، حين

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٨ .

طلب إليهم أن يمضوا لقتال معاوية في الشام ، بعد أن هزموا الخوارج ، قائلاً : قد كلَّت سيوفنا ، ونفدت نبالنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد بأحسن منها [1] . والعداء بين الأمويين وبين الأنصار – مع أنهم يمنية – ليس إلا أثراً من آثار العداوة القديمة بين يثرب وبين مكة ، التي كان يتزعمها في ذلك الوقت أبو سفيان بن حرب.

ولم تنته هذه العصبيات بانتهاء الفتن واستقرار الأمور ، فقد ظل الأمويون على كرههم للقيسية وأهل العراق . دخل رجل من قيس على عبد الملك بن مروان فقال : زبيري ! والله لا يحبك قلبي أبداً . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب النساء . ولكن عدل وإنصاف [2]. ودخل مسكين الدارمي على معاوية ، وسأله أن يفرض له ، فأبى – وكان لا يفرض إلا لليمن [3] . فاليمنية لم يقاتلوا مع معاوية ثم مع مروان ، ألا بعد أن اشترطوا عليهما شروطاً . يقول المسعودي : واشترط حسان بن مالك – وكان رئيس قحطان وسيدها في الشام – على مروان ، ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، ومنها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين ،وإن مات رجل قام ابن عمه مكانه ، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد فمن رأي منهم ومشورة . فرضي مروان بذلك وانقاد إليه . وقال له مالك بن هبيرة اليشكري : إنه ليست لك في أعناقنا بيعة . وليس نقاتل إلا عن عَرَضٍ دنيا ، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وإن تكن الأخرى ، فوالله ما قريش عندنا إلا سواء [4] .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٨ .

(٢) العقد الفريد ٤ : ١١٤ .

(٣) خزانة الأدب ٢ : ٢٥٥ .

(٤) مروج الذهب ٢ : ١٠٦ .

وظل الأمويون على بغضهم للأنصار ، ولكنهم كانوا يصانعونهم ويدارونهم ، لسابق صنيعهم في الإسلام ، ولوصية رسول الله ﷺ . دخل قيس بن سعد بن عبادة على معاوية بعد وفاة علي ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار . فقال لهم : يا معشر الأنصار . بمَ تطلبون ما قِبَلي ، فوالله لقد كنتم قليلاً معي كثيراً علي ، ولقد فللتم حدي يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تتلظى في أسنتكم ، وهجوتموني في أسلافي بأشد من وقع الأسِنّة ، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلتم : ارع وصية رسول الله ! هيهات ، يأبى الحقير الغَدْرة[1] . وحضرت الوفود بباب معاوية ، فاستأذن لهم حاجبه وقال : الأنصار بالباب ، وكان عمرو بن العاص حاضراً فغاظه هذا اللقب ، فقال لمعاوية : ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد القوم إلى أنسابهم . وخرج الحاجب فقال : من كان هنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فلم يدخل الأنصار ، ثم خرج فقال : من كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير ، وهو يقول :

يا سعدُ لا تُجِبِ الدُّعاء فما لنا	نَسَبٌ نُجيبُ به سوى الأنصار
نسبٌ تخيَّرهُ الإلهُ لقومِنا	أثقِلْ به نَسَباً على الكفار
إن الذين ثَوَوْا ببدرٍ منكم	يومَ القَليبِ هُمُ وقودُ النار

فنظر معاوية لعمرو قائلاً : إن كنا لأغنياء عن هذا[2] .

هذه العصبيات القديمة التي انتهت إلى الصورة الحزبية الناضجة التي

(١) مروج الذهب ٢ : ٦٣ . يأبى الحقير الغدرة ، يقصد أن الضعيف لا يغدر لأنه عاجز عن الغدر ، لا لأنه يعف عنه .

(٢) الأغاني ١٤ : ١٢٥ .

قدمناها ، قد أوجدت في العصر الأموي معارضة قوية فعالة ، تخشى الحكومة بأسها ، فتأخذها باللين تارة ، حريصة على إرضائها ، وتأخذهـا بالعنف أخرى حين لا يكون بد من العنف . وكان موطن هـذه المعارضة في الغالب هو العراق . ويرجع ذلك لأسباب كثيرة ، منها بعده عن مركز السلطان ، فالخارج على الحكومة ، يستطيع أن يجـد له مَهرَباً إلى الشرق أو إلى الصحراء إذا انهزم ، فهو في مكانه هـذا أبعد عن يد السلطان ، وآمن على سلامته . لذلك اضطرب العراق بالثورات والحروب طـوال العصر الأموي . ولم يعرف الاستقرار ، إلا بعد انتقال عاصمة الملك إليه ، بقيام الدولة العباسية . وقـد أعان على هذا الاضطراب تباين البيئات فيه ، واختلاف المذاهب والآراء ، من زبيرية وخوارج وشيعة . فهو مثـابة الثائرين ، ومعقل الخارجين ، وملجأ الهاربين . هذا والنازحون إلى العراق من البدو كثير . والجفاء وحب الخلاف غالب على خلقهم . فهم ينفرون من قيود القانون ، ولا يحتكمون إلا إلى السيف ، لأن اقتصاص السلطان لا يشفي صدورهم . فهو عندهم من مظـاهر العجز . وخير ما يصور ضيق هؤلاء البدو بالقانون والنظام ، قول شبيب بن عوانة الطائي :

قضى بيننا مروانُ أَمسِ قضيةً فما زادنا مروان إلا تنائيـــا
فلو كنتُ بالأرض الفضاء لعِفْتُها ولكن أَتَتْ أبوابُه من ورائيـا

والبدوي لا يعتقد أن للسلطان حقاً فيما يستمتع به من سلطات . ولا يراه إلا مغتصباً قد أكل أموال الناس . وراح يتصرف فيها على حسب ميله وهواه . يقول عتبة الأسدي [1] :

---

(١) العقد الفريد ٦ : ١٦٨ .

معاوِيَ إننا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ فلسنا بالجبــال ولا الحديد[1]

أكلتم أرضنا وجَذَذْتُمونا فهــل من قائمٍ أو من حَصيد

فَهَبْنا أمةً هلكَتْ ضياعــاً يزيدُ أميرُها وأبو يزيد

أتطمعُ بالخلود إذا هلكنا وليس لنــا ولا لك من خُلُود

ذَرُوا خَوَلَ الخلافة واستقيموا وتأمينَ الأراذلِ والعبيــد[2]

---

(١) السجح (بضمتين) والسجيح اللين السهل . أسجح سهل ولان .

(٢) الخول (محركة) ما أنعم الله على الرجل من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، يستعمل للواحد وللجمع وللمذكر والمؤنث .

الهجـــاء السياسي

كان الهجاء السياسي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموي : فقـد عرف معاوية وخلفاؤه ما للشعر من أثر في نفوس الناس ، فحرصوا على أن يجمعوا حولهم أكبر قدر ممكن من الشعراء . ولم يجدوا حرجـاً من أن يتألفوا قلوب أصحاب النفوذ والجاه بالمال والعطاء ، وكان لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة بما فعل من تشجيع الشعر ، وتألف الناس بالمال ، في سبيـــل نشر الدعوة وإقرارها ، على مـــا بين العملين من خلاف أساسي في الغاية والهدف . ولازم هذه الحركات العنيفة والحروب المضطربة شعر كثير مضطرب عنيف يؤيد الطامعين في الحكم والمحاربين في سبيله ، ويهـاجم خصومهم وأعداءهم . وبذلك عاد الشعراء مرة ثانية للظهور ، بعـد أن اختفى أثرهم وخفت صوتهم منذ وفاة النبي ﷺ . عادوا يحتلون من الحياة السياسية مكاناً ممتازاً ، ويشرفون على توجيه الرأي العام ، بما يذيعون من شعر ، في تأييد أحزابهم ومعـــارضة أعدائهم ومنافسيهم . وحرص القـــادة والزعماء والمطالبون بالخلافة عليهم ، فأصبح الشعر – كما كان في الجـــاهلية – نظير الرمح وقرينه ، وشطر عدة المحارب وروح دعوته . وصحبوهم في حربهم ، كما فعل عبد الرحمن بن الأشعث ، حين خرج من سجستان مقبلاً إلى العراق ، وبين يديه أعشى همدان ، قد تقدم الجيش على فرسه يرتجز [1] :

شطت نوى مَن دارُهُ بالإيوان إيوانِ كسرى ذي القرى والرَّيحان
فالبَنْدُنيجَينِ إلى طَرْدَاسْتَان فالجِسْرِ فالكوفةِ فالغَرِيَّان

(١) الطبري ٥ : ٤٧ وديوانه ٣٤١

مِن عاشقٍ أضحى بزابُلِسْتان | إنّ ثقيفاً منهم الكذابان
كذابُهــا الماضي وكذابٌ ثان | أمكنَ ربي من ثقيفٍ همْدان[1]
يوماً إلى الليل يُسَلّي ما كان | إنا سَمونا للكَفُور الفتّان
حين طغى في الكُفْرِ بعد الإيمان | بالسيد الغِطْرِيف عبدِ الرحمن
سار بِجَمْعٍ كالدَّبَى من قحْطان | ومن مَعْدٍ قد أتى ابنِ عدنان[2]
بجَحْفَلٍ جَمٍ شديدِ الإرنان | فقل لحجّاجٍ وليِّ الشيطـان[3]
يثْبُتْ لِجَمْعِ مذحجٍ وهَمْدان | والحيُّ من بكرٍ وقَيْسِ عيلان
فإنهم ساقوه كأس الذَّيفان | ومُلْحِقوه بقرى ابن مروان[4]

واعتمد الزعماء على الشعراء في إعداد الناس لما يدبرون من مشاريع، يمهدون لها بالشعر ليتحسسوا رأي الناس، ومدى استعدادهم لقبولها، قبل أن يفجئوهم بها، كما فعل معاوية، حين همّ أن يبايع لابنه يزيد، مستحدثاً بذلك سنة ولاية العهد فأوعز إلى مسكين الدارمي أن يتكلم في ذلك فقال: [5]

ألا ليتَ شِعْري ما يقول ابنُ عامر | ومروان أم ماذا يقول سَعيد

---

(١) الكذاب الأول هو المختار بن عبيد الثقفي، ويقصد بالكذاب الثاني الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٢) الدبى أصغر الجراد والنمل، يريد كثرة هذا الجيش، كما نقول نحن اليوم في تشبيهنا العامي عددهم كثير كالنمل.

(٣) الإرنان الصياح، والماضي رن وأرن صاح.

(٤) الذيفان السم القاتل. ملحقوه بقرى ابن مروان يعني الشام حيث يقيم الخليفة عبد الملك بن مروان.

(٥) الأغاني ١٨ : ٧١

بني خلفاء الله مهلاً فإنما		يبوئها الرحمنُ حيث يريد
إذا المِنْبَرُ الغربيُّ خَلَّاهُ ربُّه		فإن أميرَ المؤمنين يزيد

وحرضوهم على هجاء معارضيهم ، عاملين على إذاعة هجائهم في الجوامع والمحافل ، كما فعل عبد الملك بن مروان بأبي العباس الأعمى ، حين حج فطلب إليه أن ينشده هجاء ابن الزبير على ملأ من الناس ، يقصد بذلك إلى التأثير فيهم ، وهو يعلم أن الحجاز معقل صحبه وأتباعه ، ومنشأ المعارضة القوية للحكم الأموي . قال صاحب الأغاني : حج عبد الملك بن مروان ، فجلس للناس بمكة فدخلوا على مراتبهم ، وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا ، ودخل أبو العباس الأعمى ، فلما رآه عبد الملك قال : مرحباً بك يا أبا العباس ! أخبرني بخبر الملحد المحل . حيث كسا أشياعه ولم يكسك ، وأنشدني ما قلت في ذلك. فأخبره بخبر ابن الزبير ، وأنه كسا بني أسد وأحلافها ولم يكسه ، وأنشده الأبيات :(١)

بني أسد لا تذكروا الفخرَ بينكم		متى تذكروه تكذبوا وتُحمَّقوا
بعيدات بين خيركم لصديقكم		وشركم يغدو عليه ويَطرُق(٢)
متى تُسألوا فضلاً تضِنُّوا وتبخلوا		ونيرانكم بالشر فيها تَحرَّق
إذا استَبَقَتْ يوماً قريش وُجدتُم		بني أسد سُكَّتاً وذو الجد يسبق(٣)
تجيئون خَلفَ القومِ سُوداً وجوهكم		إذا ما قُريشٌ للأضاميم أصفقوا(٤)
وما ذاك إلا أن للُّؤم طابعاً		يَلُوح عليكم وَسْمُه ليس يَخلُق

(١) الأغاني ٥ : ٦٢

(٢) الطرق والطروق الاتيان بالليل ، والغدو ضد الرواح ، والغدوة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، بعيدات بين خيركم كذلك هي بالأصل ولعله يقصد : بعيد ما بين خيركم .

(٣) سكت جمع سكيت (بوزن كميت) وقد تشدد الكاف وهو آخر خيل الحلبة .

(٤) الإضامة الجماعة من الناس ليس أصلهم واحداً . أصفقوا اجتمعوا . أي حين يجتمعون على طعام من ينزل بهم من جماعات الضيفان .

فقال عبدالملك ، أقسم على كل من حضر من بني أمية وأحلافهم ومواليهم ثم على كل من حضر من أوليائي وشيعتي على دعوتهم ، إلا كـا أبا العباس .

بذلك أصبحت السياسة والحزبية خرفة يتكسب منها الشعراء . وهـذا هو أعشى همدان ، يذكر ابن الأشعث ببلائه وصبره معـه في الشدة ، ويطالبه بثمن شعره وولائه ، في قصيدة طويلة منها[1] :

كم قـد أسديّ لك من مدحـة ... تُروَى مع الصادرِ والوارد
وكم أجبنــا لك من دعوة ... فاعرِفْ فما العَارِفُ كالجامِد
ما لك لا تُعطي وأنت امرؤ ... مُثْرٍ من الطـارف والتالد
تَجْبِي سِجِستانَ وما حولها ... مُتَّكِيًا في عيشك الراغـد
لا ترهبُ الدهرَ وأيامهـا ... وتَجْرُدُ الأرضَ مع الجـارد
إن يكُ مكروهٌ تَهِجْنا له ... وأنت في المعروف كالراقـد
ثم ترى أنـا سنرضى بـذا ... كلا وربِّ الراكع الساجد
وحُرْمـةِ البيتِ وأستاره ... ومَن بـه من ناسك عـابد
مـا أنا إن هاجك مِن بعدها ... هَيْجٌ بآتيك ولا كابـد
ولا إذا ناطوك في حَلْقة[2] ... بحاملٍ عنـك ولا ناقد

(١) ديوان أعشى قيس والأعشون الآخرون ص ٣٢٤ ، والأغاني ٦ : ٤٧ -- ٤٩ ط. دار الكتب .

(٢) الحلقة الدرع خاصة ، وقيل السلاح كله . والحلقة كذلك الحبل . والمعنى صحيح في الحالين . يعني الشاعر أنه لن يكون معه بعد اليوم إذا احتاج اليه وكان في ضيق من أمره ، في الحروب على المعنى الأول ، أو أسيراً على المعنى الثاني .

فاعطِ ما أعطيته طيِّباً لا خير في المَنْكُود والناكد [1]
وأنجِز الوعد إذا قلتَه ليس الذي يُنجِز كالواعد

وقد أعان التشجيع من جانب الخلفاء والزعماء ، والطمع من جانب الشعراء ، على استفحال الهجاء السياسي ، فاستطار شره بين الناس ، حتى أصبحوا يجتمعون لذلك فينشدون أهاجيهم ، ولا يفترقون إلا بعد قتال ، كما كان يفعل سُدَيْف [2] مولى بني هاشم وشبيب مولى بني أمية . قال أبوالفرج في أخبار سديف : شاعر مقل من شعراء الحجاز . ومن مخضرمي الدولتين . وكان شديد التعصب لبني هاشم ، مظهراً لذلك أيام بني أمية . وكان يخرج إلى صحار صغار في ظاهر مكة ، يقال لها صفا السِّباب ، ويخرج مولى لبني أمية معه يقال له شبيب . فيتشاتمان ويذكران المثالب والمعايب . ويخرج معهما من سفهاء الفريقين من يتعصب لهذا ولهذا . فلا يبرحون حتى تكون الجراح والشجاج ، ويخرج السلطان إليهم فيفرقهم ويعاقب الجناة . فلم تزل العصبية بهم . حتى شاعت في العامة والسفلة . وكانوا صنفين ، يقال لهم السُّدَيْفية والشبيبية . وقال في موضع آخر [3] ، في قول الشاعر :

سكنوا الجزع جِزْعَ بيت أبي مو سى إلى النخل من صفي السباب

(وصفي السباب بفتح الفاء وكسرها جميعاً . وهو شعب من شعاب مكة ، فيها صفاً أي صخر مطروح ، وكانت قريش تخرج فتقف على ذلك الموضع ، فيفتخرون ثم يتشاتمون ، وذلك في الجاهلية ، فلا يفترقون إلا عن قتال .

---

(١) نكد فلان فلاناً منعه ما سأله ، أو لم يعطه إلا أقلة .
(٢) الأغاني ٤ : ٦٢
(٣) الأغاني ٩ : ١٧٥

ثم صار ذلك في صــــدر الإسلام أيضاً ، حتى نشأ سديف ، مولى عتبة بن أبي سديف ، وشبيب مولى بني أمية ، فكان هذا يخرج في موالي بني هاشم ، وهذا في موالي بني أمية ، فيفتخرون ثم يتشاتمون ثم يتجالدون بالسيوف . وكان يقال لهم السديفية والشبيبية . وكان أهل مكة مقتسمين بينهما في العصبية) .

بل لقد غَرِيَ الناس بالهجاء . حتى أصبح بدعـاً في ذلك الوقت . صاروا يتهاجون لغير خصومة ، كلفاً باللجاج والمراء . جاء البردخت إلى جرير ، فقال : تهاجيني ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا البردخت . قال : وما البردخت ؟ قال : الفارغ بالفارسية . قال : ما كنت لأشغل نفسي بفراغك [1] . ورحل قوم إلى عَديّ بن الرقاع ليهاجوه ، فتقدمت إليهم بنته فقالت :

تجمَّعْتمُ من كل أوبٍ ومنزل على واحـدٍ لا زلتُمُ قِرنَ واحد

فانصرفوا عنه ولم يهاجوه [2] . وكان المغيرة بن حَبْناء يهـاجي أخاه صخر بن حبناء ، ولهما قصائد يتناقضانها كثيرة [3] . وكان ابن ميادة متعرضاً للشر ، طالباً لمهاجاة الشعراء ومسابة الناس . وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول :

اعرَنْزِمِي ميّادُ للقوافي واستميعهن ولا تخافي
ستجدين ابنَكِ ذا قِذاف [4]

ولا نكاد نعرف في هذا العصر شاعراً مشهوراً ، إلا قد أخــذ من الهجاء

(١) الشعر والشعراء ٢٧٣
(٢) الشعر والشعراء ٢٣٧
(٣) الأغاني ١١ : ١٦٢
(٤) الأغاني ٢ : ٢٦٣ ، الشعر والشعراء ٢٩٨

بنصيب . يقول ابن قتيبة في أخبار ذي الرمة : وإنما وضعه عندهم ، أنه كان لا يجيد المدح ولا الهجاء[1].

واحتل المربد في العراق – موطن الفـــتن والاضطرابات والهجاء في العصر الأموي – مكان عكاظ من الحجاز في الجاهلية ، فصار مجمع الناس في خصوماتهم الخاصة ، وفي محافلهم السياسية العامة. يقول ابن عبد ربه : قدم طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين البصرة ، فتلقاهم الناس بأعلى المربد ، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان . فتكلم طلحة ، وتكلمت عائشة ، وكثر اللغط . فجعل طلحة يقول : أيها الناس أنصتوا . وجعلوا يرهجون ولا ينصتون . فقـــال : أف ! أف ! فراش نار وذباب طمع ![2] وفي المربد كانت تنشد نقائض جرير والفرزدق . وكان لكل منهما حلقة معروفة ومكان معين يجتمع فيه بأصحابه . قال أبو الفرج : وكان لراعي الإبل والفـــرزدق وجلسائهما حلقة معروفة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها . ثم أصبح (جرير) ، حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا مجالسهم بالمربد – وكان جرير يعرف مجلس الراعي ومجلس الفرزدق – فدعا بدهن فادهن وأصلح وجهه ، حتى إذا كان بموضع السلام لم يسلم ، ثم قال: يا غلام قل لعبيد الراعي أبعثك نسوتك تكسبهم المال بالعراق ؟ والذي نفس جرير بيده لتؤوبن إليهن بمير يسوؤهن ولا يسرهن. ثم اندفع في القصيدة (وهي التي يقول فيها بيتــه المشهور : فغض الطرف إنك من نمير) فنكس الفرزدق رأسه ، وأطرق الراعي[3] . وفي المربد تهـــاجى النابغة الجعدي وأوس بن مَغْراء ، وحضرهما العجـــاج والأخطل وكعب بن جُعَيل ، وكلهم شارك في المهاجاة يعين صاحبه بشعره.[4] وكثيراً ما كانت تنتهي

---

(١) الشعر والشعراء ٢١٠
(٢) العقد الفريد ٥ : ٧١
(٣) الأغاني ٢٠ : ١٦٩
(٤) الأغاني ٥ : ١٢

المهاجاة بالقتال كما يروي صاحب الأغاني في خبر جرير والفرزدق . يقول : ولما تواقف جرير والفرزدق بالمربد للهجاء ، اقتتلت بنو يربوع وبنو مجاشع ، فأمدت بنو العم بني مجاشع ، وجاؤوهم في أيديهم الخشب ، فطردوا بني يربوع ، فقال جرير : من هؤلاء ؟ قالوا : بنو العم . فقال جرير :

ما للفرزدق من عز يلوذ به   إلا بني العم في أيديهم الخشب (١)

وربما أنشد فيه الشعراء شعرهم في غير الهجاء ، وقد خرجوا على الناس في أحسن لباسهم وأبهى زينتهم ، كما يروي أبو الفرج في وقوف ذي الرُّمة بالمربد ، وقد اجتمع عليه الناس ، وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وهو ينشد ودموعه تجري على لحيته :

ما بالُ عينِك منها الماءُ ينسكب   كأنه من كُلىً مفريّةٍ سَرِبُ (٢)

وقد اختلفت صور الهجاء السياسي في ذلك العصر وتعددت مذاهبه ، فمضى بعضه على الأسلوب الجاهلي الذي يقوم على العصبية القبلية . واتجه بعضه إلى مهاجمة أصحاب الدعوات والمحاربين في سبيل السلطة ، وإنكار حقهم في ذلك ، وتتبع سقطاتهم ، والتشنيع بأفعالهم وهفواتهم . وانصب بعضه الآخر على الولاة ، مهاجما سياستهم البعيدة عن العدل والانصاف ، والمخالفة لما ألف الناس من عادات . وذهب فريق من الناس مذهب الساخط على كل هؤلاء الزعماء القرشيين ، الذين امتلأت نفوسهم بالطمع ، فجروا على الناس هذه الويلات ، التي لا تعود عليهم بغير الشر والفناء .

---

(١) الأغاني ٣ : ٢٥٧

(٢) الأغاني ١٦ : ١٢٣

أما شعر العصبية فهو جاهلي في روحه وخصائصه ، لم يتأثر بالمثل الإسلامية الجديدة في قليل أو كثير ، فهو امتداد لشعر الحروب التي كانت تقع بين القبائل في الجاهلية . فالقيسي لا يحس أنه يقاتل من أجل ابن الزبير ، وليس الذي يدفعه للقتال عداءه للأمويين ، ولكنه يحارب هذه القبائل اليمنية ، التي عادت للظهور بعد أن أخملها الإسلام ، وقضى على مجدها الجاهلي القديم . واليمنية – ومعظمهم من الشام – يقاتلون في سبيل الظهور إلى الحياة ، واستعادة سلطانهم السياسي ، وإقرار الملك في الشام بعد أن أزاله الإسلام ونقله إلى الحجاز ، والأمويون عندهم مطية لتحقيق أغراضهم ، وسبب لما يحاولون من السيادة والملك . والدارس لهذا اللون من ألوان الهجاء السياسي ، يرى أن القيسي عميق الشعور بمضريته ، واليمني عميق الشعور بيمنيته . فالقيسي لا يحس أنه تابع لابن الزبير ، ولكنه قيسي قبل كل شيء وبعد كل شيء . واليمني لا يحس أنه من جند معاوية أو مروان ، ولكنه يمني أولاً وآخراً . فالفريقان كلاهما لم يكونا مدفوعين إلى القتال بفكرة سياسية حول نظام الحكم أي أنواعه أصلح ، وأيها أدنى لتحقيق العدالة وإقامة الإسلام ، ولكنهما كانا مدفوعين إليه بالعصبيات الجاهلية والثارات القديمة ، ولم تكن هذه الفتنة الإسلامية الجديدة إلا منفذاً أو ثغرة لهذه الحزازات ، التي تلمست طريقها إلى الوجود عن طريق هؤلاء الزعماء الذين يتقاتلون على الحكم .

يقول زفر بن الحارث الكلابي في مرج راهط[1] :

أريني سلاحي لا أبالك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه ... مُقيدٌ دمي أو قاطعٌ من لسانيا
ففي العِيسِ مَنْجاةٌ وفي الأرض مَهْرَبٌ ... إذا نحن رفَّعْنا لهن المَثانِيا[2]

---

(١) الطبري وابن الأثير حوادث سنة ٦٥

(٢) المثاني معاطف الوادي ، وركبتا الدابة ومرفقاها ، والمعنى يصلح بكليهما .

فلا تحسبوني إن تغَيَّبْتُ غافلا ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد ينبتُ المَرعَى على دِمَن الثرى ... وتَبقَى حزازاتُ النفوس كما هيا [١]

أتذهب كلْبٌ لم تنلْهَا رماحنا ... وتُتْرَكُ قتلى راهطٍ هي ما هيا [٢]

لَعَمْري لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ ... لحسَّانَ صَدعاً بَيِّنا متنائيا [٣]

أمن بَعْدِ عمروٍ وابن معنٍ تتابعا ... ومَقْتَل همَّامٍ أُمَنِّي الأمانيا [٤]

فلم تُرَ منِّي نبوةٌ قبل هذه ... فراري وتركي صاحِبَيَّ ورائيا [٥]

---

(١) الدمن أورواث البهائم المتلبدة والأبعار . يقول إن الحقد الدفين يظل كامناً في النفس وإن سترته مظاهر البشاشة كما أن المراعي الخضر الزاهية تنبت فوق الدمن فتخفيهـا عن الأعين ولكنها باقية كما هي .

(٢) كلب قبيلة يمنية تسكن بادية الشام أصهر إليهم معاوية ، منهم أم ولده يزيد ، ثم أصهر إليهم يزيد فكانوا أخوال ولده خالد. وقد كانوا منذ ذلك الوقت عصبية أموية. قتلى راهط يقصد وقعة مرج راهط وهي من المواقع العظيمة الحاسمة، كانت بين الزبيرية بقيادة الضحاك بن قيس وبين الأمويين يقودهم مروان بن الحكم • وقد كان جند مروان في هذه الموقعة من اليمنية (كلب وغسان والسكاسك والسكون) وكان جند الضحاك من قيس عيلان . وقد قتل من القيسية في هذه الموقعة عدد ضخم .

(٣) حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ، كان عامل معاوية وابنه يزيد في فلسطين .

(٤) هؤلاء قيسية قتلوا في مرج راهط .

(٥) النبوة الجفوة والبعد ، والمقصود به هنا الخطأ والزلة ، لأنها بعد عن الحق والمروءة . كان زفر بقنسرين ، فهرب منها ولحق بقرقيسيا حين علم بمقتل الضحاك بن قيس في مرج راهط . وصحبه في فراره شابان من سليم • فلما جاءت خيل مروان في طلبه قال له الشابان انج بنفسك ودعنا نقتل . فمضى وتركهما فقتلا . فذلك هو ما أشار إليه في البيت من ندمه على قتل صاحبيه.

عشية أعدُو بالقران فلا أرى — من الناس إلا مَنْ عَلَيَّ ولا ليا[1]

أيذهب يومٌ واحدٌ إن أساته — بصالح أيامِي وحُسْنِ بَلائيا

فلا صُلحَ حتى تنحِط الخيل بالقنا — وتثأر من نسوان كلْبٍ نسائيا[2]

ألا ليت شعري هل تُصيبنَّ غارتي — تَنُوخاً وحيي طيءٍ من شفائيا[3]

فيجيبه جَوَّاس بن قَعْطَل :

لعمري لقد أبقتْ وقيعة راهطٍ — على زُفرٍ داءً من الداء باقيا

مقيماً ثوى بين الضلوع محلُّه — وبين الحشا أعيى الطبيب المُداويا

تُبَكِّي على قتلى سُليمٍ وعامرٍ — وذبيان معذورا وتُبكي البواكيا[4]

دَعَا بسلاح ثم أحجم إذ رأى — سيوف جنَابٍ والطوال المَذاكيا[5]

عليها كأُسد الغاب فتيانُ نجدةٍ — إذا شرعوا نحو الطِّعان العواليا

---

(١) القران (بكسر القاف) جمع قرن (بفتحتين) . والقرن الجعبة ، والسيف ،والنبل ، وحبل يجمع به البعيران ، والبعير المقرون بآخر . وروى ابن الأثير البيت (عشية أدعو في القران) . ويمكن فهم المعنى بشيء من التحايل المتكلف على الروايتين . والأرجح أن يكون (القران) اسم موضع .

(٢) نحط الفرس (كضرب) نحطاً ونحيطاً صات من الإعياء .

(٣) كلب وتنوخ وطيء قبائل يمنية اشتركت مع الأمويين في مرج راهط .

(٤) سليم وعامر وذبيان قبائل من قيس عيلان .

(٥) المذاكي هي الخيل التي تم سنها وكملت قوتها ، الواحد مذك(بضم فسكون) ومذكي (بضم ثم فتح) .

ويجيبه عمرو بن مِخلاة الكلبي :

بكى زُفَرُ القيسيُّ من هُلْكِ قومه — بعَبْرة عين ما يجفُّ سُجُومها
يُبَكّي على قَتْلى أصيبتْ براهط — تجاوِبُه هام القفــار وبُومُها
أبحنا حِمَى للحيِّ قيس براهط — وولَّتْ شِلَالاً واستُبيحَ حريمُها
يُبَكّيهمُ حَرّانَ تجري دموعُه — يُرَجّي نزارا أن تثُوبَ حلومُها
فمُتْ كمداً أو عِشْ ذليلاً مُهضّماً — بحسرة نفسٍ لا تَنامُ هُمومُها
إذا خطَرَتْ حوليَ قضاعةُ بالقنا — تخبَّطُ فِعْلَ المُصعَباتِ قُرومُها[1]
خَبطتُ بهم من كادَني من قبيلةٍ — فمن ذا إذا عزَّ الخطوبُ يرومُها

ويعز على زفر أن يُقتَل ابن الزبير وهو قرشي مضري ، بينما بحدل وابن بحدل – أخوال يزيد بن معاوية – ينعمان بالحياة وهما يمنيان فيقول :

أَفِي اللهِ أمَّا بَحْدَلٌ وابن بَحْدَل — فيَحيَا وأما ابنُ الزبير فيُقتَلُ
كذبتم وبَيت الله لا تقتُلُونَه — ولمَّا يكُنْ يومٌ أغرُّ مُحَجَّلُ
ولما يكُنْ للمَشرفيَّةِ فوقكم — شُعاعٌ كقرنِ الشمس حين تَرَجَّلُ[2]

فيجيبه عبد الرحمن بن الحكم (أخو مروان) :

أتذهبُ كلبٌ قد حَمَتْها رماحُنا — وتُتركُ قتلى راهطٍ ما أُجنَّت

---

(١) المصعب الفحل من الإبل الذي يترك لا يركب ولا يمسه حبل حتى يصير صعباً . ج مصاعب ومصاعيب . القرم (بفتح فسكون) الفحل الذي لا يركب ولا يحمل عليه ، ويغلى الفحلة (بكسر القاف) . خبط البعير وتخبط وطيء الأرض وطئاً شديداً .

(٢) ترجلت الشمس والنهار ارتفع .

لحا الله قيساً قيسَ عيلانَ انها أضاعَتْ ثغورَ المسلمين وولّت
فباءِ بقيسٍ في الرخاءِ ولا تَكُن أخاها اذا ما المَشْرَفيَّةِ سُلَّتِ

ومما يناسب هذا النوع شعر ابن بقيلة، الذي قاله في فتح خالد للعراق يتحسر على ما كان لليمنية من مجد في الجاهلية ، وما صاروا إليه من الخضوع للقبائل من معد ، يؤدون إليهم الخراج بعد أن كانوا يأخذونه من كسرى في العراق ومن اليهود في المدينة [١] .

أبعد المنذرَيْن أرى سَواما تَرَوَّحُ بالخورنق والسَّدِيرِ [٢]
وبعد فوارس النُعمان أرعى قَلوصاً بين مُرَّة والحَفِير
فصرْنا بعد هُلْكِ أبي قُبَيْس كجَرْب المَعْزِ في اليوم المطير [٣]
تَقَسَّمُنا القبائلُ من مَعَدٍّ علانيةً كأيسار الجَزُور [٤]
وكنَّا لا يُرامُ لنا حَريمٌ فنحن كضَرَّةِ الضَّرْعِ الفَخُور

---

(١) الطبري أحداث سنة ١٢

(٢) المنذران ملكان من ملوك الحيرة هما المنذر بن النعمان الذي بنى الخورنق والمنذر بن ماء السماء . وماء السماء أمه كانت مشهورة بحسنها وجمالها . وأبوه الأسود بن النعمان بن المنذر. الخورنق والسدير قصران مشهوران لملوك الحيرة .

(٣) أبو قبيس يقصد أبا قابوس النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبياني . الجرب والجربة (بفتح فسكون) الجماعة . والجرب (بضم الجيم) جمع أجرب والمعني صحيح بكليهما .

(٤) هو معد بن عدنان الجد الأكبر لعرب الشمال من ربيعة ومضر . ويقابله قحطان الجد الأكبر لعرب الجنوب من كهلان وحمير. وملوك الحيرة والشام من عرب الجنوب. يقول الشاعر : بعد أن كان عرب الجنوب من القحطانية ملوك الناس أصبح عرب الشمال يملكون عليهم ويتقسمونهم بينهم كما يتقسم لاعبو الميسر الجزور . والجزور من الابل الناقة أو الجمل ، يطلق على الذكر والأنثى .

نُؤدِّي الخرجَ بعد خراج كِسْرى وخرجٍ من قُريظَةَ والنَّضِيرِ
كذاك الدهرُ دولته سِجَالٌ فيومٌ من مَساءَةَ أو سُرُورِ

ومنه شعر النجاشي ، في معارضة سياسة معاوية إزاء اليمنيين في الحروب ، إذ كان يغزيهم في البحر ويغزي تميماً في البر [1] :

ألا أيها الناسُ الذين تَجمَّعوا بعَكَّا أناسٌ أنتم أم أبَاعِرُ
أتُتْرَكُ قيسٌ آمنين بِدَارِهم ونركبُ ظهرَ البَحْرِ والبحرُ زاخر؟
فواللهِ ما أدري وإني لسائلٌ أهَمْدَانُ تَحْمِي ضَيْمَها أم يُحابِرُ ؟
أم الشرف الأعلى من أولاد حِمْيَر بنو مالك أم تستَمِرُّ المرائرُ [2]
أأوصَى أبوهُمْ بينهم أن تَوَاصَلُوا وأوصى أبوكم بينكم أن تدَابَرُوا ؟

وهناك نوع جديد من هذا الهجاء العصبي لم يعرفه الجاهليون ، هو هجاء الإقليم . وهو يصور تعلق الناس بأوطانهم التي نزحوا إليها ، وشعورهم برابطة جديدة تجمعهم على اختلاف قبائلهم ، هي الإقليم . فالعربي الذي لم يعرف الاستقرار في الجاهلية ، ولم تكن تحركه إلا العصبية للأفراد من قبيلته ، قد بدأ يحس بشيء من العطف نحو الأرض التي سكنها واستقر فيها وتعلق بها . ومن أمثلة هذا النوع ، هجاء أعشى همدان لأهل العراق ، في تلونهم وإرصادهم الفتنة ونكوصهم في الحروب :

---

(١) خزانة الأدب ٣ : ٢٥٥

(٢) همدان قبيلة يمنية . يحابر قبيلة يمنية ، وهو أبو مراد . وحمير أحد فروع قحطان من عرب الجنوب ، ومالك هو مالك بن حمير وهو جد لعدة قبائل منها كلب ونهد وجرم وغيرهم . المرة (بكسر الميم وتشديد الراء) القوة . وأمر الحبل شد فتله . استمر مريره واستمرت مريرته استحكم .

أبى اللهُ إلا أن يُتَمِّمَ نورَه ... ويُطفِىء نور الفاسقين فيُخمَدا [1]

ويُظهِرَ أهلَ الحقِّ في كلِّ موطنٍ ... ويَعدِلَ وقعُ السيفِ من كان أصْيَدا [2]

ويُنْزِلَ ذلاًّ بالعراق وأهلِه ... لما نقضوا العَهْدَ الوثيقَ المؤكَّدا

وما أحدَثوا من بدعةٍ وعظيمةٍ ... من القولِ لم تَصْعد إلى الله مَصْعَدا

وما نكثوا من بَيْعة بعد بَيْعَةٍ ... إذا ضَمِنُوها اليومَ خاسُوا بها غدا [3]

وجُبْناً حشاه ربُّهم في قُلُوبهم ... فما يَقْرَبون الناسَ إلا تَهَدُّدا

فلا صِدقَ في قولٍ ولا صبرَ عندهم ... ولكنَّ فَخراً فيهمُ وتَزَيُّداً

فكيف رأيتَ اللهُ فرَّقَ جَمْعَهم ... ومزَّقهم عَرْضَ البلادِ وشرَّدا

فقتْلاهُمُ قتلى ضلالٍ وفتنةٍ ... وحيُّهُمُ أمسى ذليلاً مُطرَّدا

ومنه هجاؤه لأهل البصرة مفتخراً عليهم بيوم الجمل :

اكسع البَصْريَّ إن لاقيتـه ... إنما يُكْسَعُ من قَلَّ وذَلّْ [4]

واجعل الكوفيَّ في الخَيْل ولا ... تجعل البَصْريَّ إلا في النَفَلْ [5]

---

(١) الديوان ص ٣٢٠ . وقصة الأبيات وخبرها في الأغاني ٦ : ٥٨ - ٦٢ ط دار الكتب المصرية . ورواية الأغاني : ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا ، وهي أفضل .

(٢) الصيد (محركة بفتح الصاد) داء بالعنق لا يستطيع صاحبه أن يلتفت معه . والمقصود به هنا الكبر . كان أهل الكوفة جند علي يوم الجمل سنة ٤٠ هـ . وكان أهل البصرة مع المطالبين بدم عثمان من الصحابة ، فيهم طلحة والزبير ومن معهما من بني أمية .

(٣) خاس اللحم (كضرب) تغير وفسد . خاس بالعهد غدر ونكث .

(٤) كسعه (مثل منعه) ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٥) النفل (محركة بالفتح)الغنيمة وجمعها أنفال . يقول إن الكوفي يصلح للقتال أما البصري فهو لا يصلح إلا لاقتسام الغنائم .

أفخَرْتُم أن قَتَلْتُم أعبُداً ... وهَزمْتُم مرةً آلَ عَزَلْ[1]

نحنُ سُقنــاهُمْ إليكم عَنْوَةً ... وجمعنا أمركُم بعـــدَ فَشَلْ

وإذا فاخرتمونـــا فاذكروا ... ما فعلنـــا بكُمُ يوم الجَمَلْ

بين شيخٍ خاضبٍ عُثْنُونَه ... وفتى أبيض وضَّاحٍ رِفَلْ[2]

جاءنا يَهْدِجُ في سابغَــةٍ ... فذبحناه ضُحًى ذَبْحَ الحَمَلْ[3]

وعفونـــا فنسيتم عَفْوَنَا ... وكفرتم نعمةَ الله الأَجَـلّ

وقتلتم خَشَبيِّين بهـم ... بَدَلاً من قَوْمِكُم شرَّ بَدَلْ[4]

ومنه هجاؤه لمُكْثران – والظاهر أنه قد سار إليها غازياً على كره منه – وشعره هنا يصور إلى جانب النزعة الإقليمية ضيقاً بالغزو ، وبما يلقى الجند من عنت ، يجره الإيغال في الفتوح ، وترك الجنود في الثغور زمنـاً طويلاً . يقول

---

(١) العزل (بفتحتين) الاعتزال والتنحي ، قصد بآل عزل الخوارج لاعتزالهم جماعة المسلمين . والأبيـات في الديوان ص ٣٣٧ . ولها قصة في الأغاني ٦ : ٥٤ ط. دار الكتب المصرية .

(٢) العثنون(بضم العين) اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين . وإنما يخضب الرجل لحيته إذا شاب ليغطي بالخضاب شيبه . رفل مختال يتبختر .

(٣) الهدجان والهداج (بضم الهاء) مشية الشيخ المرتعشة . سابغة درع تغطي سائر الجسم. الحمل(بفتحتين) الخروف .

(٤) الخشبية أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي ثار سنة ٦٦ وغلب على الكوفة وأخرج منها عامل ابن الزبير ، زاعماً أنه يعمل بأمر محمد بن الحنفية ويطلب بدم الحسين رضي الله عنه . وقد التقى المختار مع جنده من أهل الكوفة بمصعب بن الزبير مع جنده من أهـل البصرة ، فهزم جند المختار . ودخل مصعب الكوفة فقتل المختار وكل من كان معه .

الأعشى بعد تشبيب طويل يبلغ ستة وثلاثين بيتاً [١] :

وَأنت تسير إلى مُكَّرانْ فقد شَحَطَ الوِرْدُ والَمصْدَر
ولم تك من حاجتي مُكَّران ولا الغزوُ فيها ولا المَتْجَرُ
وخُبِّرْتُ عنها ولم آتِها وما زلت من ذكرها أذعَر
بأن الكثيرَ بهـا جائعٌ وأن القليلَ بهـا مُقتِرُ
وأن لِحَى النـاس من حَرِّها تطول فتُجلَم أو تُضفَرُ [٢]
ويَزْعمُ من جاءها قبلنا بأنا سنُسهَمُ أو نُنحَر [٣]
أعوذ بربي من المُخْزِيات فيما أُسِرُّ وما أجهَر
وحُدِّثتُ أن مـا لنا رَجعةٌ سنينَ ومن بعدها أشهر
إلى ذاك ما شاب أبناؤنا وباد الأَخِلّاءُ والمَعْشَر
وما كان بي من نشاط لهـا وإني لذو عُدَّةٍ مُوسِر

---

(١) ضرب البعث على جيش أهل الكوفة إلى (مكران) ، فأخرج الحجاج أعشى همدان مع الجيش إلى مكران، فخرج إليها وطال مقامه بها ومرض . فكرهها فقال هذا الشعر . وهو من قصيدة طويلة أولها :

طلبتَ الصبا إذ علا المَكْبَر وشاب القَذال وما تقصر

واجع الأبيات وقصتها في الأغاني ٦ : ٣٨ – ٤٢ ط. دار الكتب المصرية وفي الديوان ص ٣٢٨

(٢) جلم الصوف (كضرب) جزه وقصه .
(٣) نسهم (على البنـاء للمجهول) أي نقسم بين الناس فنكون في سهم أحدهم أي في قرعته ونصيبه .

ولكن بُعِثْت لهــا كارهاً وقيــل انطلق للذي يؤمَن
فكان النَّجـاءُ ولم ألتفت إليهم وشرُّهمُ منكَر[1]
هو السيفُ جُرِّدَ من غِمْدِه فليس عن السيف مستأخر
وكم من أخ لي مستأنِسٍ يظل به الدمع يستحسِر[2]
يُودّعُني وانتحتْ عَبْرَةٌ له كالجــداول أو أغزر
فلستُ بلاقيه من بعدها يَدَ الدهر ما هَبَّت الصَّرصَر
وقــد قيل إنكمُ عابرو ن بحراً لهـا لم يكن يُعبَر
إلى السِنْد والهند من أرضهم هم الجنّ لكنهــم أنكَرُ
وما رام غزواً لها قبلنـا أكابرُ عــادٍ ولا حِمْيَرُ
ولا رام سابُورُ غزواً لهـا ولا الشيخُ كسرى ولا قَيْصَر
ومن دونها مَعْبَرٌ واسع وأجرٌ عظيم لمن يؤجَر

ومن الهجاء الذي تظهر فيه عصبية الإقليم ، قول عدي بن زيد بن عدي بن الرقاع العاملي ، في حرب مصعب بالعراق حين زحف إليه عبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ [3] :

لعمري لقد أصحَرَتْ خيلُنا بأكناف دجلةَ للمُصْعَبِ[4]

(١) النجاء السرعة في السير .

(٢) حسر البعير (كضرب وفرح) واستحسر كلّ وأعيا . فكأن الدمع قد كلّ وأعيا من كثرة البكاء .

(٣) الطبري أحداث سنة ٧١

(٤) أصحرت خرجت للصحراء .

إذا ما مُنافقُ أهلِ العرا ق عُوتب ثُمّتَ لم يُعْتَبِ [١]

دَلَفْنا إليه بذِي تَدْرُءٍ قليـلِ التَفَقُّدِ للغُيَّب [٢]

يَهزون كلَّ طويل القنـا ة ملتئم النَّصْل والثَّعْلَب [٣]

كأن دُعاهُم إذا ما غدَوا ضجيجُ قطا بلدٍ مُخْصِب

فقدَّمنا واضحٌ وجهه كريمُ الضَّرائِب والمَنْصِب [٤]

أُعِينَ بنا ونُصِرْنا به ومن يَنْصُر الله لم يُغْلَب

ومنه شعر نُعَيم بن هُبَيْرة الشيباني ، الذي كتب به إلى أخيه مَصْقَلَة بن هُبَيْرة ، وقد انتقل إلى الشام ، وانضم إلى جند معاوية ، ثم أرسل إلى أخيه يطمعه في ترك علي ، والانضمام لمعاوية [٥] :

قدكنتَ في مَنْظر عن ذا ومُسْتَمَع تحْمي العراقَ وتُدعى خيرَ شيبانا [٦]

---

(١) أعتبه سره بعد ما ساءه ، وأرضاه. والاسم منه العتبى . أي أنه لم يعاتب لإرضائه، ولكنه عوتب بالسيوف .

(٢) دلف الشيخ والمقيد دليفاً ودلوفاً وهو سير فوق الدبيب .درأ العدو دفعه،وذو تدرء قوي على دفع أعدائه . قليل التفقد أي لا يبالي من غاب من جنده ولا يفت ذلك في عزمه لشدة ثقته والمقصود بذلك عبد الملك بن مروان .

(٣) الثعلب طرف الرمح الداخل في تجويف السنان من قاعدته .

(٤) الضرائب جمع ضريبة وهي الطبيعة والسجية . المنصب الأصل والمنبت والمحتد .

(٥) الطبري سنة ٣٨ . وكان مصقلة قد اشترى من علي رضي الله عنه نصارى ناجية .وكانوا قد أسلموا ثم ارتدوا فقتل علي مقاتلهم وسبى ذرّيتهم . ثم إن مصقلة اشترى الذرية وأعتقهم مقابل جمل يدفعه إلى علي – وكان والياً على أردشير – فلما طالبه علي بالجمل ولم يستطع سداده فر إلى معاوية .

(٦) أي كنت موضع النظر والسمع من قومك . يجلونك إذا نظروا إليك ويطيعونك إذا سمعوا منك .

حتى تقحَّمْتَ أمراً كنتَ تكْرَهُه للراكبين له سِرًّا وإعلانا
لو كنتَ أدَّيتَ ما للقوم مصطبِراً للحَقِّ أحيَيْتَ أحيانا وموتانا
لكن لحقت بأهل الشام مُلْتمِساً فضلَ ابن هندٍ وذاك الرأيُ أشجانا

ومما تظهر فيه عصبية الشام وعصبية العراق ، شعر ابن جُعَيْل يعارض علياً ، ويتهمه بإيواء قتلة عثمان والإغضاء عنهم [1] :

أرى الشامَ تَكرهُ مُلْكَ العراق وأهــلُ العراق لها كارهونـا
وكلٌّ لصاحبه مُبغِضٌ يَرَى كلَّ ما كان من ذاك دينـا
إذا ما رَمَونا رميناهُمُ ودِنَّاهم مثلَ ما يُقْرضونا [2]
وقالوا عليٌّ إمام لنـــا فقلنـا رضينـا ابنَ هندٍ رضينا
وقلنـا نرى أن تدينوا لنـا فقالوا لنا لا نرى أن نَدينـا
ومنْ دُونِ ذلك خَرْطُ القَتاد وضربٌ وطعنٌ يُقِرُّ العيونا
وكلٌّ يُسَرُّ بمـا عنـده يرى غثَّ ما في يديه سمينـا
وما في عليٍّ لمستعتِبٍ مقالٌ سوى ضَمِّه المحْدِثينا [3]
وإيثـارِه اليومَ أهلَ الذنوب ورفعِ القِصاص عن القاتلينـا

---

(١) وقعة صفين ص ٦٣ .

(٢) الصواب (يقرضوننا) وحذف النون ضرورة شعرية قبيحة ليس لها وجه يجوزها .

(٣) يقصد بالمحدثين قتلة عثمان . يتهم علياً بإيوائهم . استعتبه طلب منه العتبى (بضم فسكون) أي الرضا . وتستعمل كذلك للضد بمعنى أعطاه العتبى أي أرضاه .

إذا سيلَ عنه حدا شُبْهَةً وعَمّى الجواب على السائلينا[1]

فليس براضٍ ولا ساخطٍ ولا في النُّهاة ولا الآمرينا

ولا هو ساءَ ولا سَرَّه ولا بد من بعض ذا أن يكونا

وإذا تجاوزنا هذا اللون المتخلف الرجعي من الهجاء السياسي ، وجدنا شعراً قد تخطى هذه النزعات القبلية ، ليصور حياة أرقى وتفكيراً أسمى من الناحية الاجتماعية ، ونظرة أوسع وأفقاً أشمل من الناحيــة السياسية . فهو يترفع عن الفكرة القبلية الضيقة ، ويناقش نظام الحكم في هــذا الوطن الجديد الواسع ، مهاجماً هذا أو ذاك من الطامعين في الملك ، معارضاً حقهم فيه . وهــذا الشعر يتميز بإدراكه للحياة الجديدة ، وتأثره بمثل الإسلام وأسلوب القرآن . فالشعراء هنا لا يستمدون فخرهم وهجاءهم من قديمهم الجاهلي ، ولكنهم يستمدونه من حياتهم الإسلامية ، وما لهم فيهــا من سابقة وفضل ، ويزنون الأمور بالمعايير الإسلامية الجديدة . وممــا يصور هذا اللون ، شعر سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، في قتل مصعب لزوجة المختار بن عُبَيْد الثقفي ، وهي بنت النعمان بن بشير[2] :

أتى راكبٌ بالأمر ذي النَّبإ العَجَبْ بقتل ابنة النعمان ذي الدِّين والحسب

بقتل فتــاة ذاتِ دَلٍّ سَتِيرةٍ مهذبة الأخلاق والخِيمِ والنسب[3]

مُطهَّرةٍ من نسل قوم أكارمٍ من المؤثرين الخيرَ في سالف الحقَب

---

(١) إذا سيل يقصد إذا سئل عن القصاص من قتلة عثمان . حدا شبهة ساقها .

(٢) الطبري سنة ٦٧

(٣) الستير : العفيف . الخيم (بكسر الخاء) الطبيعة والسجية .

خليل النبيِّ المصطفى ونصيرُهُ
وصاحبه في الحرب والنَّكْب والكُرَب [1]

أتاني بأن المُلْحِدين توافقوا على قتلها لا جُنِّبوا القتْلَ والسلب [2]

فلا هنأت آلَ الزبير معيشةٌ
وذاقوا لباس الذُّل والخوف والَحرَب [3]

كأنهُمُ إذ أبرزوها وقُطِّعتْ بأسيافهم فازوا بمملكة العَربْ

ألم تعجب الأقوامُ من قتل حُرَّةٍ من المحصَنات الدين محمودة الأدب [4]

من الغافلاتِ المؤمناتِ بريئةٍ من الذم والبُهتان والشَّك والكذِب [5]

علينا كتابُ القتْل والبَأس واجبٌ وهن العِفَاف في الحِجال وفي الحُجُب [6]

على دين أجدادٍ لها وأبوةٍ كرامٍ مضت لم تُخز أهلاً ولم تُرِب

من الَخفرات لا خَروجٌ بَذِيَّةٌ مُلايِمَةٌ تبغي على جارها الُجنُب [7]

---

(١) النكب « بفتح فسكون » المصيبة . وجمعها نكوب .
(٢) يدعو عليهم أن يظلوا آثمين لا يهتدون ، يقتلون ويسلبون .
(٣) حربه حرباً « كنصر » سلبه ماله . وحرب « كعلم » حرباً « بفتحتين» اشتد غضبه .
(٤) أي أن دينها حصين منيـع .
(٥) يشير إلى قوله تعـالى في سورة النور (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ـ النور ٢٣) .
(٦) الحجال جمع حجلة (بالتحريك) . وهي ستر العروس داخل البيت .
وقوله هذا يوافق قول عمر بن أبي ربيعة في قتلها :

إن من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم إن لله درها من قتيـل
كتب القتل والقتال علينـا وعلى المحصنات جر الذيول

(٧) الملاومة أن يلوم كل طرف الطرف الآخر . الجار الجنب هو الملاصق للبيت .

ولا الجارِ ذي القربى ولم تَدْرِ ما الخَنا ... ولم تَزْدلف يوماً بسوءٍ ولم تُجِبِ
عجبتُ لها إذ كفّنت وهي حيـة ... ألا إن هذا الخطبَ من أعجبِ العَجَبِ

فهو هنا لا يعير مصعباً ضعفه أو خمول أجداده ، مستعيناً على ذلك بتاريخهم ومن أذلهم من القبائل وغلبهم ، ولكنه يعيره خروجه على الدين الذي يدعو باسمه ، محتجاً عليه بأنه قد أباح دم مسلمة لا يحل له قتلها ، مستنداً إلى صنيع قومها في الإسلام ، وسابقتهم في نصر النبي ﷺ . وهـذا الشعر واضح التأثر بالقرآن في ألفاظه وأسلوبه ومبادئه الأخلاقية ، في مثل قوله (وذاقوا لبـاس الذل والخوف والحرب) ، وقوله (علينا كتاب القتل والبأس واجب) ،وقوله (على جارها الجنب) ، ثم (ولا الجار ذي القربى) .

وبعض هذا الهجاء منصب على نظـام الحكم ؛ مثل شعر عبدالله بن همّام السّلولي في مبايعة معاوية لابنه يزيد ، وهو يهاجم نظام الوراثة الذي استحدثه معاوية ، قائلاً إنه كسروية ليس من الإسلام في شيء[1] :

فإنْ تأتوا بِرَمْلَةَ أو بهندٍ ... نبايعْهـا أميرة مُؤْمنينا [2]
إذا ما مات كسرى قام كسرى ... نعُدُّ ثلاثةً مُتناسِقينا

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٧٠ وعبدالله بن همام السلولي هو صاحب الأبيات المشهورة التي جمع فيها بين تهنئة يزيد بالخلافة وتعزيته في وفاة أبيه معاوية ، التي يقول فيها :
اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة ... واذكر حباء الذي بالملك حاباكا
لا رزء أعظم في الأقوام نعرفه ... كمثل رزئك أو عقبى كعقباكا
وهي في العقد الفريد ٣ : ٢٠٤

(٢) رملة بنت معاوية ،وهند أمه.يسخر به ويقول كنا مستعدين لأن نبايع بالخلافة لامرأة ما دمت تريد ذلك وتفرضه على الناس .

فيا لهفا لو أنَّ لنـــا ألوفاً ... ولكن لا نعود كما عَنينا
إذاً لضربْتُمُو حتى تعودوا ... بمكَّةَ تلعَقُون بها السَّخينا [1]
حُشينا الغيْظَ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما رَوِينا
لقد ضاعت رعيَّتُكم وأنتم ... تصيدون الأرانبَ غافلينا

وبعضه منصب على أشخاص الحكام ، ونقد سياستهم ، واتهـامهم بجافاة الدين والخروج على الشرع فيما يفعلون ، مثل شعر جارية بن قُدامة السعدي ، يندد بما زعمه من أن طلحة والزبير قد أخرجا عائشة أم المؤمنين للقتال ؛ وقد أمرها الله أن تقر في بيتها [2] :

صُنتُم حـلائلكم وقُدتُم أمَّكم ... هـذا لعمْرُك قِلَّةُ الإنصاف
أُمرت بجَرٍّ ذيولهـا في بيتها ... فهَوَتْ تشُقُّ البيدَ بالإيجـافِ
غرَضـاً يُقاتل دونها أبناؤُها ... بالنَّبْل والخطِيِّ والأسياف
هُتِكتْ بطلحةَوالزبيرسُتُورُها ... هذا المُخبَّرُ عنهم والكافي

وقول عمرة بن مَجرة ، يزعم أنها قد خرجت للقتال ، وحرضت على سفك الدماء [3] :

---

(١) السخينة «كسفينة» طعام رقيق يتخذ من دقيق، دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء. وهو لقب لقريش كانت تعير به لاتخاذها إياه .

(٢) الطبري سنة ٣٦ . وحقيقة الأمر أن سيدتنا عائشة رضي الله عنها لم تخرج للقتالَ ولكنها خرجت هي وطلحة والزبير رضي الله عنهم جميعاً للإصلاح بين الناس . ولكن عصابة ابن سبأ قتلة سيدنا عثمان هي التي أفسدت عليهم عملهم بعد أن كاد يتم الصلح .

(٣) الطبري سنة ٣٦

يا أُمَّنـــا أعَقُّ أمٍّ نعلَمَ   والأمُّ تغذو ولداً وترحم
ألا ترين كم شجاعٍ يُكلَم   وتُختَلَى منه يدٌ ومِعْصم ! [١]

وقول ابن أم كلاب لها ، يتهمها بتهييج الناس على عثمان ، إذ تقول – فيما زعم – (اقتلوا نعثلاً فإنه قد كفر) حتى إذا قتل واجتمع الناس على بيعة علي، قامت تطالبه بدم عثمان [٢] :

منكِ البِداءُ ومنكِ الغِيَرْ   ومنكِ الرياحُ ومنكِ المَطَرْ
وأنتِ أمرتِ بقتل الإمـام   وقلتِ لنـا إنه قد كفر
فهَبْنـــا أطعناكِ في قتله   وقاتلُه عندنـــا من أَمَرْ
ولم يسقُط السقف من فوقنا   ولم ينكسفْ شمسُنا والقمر
وقد بايع الناسُ ذا تَدْرُؤٍ   يُزيلُ الشَّبا ويُقيمُ الصعَرْ [٣]
ويلْبس للحرب أثوابَها   وما مَنْ وَفَى مِثْلَ مَنْ قد غَدر

هذا شعر يناقش المسائل على ضوء الدين ، مروّياً فيها متفكراً . وهو يذهب في هذا التفكير إلى أبعد حدوده ، فلا يتحرج من أن ينقد شخصاً له حرمـــة

---

(١) اختلى الخلَى جزه . والخلى الرطب من النبات .

(٢) الطبري سنة ٣٦ . واتهامها بالتهييج على عثمان اتهام باطل روجه السبئيون فياروجوه من أباطيل ليثيروا بها الناس على الخليفة الشهيد رضي الله عنه . (راجع العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي ص ٦٣ – ١٤٦ ط . السلفية بمصر) .

(٣) الدرء الدفع وذو تدرؤ قوي على مدافعة العدو . الشبا جمع شباة وهي العقرب ساعة تولد، وإبرتها، وحد كل شيء . والشبا كذلك الطحلب وهو أقرب للمقصود هنا أي يزيل الشوائب . الصعر الميل في الخد وهو وصف المتكبر .

ومنزلة كأم المؤمنين رضي الله عنها ، وأن يهاجمها في قسوة وعنف .

ومن هذا النوع شعر أبي حرة – مولى ابن الزبير – في هجائه له، زاعماً أنه قد انصرف عنه لبخله ، ساخراً مما كان لا يزال يقوله للناس : إنما بطني شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائذ بالبيت [1] :

ما زال في سُورة الأعراف يقرؤها   حتى فُؤاديَ مثلُ الخزِّ في اللّين
لو كان بطنُك شِبراً قد شبعتَ وقد   أفضَلْتَ فضلاً كثيراً للمساكين
إن امرءاً كنتُ مولاه فضيَّعني   يرجو الفلاحَ لَعَمري حقٌّ مغبون

وكذلك شعر الضحاك بن فيروز الدَّيلمي فيه :

تُخبِّرُنا أن سوف تكفيك قَبْضَةٌ   وبطنُك شِبرٌ أو أقلُّ من الشِّبْر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قضمتَه   كما قَضَمَت نارُ الغَضَى حَطَبَ السِدْر
فلو كنتَ تَجْزِي أو تُثيبُ بنعمةٍ   قريباً لرَدَّتك العطوفُ على عَمْرو [2]

وشعر أبي الطُفَيل عامر بن واثلة ، يؤيد ابني عباس [3] في دعوتهما للعلويين

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٩٩ وينبغي للقارىء أن يلاحظ أن هذه القطعة والقطعة التالية لشاعرين غير عربيين من الموالي .

(٢) عمرو بن الزبير أخوه وقد كان خارجاً عليه يحاربه مع جند الشام، خرج في جيش الأمويين لحربه في أيام يزيد فانهزم ، وظفر به أخوه عبدالله بن الزبير فحبسه . وكان يخرجه كل يوم ليقتص منه الذين ظلمهم من قبل . فلم يزل يضرب بالسياط اقتصاصاً للذين ضربهم إلا من عفا عنه. وكان عبد الله إذا ضربه بالسياط اقتصاصاً لرجل تركه أياماً حتى يبرأ ، ثم يضربه لآخر . ولم يزل هذا شأنه حتى مات (أنساب الأشراف للبلاذرى ٤ : ٢٤ – ٢٥ من القسم الثاني) .

(٣) هما عبد الله بن عباس ، مات بالطائف في ولاية عبد الله بن الزبير ؛ وعبيد الله بن عباس ، كان والياً لعلي على اليمن حتى عزله معاوية .

ويهجو ابن الزبير لتضييقه عليها ، ومنع الناس من لقائها والجلوس إليها [1] :

لا دَرَّ دَرُّ الليالي كيف تُضحكنا ... منها خطوبٌ أعاجيبٌ وتُبكينا
كنا نجيء ابنَ عباس فيُقْبسنا ... فضلاً ويُكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزالُ عبيدُ الله مترعةً ... جِفانُه مطعِماً ضيفاً ومسكينا
فالبِرُّ والدينُ والدنيا بدارهما ... تنالُ منهما الذي نَبْغي إذا شينا
إن النبيَّ هو النورُ الذي كُشِفَت ... بـه عَمَاياتُ باقينا وماضينا
ورهطُه عِصمةٌ في ديننا ولهم ... فضلٌ علينا وحقٌّ واجبٌ فينا
ولستَ ـ فاعلمه ـ أَوْلَى نا بهم رحماً ... يا ابن الزبير ولا أولى به دينَا
ففيمَ تَمنَعُهم منا وتمنعنا ... منهم وتؤذيهمُ فينا وتؤذينا
لن يُؤْتِيَ اللهُ مَن أخزى ببغضهم ... في الدين عزاً ولا في الأرض تمكينا

وكذلك شعر أنَس بن أبي أناس بن زُنَيْم [2] فيه ، حين تزوج أخوه مصعب عائشة بنت طلحة ، ودفع صداقها ألف ألف درهم [3] :

---

(١) خزانة الأدب ٤ : ٣٠

(٢) من كنانة بن الدؤل ، وأبوه أبو أناس (بضم الهمزة) شاعر شريف . وهو القائل في رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد

وعم أنس سارية بن زنيم ، الذي ناداه سيدنا عمر من فوق المنبر بالمدينة صائحاً : يا سارية ! الجبل الجبل .

(٣) الشعر والشعراء ٢٨٤

أبلغ أميرَ المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يريد خداعا
بُضْعُ الفتاة بألفِ ألفِ درهمٍ وتَبيتُ ساداتُ الجنودِ جياعا [١]
لو لأبي حَفصٍ أقولُ مَقَالتي وأَقُصُّ شأنَ حديثكم لارتاعا [٢]

وكذلك شعر كُثَيِّر فيه ، وقد سجن الحسن بن محمد بن الحنفية ، ومعه خمسة عشر رجلا من بني هاشم [٣] :

تُخبِّرُ من لاقيتَ أنكَ عائذٌ بل العائذُ المظلومُ في سِجن عَارم [٤]
ومن يَلْقَ هذا الشيخَ بالخَيْفِ مِن مِنًى من الناس يَعْلَمْ أنه غيرُ ظالم
سَمِيُّ النبي المصطفى وابنُ عمه وفكَّاكُ أغلال وقاضي مَغَارم
أَبى فهو لا يَشري هدًى بضلالة ولا يتقي في الله لومةَ لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخَيْفِ خَيْفِ المَحَارم
بحيث الحَمَامُ آمِنُ الرَّوْعِ ساكن وحيث العدوُّ كالصديق المسالم
فما فَرَحُ الدنيا بباق لأهله ولا شِدَّةُ البلوى بضربة لازم

---

(١) البضع (بالفتح) القطع والشوق ، والتزوج(وبالضم) مهر النكاح .

(٢) أبو حفص كنية عمر بن الخطاب .

(٣) الكامل للمبرد ٢ : ١٦٥ ، الأغاني ٩ : ١٥ ط. دار الكتب المصرية .

(٤) سجن عارم حبس مشهور كان موحشاً مظلماً . حبس فيه ابن الزبير الحسن بن محمد بن الحنفية . فأعمل الحيلة حتى تخلص منه ، وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى مِنى وبها أبوه محمد بن الحنفية .

ومن هذا النوع شعر عُتْبَة الأسَدي في هجاء معاوية ،يتهمه بالشره في جمع المال ، وإفساد أمر الناس ، بتأمين الأراذل والعبيد [1] :

معاويَ إننا بَشَرٌ فأَسْجِحْ ... فلسنا بالجبال ولا الحديد [2]
أكلتم أرضَنا وجَذَذْتموها ... فهل مِن قائم أو من حصيد
فهَبْنا أمةً هلكتْ ضياعاً ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيد
أتطمعُ بالخلود إذا هَلَكنا ... وليس لنا ولا لك من خلود
ذَرُوا خَوَلَ الخلافةِ واستقيموا ... وتأمينَ الأراذل والعبيد

وشعر رجل من الأنصار ، يتهمه بأنه يتخذ دم عثمان ستاراً ، يخفي وراءه طمعه في الخلافة [3] :

معاوي إن الحقَّ أبلجُ واضحٌ ... وليس بما رَبَّصْت أنتَ ولا عَمْرُو
نصَبْتَ ابنَ عفانٍ لنا اليومَ خُدْعَةً ... كما نصَبَ الشيخانِ إذ زُخرِفَ الأمر [4]
فهذا كهذاك البَلا حَذْوَ نَعْلِه ... سواءٌ كرَقْراقٍ يُغَرُّ به السَّفْر [5]
رميتم علياً بالذي لا يَضُرّه ... وإن عظمت فيه المكيدة والمكر

---

(١) العقد الفريد ٦ : ١٦٨

(٢) سجح الخد (كفرح) سجحاً وسجاحة سهل ولان وطال في اعتدال وقلة لحم .

(٣) وقعة صفين ٧١

(٤) الشيخان يقصد بهما طلحة والزبير .

(٥) حذا النعل حذواً وحذاء قدرها وقطعها . وحذا النعل بالنعل قدرها عليهـا . الرقراق السراب .

وما ذنبه إن نالَ عثمانَ معشرٌ ... أتوه من الأحيـــاء يجمعُهم مِصرُ

فثـــار إليه المسلمون ببيته ... علانيـةً ما كان فيهـا لهم قَسْر[1]

فبايعـــه الشيخان ثم تحمَّلا ... إلى العُمرة العظمى وباطنُها الغدر

فكان الذي قد كان مما اقتِصاصُه ... رَجيعٌ فيا لله ما أحدثَ الدَّهرُ[2]

فما أنتما والنصرَ منـــا وأنتما ... بَعيثا حروبٍ ما يبوخُ لها الجمر[3]

ومـــا أنتما لله دَرُّ أبيكما ... وذكرَكُما الشورى وقد فَلَجَ الفَجْر

وبعض هذا الهجاء السياسي صورة من الاضطراب والبلبلة التي سادت هذه الفترة بانتشار الأراجيف التي كانت تأخذ النـــاس من كل جانب ، فيما يترامى إلى سمعهم من الأخبار المتناقضة والشائعات المتواترة ، حتى فقد كثير منهم ثقته بقادة الأمة وزعمائها على إطلاقهم ، وحتى ارتد بعضهم إلى جاهليته ، يتصور المعركة معركة قبلية تدور بين سادة قريش وشيوخها .

فمن الشعر الذي يصور ضيق الناس بما آل إليه أمرهم من اضطراب وخلاف، قول الصلتان العبدي [4] :

---

(١) الضمير في (إليه) لعلي .

(٢) اقتصاصه حكايته . رجيع معاد .

(٣) الخطاب لمعاوية وعمرو بن العاص . وكانا قد بعثا إلى أهل الحجاز يقولان إنهما يطلبان من علي أن يسلم قتلة عثمان ويخرجهم من جنده ، ثم يكون الأمر بعد ذلك شورى كما جعله عمر رضي الله عنه .

(٤) الكامل للمبرد ٢ : ١١٨ العبدي نسبة لعبد القيس واسمه قثم (بضم ثم فتح) بن خبية (بفتح ثم كسر ثم ياء مشددة).

أرى أمّةً شهَرَتْ سيفَهـا وقد زِيدَ في سوطها الأصبحي [1]

بنَجْديّـةٍ وحَرُوريّـةٍ وأزْرَقَ يدعُو إلى أزرقي [2]

فمِلّتُنـا أننا المسلمون على دين صِدّيقِنا والنبي

ومنـه :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرُّ الغـداة ومرُّ العشي

إذا ليـلةٌ هرَّمَتْ يومَها أتى بعـد ذلك يومٌ فتي

نروحُ ونغـدُو لحاجاتنـا وحاجةُ من عاش لا تنقضي

تموتُ مع المرء حاجاتُـه وتبقَى له حَاجـةٌ ما بقي

ومنه شعر حنظلة الكاتب في فتنة عثمان [3] :

عجبتُ لما يَخوضُ الناس فيه يرومون الخلافة أن تزولا

ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بَعدَها ذُلاً ذليلا

وكانوا كاليهود أو النصارى سواءٌ كلُّهم ضلوا السبيلا

وقد غلب الحزن والرثاء على هجاء الشيعة ، لكثرة من قتل منهم ، ولشدة

---

(١) الأصبحي السوط نسبة إلى ذى أصبح من ملوك اليمن ، وهو الجد الأعلى لمالك بن أنس الفقيه رضي الله عنه .

(٢) النجدية والأزارقة فرقتان من الخوارج ، والحرورية اسم للخوارج ، سموا بذلك لانحيازهم إلى حروراء بعد صفين .

(٣) الطبرى حوادث سنة ٣٥

ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد ، مثل شعر هند ابنة زيد بن مخزمة الأنصارية ، في مقتل حُجْر بن عدي [1] :

تَرَفعْ أيهـا القمرُ المنيرُ   تبصَّرْ هل ترى حُجراً يسير

يسيرُ إلى معاويةَ بن ِحَرْبٍ   ليقتله كما زعم الأمير [2]

تَجبَّرَت الجبابرُ بعد حُجر   وطاب لها الخَوَرْنقُ والسديرُ

وأصبحَت البلادُ لها مُحُولَا   كأن لم يحيها مُزْنٌ مَطير

ألا يا حُجْرُ حُجْرَ بني عَدِيٍّ   تلقتك السلامةُ والسرور

أخافُ عليك ما أردَى عَدِيـًّا   وشيخاً في دِمَشقَ له زئير

يرى قتلَ الخيارِ عليه حقًّا   له من شرِّ أمته وزيرُ [3]

ألا يا ليتَ حُجراً مات موتاً   ولم يُنحَرْ كما نحِر البعيرْ [4]

فإن يهلكْ فكلُّ زعيمِ قومٍ   من الدنيا إلى هُلْكٍ يصير

ومما يصور هــــذا الهجاء الحزين ، شعر امرأة من بني عبد المطلب في قتل سيدنا الحسين رضي الله عنه [5] :

ماذا تقولون إن قـال النبي لكم   ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم

---

(١) الطبري حوادث سنة ٥١

(٢ ، ٣) الأمير المشار إليه هنا هو زياد . وكذلك الوزير في البيت التالي .

(٤) يفهم من هذا البيت أن حجراً قتل . بينما يظهر الشاعر خوفه من أن يقتل في البيتين السابقين .

(٥) الطبري سنة ٦٠

بعِتْرتي وبأهلي بعدَ مُفتَقَدِي   منهمأسارى وقتلى ضُرِّجوا بدم [1]

ما كانهذاجزائي إذ نصحتُ لكم   أن تَخلُفُوني بسوءٍ في ذوي رَحِمي

وتمثلت الفدائية والإخلاص للمبدأ إلى حد الموت والفنـاء في شعر الخوارج فكان هجاؤهم السياسي مختلطاً بالحماسة ، في الوقت الذي نرى فيه هجاء الشيعة مختلطاً بالرثاء . وكان شعورهم صورة صادقة لجرأتهم النادرة ، وتطرفهم الشديد في فهم الدين ، وإيمانهم العميق بهذه الآراء المتطرفة .

يقول قطري بن الفجاءة ، مخاطباً أبا خالد القناني – وهو من قَـعَـد الخوارج [2] :

أبا خالد يا أنفرْ فلست بخالدٍ   ومَا جعل الرحمنُ عذْراً لقاعد

أتزعم أنّ الخارجيَّ على الهدى   وأنتَ مقيمٌ بين لصٍّ وجاحد

ويقول عيسى بن فاتك (من بني تيم اللات بن ثعلبة) في وقعة آسَك،متهكماً بجيوش بني أمية [3] :

فلما أصبحوا صلّوا وقاموا   إلى الجردِ العِتاقِ مُسَوَّمينا [4]

---

(١) العترة ولد الرجل وذريته وعقبه ، وقيل رهطه وعشيرته الأدنون .

(٢) الكامل ٣ : ١٠٧ ،والقعد هم الذين يرون رأي الخوارج ولكنهملا يخرجونمعهم للقتال.

(٣) الكامل ٢ : ١٥٧ قال ذلك في أسلم بن زرعة (بضم فسكون) قائد عبيد الله بن زياد لقتال ابي بلال مرداس بن أدية (بضم ثم فتح ثم ياء مشددة مفتوحة).وقد كان الغلمان يسخرون منه لفراره من مرداس كلما مر بهم فيصيحون به : أبو بلال وراءك ! فكان شرطة ابن زياد يحمونه منهم .

(٤) مسومين معلمين ، والسومة العلامة يتخذها الفارس في الحرب ليعرف بهـا من بين الناس .

فلما استجمعوا حَملوا عليهم   فظلّ ذوو الجعائل يُقتلونا [1]
بقيّـــهَ يومهم حتى أتاهم   سوادُ الليلِ فيه يُراوِغونا
يقول بصيرُهم لمـــا أتاهم   بانّ القومَ ولّوا هاربينـا
أألفا مؤمنٍ فيما زعمتُم   ويَقتُلُهم بآسكَ أربعونـا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم   ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هم الفئةُ القليلةُ غيرَ شكٍّ   على الفئةِ الكثيرةِ يُنصَرونا [2]

وقال مُعاذ بن جُوَين، يحض الناس على الخروج، وكان الخوارج قد اجتمعوا إلى المستورِد بن عُلَّفة، عازمين على الخروج سنة ٤٣هـ، بعد أن اجتمع الأمر لمعاوية، ثم بلغهم أن المغيرة بن شعبة يكيد لهم، وأنه قد أخذ العهد على كل قبيلة أن تنفي من كان بينهم من الخوارج [3] :

ألا أيُّها الشارون قد حان لامرىءٍ   شَرَى نفسَه لله أن يترحّلا [4]
أقمتُمْ بدارِ الخاطئين جَهالةً   وكلُّ امرىءٍ منكم يُصادُ ليُقتَلا
فشُدُّوا على القوم العُداةِ فإنما   إقامتُكم للذّبح رأياً مضَلّلا
ألا فاقصدوا يا قومُ للغايةِ التي   إذا ذُكِرَتْ كانت أبرَّ وأعدلا [5]

---

(١) الجعائل جمع جعالة (كسحابة) وهي ما تجعل للمحارب من أجر . يصف جنود بني أمية بأنهم مأجورون لا يحاربون عن عقيدة .
(٢) يشير إلى قوله تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) .
(٣) الطبري سنة ٤٣
(٤) الشراة اسم الخوارج أي الذين باعوا أنفسهم لله . وهو مأخوذ من قوله تعالى(ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله . والله رءوف بالعباد – البقرة ٢٠٧) .
(٥) يقصد بهذه الغاية جهاد أهل الباطل ، فهو عمل أدنى إلى البر والعدل .

فيا ليتني فيكم على ظهر سابحٍ شديدِ القُصَيْرَى دارعاً غير أعزلا [1]

ويا ليتني فيكم أعادي عدوَّكم فيسقيَني كاس المنيَّـــةِ أولا

يعزُّ عليَّ أن تخافوا وتُطرَدوا ولما أجرِّدْ في المحلِّين مُنْصُلا [2]

ولما يفرق جمعَهم كلُّ ماجد إذا قلتُ قدْ ولَّى وأدبَرَ أقبلا [3]

مُشيحاً بنصل السيفِ في حَمَس الوغى

يرى الصبرَ في بعضِ المواطن أمثلا [4]

وعزٌّ عليَّ أن تضاموا وتُنْقَصوا وأصبح ذَا بَثٍّ أسيراً مكبَّلا

ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم أثرتُ إذاً بين الفريقين قَسْطلا

فيا رُبَّ جمع قد فللتُ وغارةٍ شهدتُ وقِرْنٍ قد تركتُ مجدَّلا [5]

ومما يصور إخلاصهم العميق لمبادئهم، وزهدهم في الحياة وزخرفها، ما كتب به قطَري إلى سَبْرة بن الجَعْد الخارجي، وكان سمير الحجاج، ولم يكن يعرف أمره [6]:

---

(١) القصيرى أسفل الأضلاع أو آخر ضلع في الجنب، وأصل العنق.

(٢) المحل المنتهك للحرم والذي لا عهد له. يقصد الأمويين.

(٣) يصفه بأنه كان يكر ويفر في قتاله.

(٤) حمس في القتال (كعلم) حمسا اشتد وصلب. أشاح في الأمر جد واجتهد.

(٥) القسطل الغبار. فل السيف فتفلل ثلمه فتثلم وأصبح كليلا، وفل القوم هزمهم. جدله وجندله رماه بالأرض.

(٦) مروج الذهب ٢ : ١٣٨

لشتانَ ما بينَ ابن جَعْدٍ وبيننا ... إذا نحن رحنا في الحديد المُظاهر [1]
نجاهــد فرسان المهلّب كلُّنـا ... صبورٌ على وقع السيوف البواتر
وراح يجُرُّ الخزَّ عند أميره ... أميرٌ بتقوى ربــه غيرُ آمر
أبا الجعد أين العِلم والحِلمُ والنُّهى ... وميراثُ آباءٍ كرامِ العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل ... ولا بد من بعث الأُولى في المقابر
حفـاةً عراةً والترابُ عليهم ... فمِن بين ذي ربح وآخر خاسر
فإن الذي قـد نلتَ يفنى وإنما ... حياتك في الدنيا كوقعة طائر [2]
فراجعْ أبا جَعْدٍ ولاتك مُغضياً ... على ظُلَمٍ أعشَتْ جميعَ النواظِر
وتبْ توبةً تُهدِي إليك شهادة ... فإنك ذو ذَنْبٍ ولستَ بكافر [3]
وسر نحونا تَلقَ الجهاد غنيمةً ... تُفِدْكَ ابْتياعاً رابحاً غيرَ خاسر [4]
هي الغايةُ القصوى الرَّغيبُ ثوابُها ... إذا نال في الدنيا الغِنَى كلُّ تاجر

---

(١) ظاهره عاونه . وظاهر بين ثوبين طابق بينهما . الحديد المظاهر الذي يظاهر بعضه بعضاً كأنه يلبس درعين .

(٢) أي أنها زائلة لا تدوم ، فلا بد للطائر أن يقع .

(٣) في هذا البيت إشارة إلى ما يرى الخوارج من تكفير مرتكب الكبائر .

(٤) يقصد أن الذي يبيع حياته يشتري بها الجنة وذلك قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم – التوبة ١١١) .

ويقرأ تَسْبِرة الشعر فيبكي لشدة تأثره ، ويأخذ سلاحه لاحقاً بقطري .
وفي ذلك يقول :

فمَنْ مُبلِغُ الحجّاجِ أن سميرَه ... قَلَا كلَّ دينٍ غيرَ دينِ الخوارج
رأي الناس إلا من رأى مثلَ رأيه ... مَلَاعينَ ترّاكين قَصْدَ المَخَارج [1]
فأقبلتُ نحوَ اللهِ باللهِ واتقاً ... وما كُرْبَتي غيرَ الإلهِ بفارجِ
إلى عصبةٍ أمّا النهارُ فإنهم ... هم الأُسْدُ أسدُ الغِيلِ عند التَّهايُج [2]
وأما إذا ما الليلُ جنَّ فإنهم ... قيامٌ بأنواحِ النساءِ النواشج [3]
يُنادون للتحكيم تالله إنهم ... رأوا حُكْمَ عمرو كالرِّياحِ الهوائج
وحكمَ ابن قيس مثل ذاك فأعْصَموا ... بحَبْلٍ شديدِ المتنِ ليس بناهج [4]

ولدينا بعد هذا هجاء لا يتصل بأصول الحكم ، ولا يصور ميولاً حزبية معينة ، ولكنه يتصل بالولاة في الأقاليم ، يعارض سياستهم ، وينقد تصرفاتهم . وهذا اللون من الهجاء السياسي يختلط بالهجاء الاجتماعي وهو من أمتع ألوان

---

(١) المخارج السبل .

(٢) الغيل (بكسر الغين) الشجر الكثيف الملتف ، وموضع الأسد . التهايج عندما يتهايج القوم أي يتواثبون للقتال .

(٣) نشج الباكي (كضرب) نشيجاً غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب .

(٤) كان مما أنكر الخوارج على علي قبوله التحكيم حين ندب أبا موسى بن قيس الأشعري ونصب معاوية عمرو بن العاص . وقد قالوا له فيما جرى بينه وبينهم من نقاش « لم حكمت الحكمين؟ فإن كنت في شك من خلافتك فغيرك أولى بالشك » وجملتهم المشهورة في ذلك (لا حكم إلا لله). نهج الثوب والحبل (كضرب وقطع) بلي . ويقصد بالحبل المتين الذى اعتصموا به كتاب الله .

الشعر السياسي ، وأكثرها دقة ووضوحاً ، في الكشف عن معايب هذا المجتمع الذي تعقدت فيه الحياة ، وتعارضت فيه الآراء والأهواء . وهو لا يصور معارضة حزبية ، ولكنه يصور سخطاً على النظم الاجتماعية القائمة . فقد تدفقت الأموال على الناس ، وبدأت الفوارق الاجتماعية تتسع بينهم شيئاًفشيئاً، بعد أن كانوا قريباً من قريب ، فارتفع بعضهم من صفوف العامة إلى طبقة الحكام . وكشفت السلطة عن ضعف ضعاف النفوس ، فمال بعضهم إلى الترف من ناحية ، وأثار هذا الترف حقد بعض السياسيين من ناحية أخرى . كما بدا جفاء الأعراب ونفورهم من السلطة وضيقهم بقيودها فيما وصلنا من شعر يشكو فيه بعض شعرائهم من عمال الزكاة ، ومما يلحقهم من ظلم صحيح أو مزعوم ، يبالغون في تصويره . وقد نتج عن اتساع الأعمال أن اتخذ كثير من العمال الحجّاب ، فصار العربي لا يصل إلى الحاكم إلا بعد استئذان ، وربما دُفع عن حاجته فلم يبلغ إليه ؛ فكان ذلك من أثقل الأشياء على نفس العربي ، الذي لم يألف مظاهر الملك والسلطان ، والذي كان يدخل على الخليفة نفسه قبل ذلك حين يشاء ، ويكلمه في غير كلفة . وربما تأثر بعض الولاة بالعصبية ، فولوا أعمال الدولة قوماً ليسوا من أهل الكفاية . هذا يقود الجيوش وهو جبان لا يصلح لقتال ، وذاك يلي أمور الناس وهو منافق يصطنع الرياء ، يظهر عليهم في ثياب النسك والورع ، فإذا خلا إلى نفسه كان أفسق خلق الله . وأحس الناس ثقل هذه النظم الإدارية الجديدة ، التي جعلتهم طبقتين ، تتميز إحداهما من الأخرى تميزاً واضحاً : طبقة الحكام وطبقة المحكومين . ولم يكن للحكام بد – بعد هذه الفتن الطويلة ، التي فقد فيها الناس روح النظام واحترام القانون – من أن يأخذوا الناس بالعقوبات الرادعة ، فاتسمت أفعالهم بالحزم الذي بلغ حد القسوة في بعض الأحيان . واستحدثوا أنواعاً من التعذيب والتنكيل والتشهير ، ليس للناس بها عهد . وكان الأعراب وأصحاب الأغراض والأهواء من مثيري الفتن ومن الفساق والماجنين أكثر الناس ضيقاً بحكم الذين عرفوا بالحزم والضبط من الولاة والعمال .

انظر إلى هذه الصورة التي يقدمها يحيى بن نوفل الحِمْيَري – وكان شاعراً كثير الهجاء لا يكاد يمدح أحداً – يهجو أبان بن الوليد البَجَلي وأخاه بـــلالاً . حين ولاهمــا خالد القَسْري بعض الأعمال . كيف يصور ما ينغمس فيه العمال من ترف . وما يحيطون به أنفسهم من مظاهر الجاه . بعد عيش خشن ، ورزق ضيق ضنين [1] :

تقولُ هُشَيمةُ فيما تقول   مَللتَ الحيـاةَ أبا مَعْمَر ؟
وما لِيَ أن لَا أَمَلَّ الحيـاة   وهـذا بلالٌ على المنبر !
وهذا أخوه يقودُ الجيوش   عظيم السُّرادق والعسكر !
وأما ابنُ سَلْمى فشِيبْهُ الفَتاة   رَءوحٌ بَكورٌ على المِجْمَر [2]
دَبوبُ العِشاء إذا أطمَعَتْ   حليلةُ كلِّ فتىً مُغْوِرِ [3]
وأما ابنُ أشعَث ذوالتُّرَّهات   وذو الكذبِ والزور والُمنكَر
فلو قيل عَبْدٌ شرته التِجَار   سَبِيٌّ من الروم لم يُنكَر
وهذا ابنُ ماهَان بعد الشَّقاء   وبعد الخياطةِ في كَسْكَر [4]
يروحُ يُسامي ملوكَ العراق   وقد عاش دهراً ولم يُذكَر

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨٦

(٢) المجمر والمجمرة الوعاء الذى يوضع فيه الجمر والبخور . يقول لا هم له إلا التطيب بالبخور وهو شأن النساء.

(٣) كل ما طلبتة فأمكنتك فقد أعورك وأعور لك . . فالمقصود بالفتى المعور هنا الذى يمكن من بيته وزوجته بغفلته أو غيابه عنها .

(٤) كسكر كورة قصبتها واسط .

يروحُ إذا راح في المُعْسرين وإن أيْسَر الناسُ لم يُوسِرِ
وأما المكحّلُ وهبُ الهَنَاة فلو قُيِّد الدهرَ لم يصبر
عن الزَّفْنِ والصنجِ والمُسمِعات وقَرْعِ القواقيزِ والمِزْهَر [1]
ولا عن هَنَاتٍ له لو ظَهَرْن فمات عليهنّ لم يُقبَر [2]
وهذا ابنُ زيدٍ له جُبَّةٌ تفوحُ من المِسك والعَنْبَر
وهذا أبانُ بُنَيُّ الوَلِيد خطيبٌ إذا قام لم يَحْصَر
أبَعْدَ الدواةِ وبعد الطُّرُوس وبعد انكبابٍ على الدَّفْتَر!
ولو حلَّ ضيفٌ به لم يَزِدْه على الأبيَضَيْنِ مع الصَّعْتَر! [3]

وانظر قوله في بلال بن أبي بُرْدة الأشعري، وقد زعم أنه كان مدمناً للشراب لا يصبر عنه ليلاً ولا نهاراً [4]:

وأما بلالٌ فذاك الذي يَميلُ الشرابُ به حيثُ مالا
يبيتُ يُمِصُّ عتيقَ الشَّراب كمصِّ الوليدِ يخافُ الفِصالا
ويُصبِحُ مضطرباً ناعساً تخالُ من السكْرِ فيه احوِلالا

(١) الزفن الرقص ، القواقيز جمع قاقوزة وهي إناء من آنية الشرب .

(٢) أي لم يدفن في قبر ، كأنه يقتل أو يرجم ، ولا يدفن مع المسلمين .

(٣) الأبيضان الخبز والملح . والصعتر ضرب من النبات وهو الذى نسميه الآن « زعتر » .

(٤) العقد الفريد ٨ : ٦٤

ويمشي ضعيفاً كمشيِ النَّزيف   تخالُ به حين يمشي شِكالا [1]

وانظر إليه كيف يصور بلالاً هذا ، فيزعم أنه منافق يظهر النسك والورع ويخدع الناس بتلاوة القرآن ، وبهذه العلامة التي اتخذها في جبهته ، كأنها من السجود وإدمان الصلاة [2] :

أبلالُ إنّي رابَني من شأنِكم   قولٌ تُزَيِّنه وفعلٌ منكَر

مالي أراك إذا أردتَ خيانةً   جعل السجودُ بحُرِّ وجهِكَ يَظْهر

متخشعاً طَبِناً لكل عظيمةٍ   تتلوا القُرآنَ وأنت ذئبٌ أغبر [3]

وفيه يقول متشفياً ، وقد أصيب بالجذام :

فأما بلالٌ فإنَّ الجذا   م جلَّلَ ما جازَ منه الوَرِيدا

فانقع في السمنِ أوصاله   كما أنقعَ الآدِمُون الثرِيدا [4]

فأكسَدَ سمنَ تِجارِ العرا   ق فينا وأصبح فينا كسيدا

ثم انظر إلى ما يقول هذا الشاعر الكثير الهجاء ، الذي لا يكاد يمدح أحداً ،

---

(١) النزيف الذى ذهب عقله والسكران . والشكال الحبل الذى تشد به قوائم الدابة إذا قيدت .

(٢) الشعر والشعراء ٢٨٧

(٣) الطبن « بفتح ثم كسر » الفطن الحاذق العالم بكل شيء .

(٤) أدم الخبز خلطه بطبيخ أو حساء أو شيء يسيغه به . يقول إنه نقع يده في السمن كما ينقع الخبز في الثريد .

في سعيد بن راشد . ذلك المتن الخامـــل ، الذي ارتقى للإمارة . فلبس الخز وركب البغال في المواكب ، واتخذ الحُجّاب :

بكى الخز من إبطَيْ سعيدِ بن راشد ومن إسته تبكي بغالُ المواكب
فواعجبا حتى سعيدُ بنُ راشد له حاجبٌ في الباب من دون حاجب!

ومن هذا اللون شعر أنس بن أبي أُناس بن زُنَيْم ، في حارثة بن بدر الغُدانيّ وقد طلب من عُبيدالله بن زياد أن يوليه . فخيره . فزعم الشاعر أنه اختار (سُرّق) لما وصف له من شرابها ، فولاه إياها [1] :

أحارِ بنَ بدرٍ قد ولّيتَ إمارةً فكنْ جرُذاً فيها تخونُ وتسرق
وباهِ تميماً بالغِنى إن للغنى لساناً به المرء الهَيُوبةُ يَنطِق
فإنَّ جميعَ النــاسِ إما مكذِّب يقول بما يَهوَى وإمّا مُصدِّق
يقولون أقوالاً ولا يعرفونها وإن قيل هاتوا حَقِّقوا لم يُحَقِّقوا
فلا تحقِرَنْ يا حارِ شيئاً أصبتَه فحظُّك من ملك العراقَيْن (سُرّقُ) [2]

ومنه شعر عبدالله بن همام السلولي . يهاجم النعمان بن بشير والي الكوفة . وكان معاوية قد أمر لأهلها بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم. فحبسها النعمان عنهم ولم ينفذها ، لسابق إخلاصهم لعلي [3] :

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤ ، العقد الفريد ٨ : ٥٧

(٢) سرق اسم الولاية التي وليها حارثة . « حار » ترخيم حارثة .

(٣) الأغاني ١٤ : ١٢٠

زيادَتَنـــا نعمانُ لا تحرِمَنَّنا ـ خَفِ اللهَ فينا والكتابَ الذي تتلو

فإنك قد حُمِّلْتَ فينا أمانـةً ـ بما عجزَتْ عنه الصلاخِمةُ البُزْلُ [١]

فإن يكُ بابُ الشعرِ تُحسِن فتحَه ـ فلا يكُ بابُ الخيرِ ليس له قُفْلُ [٢]

فقد نلتَ سلطاناً عظيماً فلا يكن ـ لغيرِكَ جَمَّاتُ النَّدَى ولكَ البخلُ [٣]

وأنت امرؤٌ حلو اللسانِ بليغُه ـ فما بالُه عند الزيادةِ لا يحلو

وقَبْلَكَ قــد كانوا علينا أئمةٌ ـ يهمُّهم تقويمُنـا وهُمُ عُصْلُ [٤]

إذا أنصتوا للقول قالوا فأحسنوا ـ ولكنَّ حُسْنَ القولِ خالَفَه الفِعْلُ

يذمُّون دنيـاهم وهم يَرضَعونها ـ أفاويقَ حتى ما يدِرُّ لها ثُعْلُ [٥]

ومن الشعر الذي يصور سخط النـــاس . لتأثر الولاة بالعصبية والقرابة في اختيـــار العمال . قول الحارث بن خالد المخزومي . يهجو عبد العزيز أخا خالد ابن عبدالله بن أسيد . وقد ولاه قتال الخوارج فانهزم [٦] :

(١) بعير صلخام (بكسر الصاد) وصلخم (بفتح الصاد) صلب شديد . البزل جمع بازل وهو البعير الذى بزل نابه أى ظهر ، وذلك في السنة التاسعة.

(٢) يعني الشاعر هنا بالقفل المفتاح الذى يفتح به القفل .

(٣) الجم الكثير من كل شيء . ومن الماء معظمه وكثرته .

(٤) عصل جمع أعصل ،وهو الناب الأعوج،والسهم المعوج.كانوا أثقل لغة أكلوني البراغيث.

(٥) أفاويق جمع فيقة (بكسر الفاء) وهو اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين ، والثعــل (بفتح الثاء وضمها) زيادة في أطباء الناقة والبقرة والشاة .

(٦) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٧ . خالد بن عبدالله بن أسيد أمير أموي ولاه عبد الملك بن مروان البصرة ، فعزل المهلب وولى مكانه أخاه عبد العزيز قتال الخوارج فانهزم. فعزل عبدالملك خالداً وأخاه عبد العزيز وولى المهلب . والحارث بن خالد المخزومي شاعر غزل ، كان أخوه عكرمة بن خالد محدثاً جليلا . وكان بنو مخزوم جميعاً زبيرية ما عدا الحارث ، فكان منحازاً لعبد الملك فولاه مكة .

فرَّ عبدُ العزيز لمَّا رأى الأبطـــال بالسَّفح نازلوا قَطَرِيًّا [١]

عاهَدَ اللهَ إن نجا مِلْمَنَايَا ليعودَنَّ بعـــدها حَرَمِيًّا [٢]

يسكنِ الخلّ والصِفاحَ فمَرّا نَ وسلعاً وتارة نَجْدِيًّا [٣]

حيثُ لا يَشهدُ القتالَ ولا يسـ مع يوماً لِكرٍّ خيلٍ دويّا

ومما يصور سخط الناس لمدم توافر الكفايات في العمال . شعر رجل من بني عامر بن صعصعة . يهجو عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصَّلْت الثقفي . رسول الحجاج إلى المهلب . يقول : تسمع هـــذا الرجل حين يخطب فلا ترى بأساً . فإذا رأيته في القتال ، عجبت لما يتشدق به من حث الناس على القتال [٤] :

ما زلتَ يا ثقفيُّ تخطُب بيننا وتغمُّنــا بوصيَّة الحجَّاج

حتى إذا ما الموتُ أقبلَ زاخراً وسَما لنـــا صِرْفاً بغير مِزَاج

ولَّيتَ يا ثقفيُّ غيرَ مناظِرٍ تَنْسابُ بين أحِزَّةٍ وفِجَاج [٥]

ليسَتْ مقارعةُ الكُماةِ لَدَى الوَغَى شُربَ المدامـــةِ في إناء زجاج

---

(١) قطرى بن الفجاءة من زعماء الخوارج وشعرائهم المشهورين .

(٢) ملمنايا أصلها من المنايا حذف النون لقرب مخرجها من اللام . حرمياً نسبة إلى الحرم • أى يقيم هناك ولا يشهد حرباً .

(٣) الخل موضع، وأصله الطريق في الرمل . والصفاح ومران وسلع مواضع. نجديا نسبه إلى نجد . يعني أنه يتنقل بين هذه الأماكن بعيداً عن خطر الخوارج خوفاً منهم .

(٤) الكامل ٢ : ٢٤١

(٥) أحزة جمع حزيز « على وزن قتيل » وهو المكان الغليظ من الأرض .

وقد كثرت شكوى شعراء العراق ، من ظلم العمال في جباية الأموال . ويبدو لي أن هذه الشكوى تصور جفاء الأعراب ونفورهم من الزكاة ومن الخضوع للسلطان بأكثر مما تصور ظلم الجباة ، وإن كان وقوع الظلم غير مستبعد في كل زمان ومكان ، ولا سيما في دولة واسعة الأطراف كالدولة الإسلامية وقتذاك ، مع ما هو معروف من أن العمال الذين كانوا يختارون للعراق كانوا من أهل الشدة والصرامة لكثرة ما ظهر فيه من فتن واضطرابات .

فالشعر الذي بين أيدينا يلقي التهم جزافا حتى ما يكاد يغادر أحدا . وهو صورة من حقد قائليه وحسدهم في بعض الأحيان ، ومن جفائهم ونفورهم من الزكاة وتخلصهم منها بكل طريق في أحيان أخرى ، بأكثر مما هو صورة صحيحة لواقع فاسد يشكون منه .

يقول عبدالله بن همام السَّلُولي لعبد الله بن الزبير في الشكوى من عماله :

يا ابن الزبير-أميرَ المؤمنين ألم يبلغك ما فعل العُمَّال بالعمل ؟
باعوا التِجار طعامَ الأرض واقتسموا
صُلبَ الخراج شِحاحاً قسمةَ النَفَل[2]
وقدموا لك شيخاً كاذباً خَذِلاً مهما يَقلْ لكَ شيخٌ كاذب يَقُلِ[3]
وفيك طالب حقٍّ ذو مَرَانِيَةٍ جَلْد القُوَى ليس بالواني ولا الوَكِل
اشدد يديك بزيدٍ إن ظفرت به
واشف الأرامل من دُحْرُوجة الجُعَل[4]

---

(١) أنساب الاشراف ٥ : ١٩١ (٢) النفل الغنيمة (٣) يقصد مرثد بن شراحيل ، كان أمينا على التجار في بيع الطعام (٤) دحروجة الجعل هو عامر بن مسعود الذي ولي الكوفة لابن الزبير ثم عزله . وزيد مولى لعتاب بن ورقاء وكان خازن دحروجة الجعل .

إنّا مُنينا بضَبٍ من بني خلَف ... يَرَى الخيانة شُربَ الماء بالعسل [1]

خذ العَصَيْفير وانتف ريش ناهِضهِ ... حتى ينوء بشرٍّ بعد مُقتَبَل [2]

وما أمانــــة عَتّابٍ بسالمة ... لا غَمْزَ فيها ولكن جَمَّةُ السُبُل [3]

وقَيسُ كِنْدَةَ قد طالت إمارتـه ... بسُرَّةِ الأرض بين السهل والجبل [4]

وخــــذ حُجَيْراً فاتبعه محاسبة ... ومَنْ عذرتَ فلا تعذر بني قَفَل [5]

ما رابني منهُمُ إلا ارتفــاعُهُمُ ... إلى الخَبيص عن الصَحناة والبصل [6]

وما غلامٌ على أرضٍ مسالمة ... كمن غزا دَستَبِيَّ غيرَ مُجتمِل [7]

يُجبَى إليه خراج الأرض متكئاً ... مستهزئاً بغناء القَيْنة الفُضُل [8]

والواليُّ الذي مَهرانُ أمَّرَه ... فزال مهرانُ مذموماً ولم يَزُل [9]

ودونك ابن أبي عُشٍّ وصاحبه ... قبل السبيع فقد أجرى على مَهَل [10]

---

(١) يقصد دحروجة الجعل .

(٢) عبد الله بن ابي عصيفير والي المدائن .

(٣) عتاب بن ورقاء الرياحي أحد المشهورين من اجواد العرب .

(٤) يريد قيس بن يزيد بن عمرو بن شراحيل الكندي

(٥) حجر بن حجار بن الحر كان على الزوابي . وبنو قفل من تميم بن ثعلبة وكانوا على صدقات بني بكر .

(٦) الصحناة طعام يتخذ من صغار السمك .

(٧) دستبى كورة كبيرة في فارس بين الري وهمدان . غير مجتمل اي يغزو في سبيل الله لا من اجل ما يجعل له من اجر .

(٨) القينة الجارية . الفضل التي تلبس ثيابا تكشف عن جسمها

(٩) الوالبي هو سعيد بن حرملة الكاهل الوالبي . ومهران مولى لزياد ، وهو الذي جعل الوالبي في عداد العمال

(١٠) ابن ابي عش كان واليا على الدينور ، وصاحبه هو عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني

لا تَجعَلَنْ مالَ بيتِ المالِ مَاكَلةً	لكل أزرق من هَمْدانَ مكتحل
ومُنقِذ بن طريف من بني أسد	أنبثت عاملُهم قد راح ذا ثِقَل[1]
وما أَخينسُ جُعفيٌّ بمانِعِــــه	من المتاع قيامُ الليل بالطُوَل[2]
وما فراتٌ وإن قيل امرؤٌ وَرِعٌ	إن نال شيئاً بذاك الخائف الوَجِل[3]
والحارثيُّ سيرضى أن تقاسمه	إذا تجاوزتَ عن أعماله الأُوَل[4]
وادعُ الأقارِعَ فاقرعْهم بداهيةٍ	واحمل خيانة مسعودٍ على جمل[5]
كانوا أتَونا رجالاً لا رِكابَ لهم	فاصبحوا اليومَ أهلَ الخيل والإبل
لن يُعتِبوكَ ولمّا يَعلُ هامَهُمُ	ضربُ السياط وشدٌّ بَعْدُ في الحَجَل[6]
إن السياط إذا عضّتْ غواربهم	أبدَوا ذخائر من مال ومَن حُلَل[7]

وهذا هو الراعي الشاعر، يشكو الجباة إلى عبد الملك، فيقول إنهم يأخذون فوق ما يوجب القانون، ويتعدون بذلك ما أمرهم الخليفة. فهم يأخذون المِشار

---

(١) عاملهم هو نعيم بن دجاجة ، وكان على أسفل الفرات .

(٢) اخينس جعفي هو زحر بن قيس . وقيل هو محمد بن ابي سبرة . وكان على جوخى. السبع الطول (بضم ثم فتح) هي من سورة البقرة الى سورة الاعراف ، والسابعة سورة يونس أو (الانفال وبراءة) .

(٣) هو فرات بن زحر ، قتله المختار يوم السبيع .

(٤) الحارثي هو السرى بن وقاص ، وكان على نهاوند .

(٥) مسعود رجل من بني اسد .

(٦) اعتبه ارضاه حين عاتبه . الحجل (بفتح الحاء وكسرها) الخلخال والقيد .

(٧) الغارب والكاهل مقدم اعلى الظهر مما يلي العنق .

من كرام الإبل. بينا يكتبونها للأمير فصيلا، ويَغُلُّون لأنفسهم الزيادة. ويشتطون على الناس في هذه الأحكام الجائرة، فلا يزالون يجلدون العريف بالسياط، وقد أقاموه في الأغلال، حتى يقطعوا جلده. ثم يأتونه بصكهم وقد أخذ منه الرعب. فيغصبونه إبله ويدعونه للضياع (يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجرُّ به الرياح ذيولا) فكأنه حمام كسر الرماة جناحه. فهو لا يزال ينوح على قارعة الطريق، وقد وقع الربيع، فتقارب خطوُه، وأخذه الفزع، إذ رأى الذئب يقترب من محله، في شراسة النهم الذي لا يبقى على شيء يصادفه. وهؤلاء هم قومه المسلمون الذين لا يمنعون الزكاة، والذين يشهدون أن لا إله إلا الله، يهيمون في الصحراء مطرودين، كأنهم مجرمون أصابوا قتيلا. يَحْدون إبلا عجافا، قد تهدمت أسنمتها. فهم يتركونها في مَخَارِم الجبال، تتساقط ضعفاً وإعياء، لأنها لا ترعى إلا الفاسد من النبات، بين يابس ومُرٍّ وخِيم. وماذا يصنعون وقد أتاهم (يحيى) الجابي. فأخذهم بشروطه الظالمة. وكلفهم ما لا يطيقون. فأفقر غنيهم. وأهزل فقيرهم؟!(1).

أخليفةَ الرحمنِ إنّا معشرٌ حُنَفاءُ نسجُدُ بكْرةً وأصيلا(2)

عربٌ نرى لله في أموالنا حقَّ الزكاةِ مُنزَّلًا تنزيلا

إن السُّعاةَ عَصَوْكَ يومَ أمرتَهم وأتوا دواهيَ لو علمتَ وغُولا(3)

إن الذين أمرتَهم أن يَعْدِلوا لم يفعلوا مما أمرتَ فتيلا

أخذوا العِشارَ من الكِرامِ ظُلامةً مِنّا ويُكْتَبُ للأمير أفِيلا(4)

---

(1) جمهرة أشعار العرب ٣٥٦، خزانة الادب ٢ : ٣٠٦ .

(2) حنفاء مسلمون، جمع حنيف .

(3) الغول الهلكة (بالتحريك) والداهية .

(4) العشار جمع عشراء (مثل فقهاء)، وهي الناقة التي اتى عليها عشرة شهور لحملها. الافيل ابن المخاض اذا كان صغيرا قبل ان يفصل من أمه .

أخذُوا العريفَ فقطَّعوا حَيْزُومَهُ بالأصبَحِيَّةِ قائماً مغلولا [1]

حتى إذا لم يتركوا لِعِظامِه لحماً ولا لفؤاده مَعْقُولا

جاءوا بصَكِّهِمُ وأحدَبَ أسأَرَتْ منه السياطُ يراعةً إجفيلا [2]

نسِيَ الأمانةَ من مخافةِ لُقَّحٍ شُمْسٍ تركن بَضِيعَهُ مجدولا [3]

أخذوا حَمُولَتَهُ فأصبح قاعداً لا يستطيع عن الديار حَوِيلا [4]

يدعو أميرَ المؤمنين ودونه خَرْقٌ تجُرُّ به الرياحُ ذُيولا [5]

كهُدَاهِدٍ كسر الرماةُ جناحه يدعو بقارعةِ الطريقِ هديلا [6]

وَقَعَ الربيعُ وقد تَقَارَبَ خطوهُ ورأى بعِقْوَتِه أزَلَّ نَسولا [7]

مُتوشِّحَ الأقرابِ فيه نَهْمَةٌ نهشَ اليدين تخاله مَشْكُولا [8]

---

(١) العريف رئيس القوم . الحيزوم وسط الصدر ، وما يضم عليه الحزام . جمعها حيازيم . الاصبحية السياط واحدها اصبح نسبة الى ذي أصبح ملك من ملوك حمير لانه هو الذي ابتدعها .

(٢) أحدب يقصد العريف نفسه وصفه بذلك لان السياط قد آذته ونالت منه . اسار الشارب في الاناء سؤرا أي ترك فيه بقية . اليراعة القصبة الجوفاء شبه بها قلب العريف الفزع . اجفيلا خائفا مجفلا . يقول لم تترك منه السياط الا رجلا فزعا مروعا .

(٣) اراد باللقح السياط . شمس جمع شموس (بوزن الصفة المشبهة) وهو الشديد. البضيع اللحم .

(٤) الحمولة ـ بفتح الحاء ـ الابل وكل ما احتمل عليه القوم من حمار ونحوه ، كانت عليه اثقال او لم تكن . الحويل الانتقال كالحول (بكسر ثم فتح) .

(٥) الخرق (بفتح الخاء) الصحراء الواسعة التي تخترقها الرياح .

(٦) الهداهد الحمام الكثير الهدهدة . الهديل صوت الحمام .

(٧) العقوة ما حول الدار والمحلة . أزل قليل اللحم يعني الذئب . نسول تساقط شعره لجوعه فهو شرس .

(٨) متوشح الاقراب ، كل هذا وصف للذئب . الاقراب جمع قرب (بضم فسكون) وهي الخاصرة . نهش قليل اللحم ، يشبه عريف قومه في خوفه من الجباة بحمام ضعيف رأى ذئبا شرسا هذه صفاته يقترب من محلته .

أخليفةَ الرحمن إن عشيرتي ... أمسى سَوامُهمُ عِزِ ينَ فُلُولا [1]

قطعوا اليمامة يُطردُون كأنهم ... قومٌ أصابوا ظـــالمين قتيلا

يَحْدُون حُدْباً مائلاً أشرافُها ... في كل مَقْرَبَةٍ يدَعْنَ رَعيلا [2]

شهرَيْ ربيع ما تذرق لُبُونهم ... إلا حُمُوضاً وَخْمةً وذَبيلا [3]

وأتاهُمُ (يحيى) فشدَّ عليهم ... عَقْداً يراه المسلمون ثقيلا

كُتُباً تركن غنيَّهم ذا عَيْلَةٍ ... بعد الغِنَى وفقيرَهم مهزولا

فتركتُ قومي يَقْسِمون أمورهم ... أإليك أم يَتَرَبَّصُون قليلا

أنت الخليفــةُ عَدْلُه ونوالُه ... وإذا أردتَ لظالمٍ تنكيلا

فارفع مَظَالمَ عيَّلت أبنـــاءنا ... عنَّـــا وأنقِذْ شِلْوَنا المأكولا

وهذا هو الفرزدق، يشكو إلى سليمان بن عبد الملك من هذا الأمر نفسه، فيقول إن الناس قد نذروا أن يحجوا حفاة، وأن يصوموا لله، إن أنقذهم بولايتك الخلافة. وها هم أولاء يوفون نذرهم، بعد أن أهلكهم ظلم من قبلك فلم يبق منهم إلا ألسنا وعظاما. كانوا يحبسون الجند في الثغور، ويؤخرونهم عن مواعيدهم في البر والبحر بغير أعطية. وكان الجباة يحاسبون الناس على ما ذهب

---

(1) سوامهم ابلهم التي تسام الكلأ أي ترعاه . عزين جماعات متفرقة، جمع عزة (كعدة) وهي العصبة من الناس . الفلول جمع فل (بفتح الفاء) وهو المهزوم المتفرق .

(2) يحدون يسوقون . الحدب الابل المهزولة . اشرافها أسنمتها . وانما تميل أسنمتها لضعفها وقلة شحمها . المقربة الطريق في الجبل . الرعيل القطيع .

(3) اللبون ذات اللبن . الحموض جمع حمض (بفتح الحاء) وهو ما ملح وامر من النبات . الارض الوخمة التي لا ينجع كلؤها . الذبيل اليابس من النبات .

من مالهم، وما هلك من إبلهم، حتى أصبح أهل العراق يحسدون الميت، لنجاته من عذاب الظالمين. ويقول الفرزدق إن الناس قد أنقذوا من هذا الظلم بولاية سليمان للخلافة. مشيراً إلى السجون، التي كانت تتخذ لسجن نساء العصاة، ويعجب من أمره في ظلم أرامل ليس لهن جريرة، وقد حبس عنهن ما يستحققن من عطاء

كم فيك إن مَلَكَتْ يداك لنا	يوماً نواصِينا من النُّذْر
من حجٍّ حافيـــةٍ وصائمةٍ	سَنَتَيْن أمٍّ أفيرخٍ زُغْر
لم يَبقَ منهم غيرُ ألسنةٍ	وأعَيْظمٍ وحواصلٍ حُمْر[1]
... ويُجَمَّرُون بغـــير أعطيَةٍ	في البَرِّ من بَعَثُوا وفي البحر[2]
ويُكلَّفون أباعرا ذَهَبَتْ	جِيفاً بَلِينَ تقـادُم العصر
حتى غبطنا كلَّ مُحتمَلٍ	يُمْشَى بأعظمه إلى القبر
وتمنت الأحيـــاء أنهم	تحت التراب وجيء بالحشر
والراقصاتِ بكل مبتهل	من فجٍّ كل عَمَايقٍ غُبْر[3]
ما قلتُ إلا الحقَّ تعرفه	في القول مرتَجَلاً وفي الشِّعْر

---

(١) يقول كم فيك من نذر نذرناه ان ملكت يداك نواصينا في يوم من الايام، والناصية الراس. من حج حافية، يعني قد نذر النساء ان يحججن سنتين حفاة صائمات. ام افيرخ ام اطفال ضعاف لم يبق منهم غير السنة تنطق وعظام برزت من الهزال. زعر جمع ازعر وهو القليل الشعر المتفرقه. صور بؤس القوم في حال اطفالهم الضعاف وحزن امهاتهم عليهم.

(٢) التجمير حبس الجيوش في المغازي وتأخيرها عن موعد تسريحها. الاعطية جمع عطاء وهو الراتب الذي يصرف من بيت المال.

(٣) الراقصات الابل التي ترقص في سيرها. يحلف بالابل التي تحمل الحجاج من مختلف بقاع الارض مبتهلين الى الله. عمايق جمع عميق اي طريق عميق اي بعيد طويل.

ما أصبحت أرضُ العراق بها ... ورقٌ لمختَبِطٍ و لا قشر [1]

أحييت أنفسنا وقد بلغتْ ... منا الفناء ونحن في دَبْر [2]

فلقد عززْتنا بعد ذلتنـــا ... بك بعد ما نابي عن القَسْر

أحييت أنفسنا وقد هلكت ... وجبرت منا واهيَ الكَسْر

بل ما رأيتُ ولا سمعتُ به ... يوماً كيوم صواحب القَصْر [3]

يوماً سيُؤْمِنُ كلٌّ مندفن ... أو لاحق بأئمةِ الكفر [4]

فاذكرْ أرامل لا عطاء لها ... ومسجّنين لموضع الأجر [5]

لو يُبتَلَونَ بغير سجنهم ... صبروا ولو حُبِسوا على الجمْر

ويصور الفرزدق ظلم الجباة في موضع آخر من شعره ، يشكوهم فيه إلى الوليد بن عبد الملك ، فيقول إنهم يشقون على الناس ، ويجلدونهم بالسياط حتى يلجئوهم إلى الربا الذي يدخلهم جهنم إرضاءً لجشعهم.

أميرَ المؤمنين وأنت تشفي ... بعدْل يديك أدواء الصدور

---

(١) الخبط (بالتحريك) ورق الشجر ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ، ثم يخلط بدقيق أو غيره ويعجن بالماء لتطعمه الابل . وانما يفعلون ذلك في أوقات الجدب وانعدام الخضراء . والمختبط الذي يفعل ذلك بابله . جر الشاعر (قشر) على الاتباع لمختبط ، وحقه الرفع .

(٢) الدبر هنا الهلاك .

(٣) كان الحجاج يأخذ نساء العصاة فيحبسهن في قصور ما بين البصرة الى قصر انس.

(٤) اي ان الميت الذي دفن يرى انه قد امن بالموت ، لان الموت خلصه من ان يصنع به مثل الذي يفعله الحجاج بالاحياء . والهارب الى بلاد الروم يرى ان ذلك قد خلصه من ظلم الحجاج كذلك .

(٥) يصف النساء في سجون الحجاج ويذكر الخليفة بهن . يقول له : اذكر ذلك لما لك فيه من أجر المنقذ من الظلم .

فكيف بعاملٍ يسعى علينا ... يكلفنا الدراهمَ في البُدُور [1]

وأنّى بالدراهم وهي منـــا ... كرافع راحتيه إلى العَبُور [2]

إذا سُقْنا الفرائض لم يردها ... وصدَّ عن الشُوَيهة والبعير [3]

إذا وَضعَ السياطَ لنا نهاراً ... أخذنا بالرِّبا سَهرَقَ الحرير [4]

فادخلنا جهنم ما أخذنا ... من الإرباء من دون الظهور [5]

فلو سمع الخليفة صوت داع ... ينادي الله : هل لي من مُجِير

وأصواتَ النساء مُقرّناتٍ ... وصبيانٍ لهن على الحجور [6]

إذاً لأجابهن لسانُ داع ... لدين الله مِغضَابٍ نَصُور

أمينِ اللهِ يَصْدَعِ حين يَقضِي ... بدين محمــد وبه أُمور

---

(١) يكلفنا الدراهم في البدور اي يكلفنا المستحيل ، كانه يطلب منـا ان نرقـى الـى القمر فناتي له بالدراهـم .

(٢) يريد ان الدراهم عزيزة المنال . والعبور هي الشعرى العبور ، وهـي احـدى الشعريين (بكسر الشـين) .

(٣) اي اذا دفعنا اليه ما فرضه الله علينا لم يرض به ، وابى الا الزيادة .

(٤) السرق جمع سرقة (بفتح السين والراء) وهي الشقة من الحرير .

(٥) يقول ندخل جهنم بسبب الربا . وانما الجأنا الى ذلك خوفنا على ظهورنـا مـن السـياط .

(٦) مقرنات مقرون بعضهن الى بعض في الاصفاد .

الأخطل

أول ما نعرف عن أيام غياث بن غوث الأولى ، وعن أخبار طفولته، هذه القصة التي تصوره مقيماً مع زوج أبيه ، في حياة لا تخلو من ضيق وحرمان فهي تؤثر أبناءها بما لذ وطاب من طعام، وتبعث به خلف أعنز لها يرعاها، وهو يحتال لنفسه في الوصول إلى ما يشتهي من ألوان الطعام ، فيزعم لزوج أبيه أن بعض جيرانها مريض ، ولا تكاد تمضي حتى يهوى إلى ما أخفت عنه من تمر وزبيب ، فلا يُبقِي على شيء منه. ثم تعود وقد تنبهت إلى حيلته ، وتهم بضربة فيهرب ويقول في ذلك .

ألمَّ على عنبات العجوز وشَكْوَتِها من غياث لَمَم[1]
فظلت تنادي ألا ويلها وتلعنُ واللعنُ منها أَمَمْ

وهو هنا صبي محروم ، ولكنه متمرد ، لا يرضى بما فرض عليه من هذا الحرمان ، ولا يعدم الحيلة في الوصول إلى ما يحب . وهو في الوقت نفسه حسن الاستعداد للشعر ، وللهجاء منه بنوع خاص . وصورة أخرى لهذا التمرد والطموح ، ولهذه الموهبة الهجائية ، تحفظها لنا عنه كتب الأدب ، فيما تروي من قصته مع كعب بن جُعَيْل ، وكان شاعر تغلب في وقته ، وكان لا يُلِم برهط منهم إلا أكرموه وأعطوه . فنزل على رهط الأخطل فأكرموه ، وجمعوا له غنا وحظروا عليها حظيرة ، فجاء الأخطل فأخرجها من الحظيرة وفرقها ، فخرج كعب وشتمه ، واستعان بقوم من تغلب فجمعوها له ، وردوها إلى الحظيرة .

---

(1) الشكوة (بفتح الشين) وعاء من الجلد يتخذ للماء واللبن .

فارتقب الأخطل غفلته ففرقها ثانيـــة ، فغضب كعب وقال : كفوا عني هذا الغلام وإلا هجوتكم . فقال له الأخطل : إن هجوتنا هجوناك. فقال كعب ومن يهجوني؟ قال: أنا .فقال له أبوه : أبفَذْ رَمَتيك[1] تريد أن تقاوم ابن جُعَيل ؟ وضربه . والأخطل هنا غلام مبتدىء في معالجة الشعر ولكنه يطمع أن تكون له فيه مكانة ، ويلتمس السبيل لذلك بهذه التصرفات النزقة . التي تلفت إليـه الأنظار ، وتجعل له بـيـن الناس أهمية خاصة . فهو لا يرضى أن يكون غلاماً ككل الغلمان ، مغموراً خامـل الذكر . ولكنه يلتمس الشهرة بأن يفعل الفعلة الكبيرة ، التي تغضب الناس وتؤلبهم عليه . ولا يلبث أن ينجح في إثارة هـذا الشاعر الكبير . فيقول له :

شاهدَ هذا الوجهُ غِبَّ الجُمَّة

فيجيبه الأخطل :

(فـ...) كعبُ بنُ جُعَيلٍ أمّه

ثم يقول في كعب وأخيه :

هجاني المنتنان ابنـــا جميل وأي النـاس يقتله الهجاء
ولدتم بعـد إخوتكم من أستٍ فهلّا جئتُمُ من حيث جاءوا

ويقول :

سميتَ كعبـاً بشرٍّ العظـامْ وكان أبوك يسمّى الجُعَـل[2]
وإن مَحَلك من وائل محلُّ القُراد من أست الجمل[3]

---

(١) في القاموس المحيط الفذرمة اختلاط الكلام . قلت كان الكلمة بما تجمع من حروف متنافرة تحكي هذا التنافر الذي يكون في الكلام المختلط .

(٢) الجعل ضرب من الحشرات التي تقتات بالاقذار تشبه الخنفساء . الكعب عظم القدم البارز من جانبيها .

(٣) وائل هو الجد الاكبر الذي يجمع بكرا وتغلب (قبيلة كعب والاخطل) . القراد حشرة صغيرة تلتصق بجلد الجمال .

ويلِجُ الهجاءُ بعد ذلك بينه وبين كعب . فيقرن اسم هذا الغلام الناشىء بذلك الشاعر المشهور ويتحدث الناس بأمرهما . ويعرف غياث من ذلك الحين بلقب الأخطل . لبذاءته وسلاطة لسانه .

ولا يزال الأخطل يلتمس الشهرة من طريق الهجاء والإفحاش على الناس حتى يتاح له هجاء الأنصار مستنداً إلى حمـاية يزيد بن معاوية ، بعد أن عرض الأمر على كعب بن جعيل ، فتحرج منه ودله على الأخطل . ويوافقُ العرضُ من هذا الشاب الطموح المغامر هوى فيرحب به ، على ما فيه من خطورة التعرض لهذه الطائفة المعروفة بتاريخها القديم في الإسلام، وسابقتها في تدعيمه وإقراره ، فيهاجمهم أعنف مهاجمة ، بأبياته المشهورة .

لعنَ الإلهُ بني اليهود عصابةً ... بالجزع بين جُلاجلٍ وصِرارِ [1]

قومٌ إذا هدَرَ العصيرُ رأيتَهم ... حمراً عيونُهم كجمر النارِ [2]

ذَهبتْ قريشٌ بالمكارم والعلَى ... واللؤم تحتَ عمـائمِ الأنصارِ

فذروا المعاليَ لستمُ من أهلها ... وخُذوا مَساحيَكم بني النجارِ [3]

إن الفوارس يعرفون ظهورَكم ... أولادَ كل مقبَّحٍ أكّارِ [4]

وإذا نَسبْتَ ابن الفُريعةِ خلته ... كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ [5]

---

(١) الجزع منعطف الوادي . جلاجل وصرار موضعان .

(٢) العصير عصير العنب او ما يعتصر ليخمر . هدر العصير وذلك حين يختمر . اي انهم يسرفون في الشراب حتى تحمر عيونهم .

(٣) المساحى جمع مسحاة (بكسر الميم) اسم آلة يجرف بها الطين والقشر . سحا الطين يسحيه ويسحوه جرفه وقشره . وبنو النجار بيت من بيوت الانصار وهم قوم حسان بن ثابت الشاعر .

(٤) اكار أجير حراث يحفر الارض .

(٥) ابن الفريعة حسان بن ثابت والفريعة امه .

ويذيع هذا الشعر . فيحدث في أوساط الأنصار ضجة هائلة . وتثور ثائرة زعيمهم النعمٰن بن بشير الأنصاري ، فيقدم على معاوية غاضباً، مطالباً بتأديب هذا الغلام النصراني ، لا يرضى في ذلك إلا بقطع لسانه . ويغضب معاوية ويهم بالأخطل ، لولا تدخل يزيد في الأمر ، يترضى أباه حتى يرضى .

والراجح أن هـــذه الحادثة كانت في أواخر أيام معاوية بعد سنة ٥٦ هـ. فالأخطل يصور يزيد في قصيدته التي قالها في هذه المناسبة ولياً للعهد حين يقول:

فأصبحتَ مولاها من الناس بعده   وأحرى قريش أن يُهاب ويُحمدا

وإنما بايع معاوية لابنه يزيد سنة ٥٦ هـ ، قبل وفاته بأربع سنوات . وقد صور الأخطل في هذه القصيدة يد يزيد عنده ، وما تعرض له من شر . وهي قصيدة رائعة ، بل هي في غاية الروعة ، حين تصور تَرَضّيَ يزيد لأبيه ، وما لقي فيه من جهد :

وإني غداةَ استعبرتْ أمُّ مالك   لراض من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيدُ ابنُ الملوك وسيبُه   تجللتُ حِدْباراً من الشر أنكدا [١]
وكم أنقذَتني من جَرُور حبالُكم   وخرساء لو يُرمَى بها الفيل بلَّدا [٢]
ودافعَ عني يومَ جِلَّقَ غَمْرةً   وهمّاً ينسّيني السُّلافَ المهوّدا [٣]

---

(١) الحدبار الناقة الداهية السنام العارية العظام ، يشبه نفسه في حال ورطته براكب ناقة هذه حالها .

(٢) الجرور البئر البعيدة القعر . الخرساء الداهية التي تذهل وتخرس ، معطوف على (جرور) .

(٣) جلق غوطة دمشق او موضع قريب منها . غمرة كربة . السلاف الخمر . المهود المسكن ، واصل التهويد النوم .

وبات نَجيًّا في دمشق لحيَّةٍ إذا عضَّ لم يَنْمِ السليمَ وأقصدا [1]

يُخفّنه طوراً وطوراً إذا رأى من الوجه إقبالا ألح وأجهدا

أبا خالدٍ دافعتَ عني عظيمةً وأدركتَ لحمي قبل أن يتبدّدا

وأطفأتَ عني نارَ نُعْمانَ بعدما أغذَّ لأمرٍ عاجز وتجردا [2]

وأشار إلى ذلك في موضع آخر ، من قصيدة مدح فيها يزيد ، وكان لا يزال ولياً للعهد :

فلولا يزيدُ ابنُ الإمام أصابني قَوارعُ يجنيهــا عليَّ لساني

ولم يأتني في الصُحف إلا نذيرُكم ولو شئتمُ أرسلتمُ بأمــاني

فأقسمتُ لا آتي نَصِيبَينِ طائعاً ولا السجنَ حتى يَمْضِيَ الحَرَمان

ومن ذلك الوقت بدأت صلة الأخطل بيزيد . وزاد في توثقها توافق طبعيهما. فقد كان يزيد شاعراً وكانت خلائقه بدوية ، فاستراح إلى هذا الشاعر البدوي ، الذي تلوح عليه مخايل النباهة ، واتخذه صديقاً ونديماً . ولكن الأخطل فيما يبدو ، ظل مكروهاً من معاوية لم يصل إليه ، فنحن لا نجد في ديوانه شعراً في مدحه ، وكل ما نجد أربع قصائد في مدح يزيد ، اثنتان منها قبيـــل وفاة معاوية ، وهما اللتان قدمناهما ، واثنتان بعد وفاته هما :

بانت سعاد ففي العينين تسهيد واسْتَحْقَبَتْ لُبَّهُ فالقلبُ معمود

---

(1) يقصد بالحية معاوية . السليم الذي لدغته الحية . اقصــدت الحية لدغت فقتلت . نمى الصيد ينميه أصابه في غير مقتل .

(2) نعمان هو النعمان بن بشير الانصاري . الاغذاذ سرعة السير . لامر عاجز أي لامر شديد يعجز صاحبه . تجرد للامر نهض له وجد فيه .

حلّتْ ضُبيّرةُ أمواه العِدادِ وقد   كانت تحلُّ وأدنى دارها ثُكُدُ (١)

وقد مدح في القصيدة الأخيرة يزيد بن معاوية وأخاه عبدالله بن معاوية (٢)

---

(١) العداد جمع عد (بكسر العين) وهو الماء له مادة في الارض . ثكد (بضمتين) ماء لبني كلب .

(٢) ذكر الدكتور غازي في كتابه (الاخطل شاعر بني امية) انى قد اضفت هذه القصيدة الى شعر الاخطل في يزيد ، بينما هي في اخيه عبد الله بن معاوية (هامش ص ٦٨ ـ الطبعة الاولى) . ثم عاد فذكر انها في يزيد وعبد الله كليهما (ص ٧٢ ، ٧٣) والواقع انها في مدح يزيد ، ولم يذكر فيها عبد الله الا في ابيات عارضة كما لاحظ الدكتور غازي نفسه (ص ٧٤) .

ويقرر الدكتور غازي ان القصيدة قيلت بعد وفاة يزيد ، معتمدا في ذلك على بيت الاخطل :

ويوم شرطة قيس اذ منيت لهم   حنت مثاكيل من ايقاعكم نكد

بعد ان فسر يوم (شرطة قيس) بأنه (مرج راهط) ، متبعا في ذلك الاب انطون صالحاني في شرحه للديوان . وهو خطأ واضح للاسباب الاتية :

لم اجد فيما قرات احدا سمي (مرج راهط) يوم (شرطة قيس) . وينفي هذا الزعم أن الاخطل قد اشار الى حسن بلاء عبد الله بن معاوية يوم شرطة قيس . ومن المعروف ان عبد الله بن معاوية فر بعد الهزيمة في يوم مرج راهط حتى اردفه عبيد الله بن زياد خلفه وحماه (العقد الفريد ٥ : ١٦٠) .

وليس في القصيدة اشارة الى آل مروان أصحاب الفخر بهذا اليوم . ولم يذكر الشاعر يوم شرطة قيس الا ذكرا عابرا ، بينما أطال الوقوف عند (صفين) . ولو كان المقصود بيوم شرطة قيس هو (مرج راهط) لاستحقت هذه الواقعة الفاصلة من الشاعر وقفة أطول من وقفته عند (صفين) ، ولكان الاولى والاحق بالذكر هو عبد الملك بن مروان ، لما هو معروف من حظوة الاخطل عنده ، وهي حظوة بلغ فيها الشاعر قمة مجده السياسي .

ثم ان الشاعر ختم قصيدته ببيت لا يخاطب به الا الخليفة . وذلك قوله :

والمسلمون بخير ما بقيت لهم   وليس بعدك خير حين تفتقد

والمخاطب بالبيت هو يزيد بن معاوية حتما وليس أخاه عبد الله بن معاوية ، لان هذا الاخير لم يكن خليفة قط . وغير الخليفة لا يصح ان يقال له ان المسلمين بخير ما عشت لهم ، لان امر المسلمين لا يناط بغير الخليفة . وهو قاطع في الدلالة على أن القصيدة قيلت في حياة يزيد بن معاوية وهو خليفة .

وعلى ذلك يمتنع أن يكون يوم شرطة قيس هو يوم مرج راهط ، لان يوم مرج راهط كان بعد وفاة يزيد بتسع سنوات . وانما وهم شارح الديوان في ذلك ، لانه فسر الشرط والشرطة بالاشراف ، ثم قرا في كتب التاريخ ان عددا كبيرا من اشراف قيس قتل يوم مرج راهط .

=

وربما استطعنا أن نلحق بهذه المدائح الأربع أبياتاً شفع فيها لعبيد الله بن زياد عند يزيد وهو خليفة ، وهي التي يبدأها بقوله :

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً جزاءَ بنُعْمَى قبلَها وَوَسِيلِ

وهي تخلو من مدح يزيد ولكنها تدل على أن الشاعر قد أصبح عنده ذا مكانة تسمح بأن يشفع لعامل من كبار عمال الدولة كعبيد الله بن زياد .

وهو يشير في القصيدة الأولى إلى شيبه حيث يقول :

إما تَرَيْني حَنَاني الشيبُ من كِبَرٍ كالنسر أرجفُ والإنسان مهدود
فقد يكونُ الصِبَى مني بمنزلةٍ يوماً ويقتادني الهِيفُ الرَّعاديد
يا قَلَّ خيرُ الغواني كيف رُغن به فَشُرْبُه وَشَلٌ فيهن تصريد[1]
أعرَضْنَ من شَمَطٍ في الرأس لاح به فهنَّ منه إذا أبصرْنَــه حِيدُ

= وقد ظن الدكتور غازي أني نسيت من بين مدائح الاخطل ليزيد رائيته :

تغير الرسم من سلمى بأجفار واقفرت من سليمى دمنة الدار

والقصيدة ليست مدحا اصلا . فقد فرغ فيها الشاعر للغزل وللخمر ولوصف الناقة على طريقة الجاهليين في تشبيهها بثور الوحش والاستطراد في ذلك .وهي تسعة وأربعون بيتا ، لم يعرض فيها الاخطل للمدح الا في الابيات الاربعة الاخيرة ، ولم يخص فيها ممدوحا بعينه ، ولكنه عم قريشا وبني حرب بالمدح . فكيف يصح عدها من مدائح الاخطل ليزيد . وانما اعتمد الدكتور غازي في دعواه على ما رواه الأب أنطون صالحاني ، وهي دعوى بلا دليـــل .

ثم ان الدكتور غازي في ترتيبه التاريخي لمدائح الاخطل في يزيد قد اعتمد على الخصائص الفنية التي تصور نضج الفن الشعري عند الشاعر .والاعتماد على الخصائص الفنية وحدها في ترتيب القصائد غير وثيق ، لان الشاعر قد يجيد في بعض شعره المبكر، وقد يخونه التوفيق في بعض قصائده المتأخرة . والاعتماد على التاريخ أوثق .

(١) الوشل القليل من الماء . التصريد السقي دون الري .

ويقول إن يزيد قد عطف عليه في محنة ، عاش فيها طريداً مشرداً بعيداً عن أهله لجرم ارتكبه :

جزاك ربك عن مُستَفرَدٍ وَحدٍ　　نفاه عن أهله جُرمٌ وتشريد
مُستشرَفٌ قد رماه الناسُ كلُّهمُ　　كأنه من سَمُوم الصَّيفِ سَفُّود [1]

ويشير إلى عطفه هذا في القصيدة الأخرى بقوله :

أنتم تداركتُموني بعد ما زَلِقَت　　نعلي وأخرج عن أنيابه الأسدُ [2]
ومن مُوَدَّنَةٍ أخرى تداركني　　مثلُ الرُّدَيني لا واهٍ ولا أوِدُ [3]

وللمرة الأولى ، نري الأخطل في هـذه القصيدة شاعراً سياسياً ، يتجاوز مديح يزيد إلى الدفاع عن الدولة ، ومهاجمة خصومها ، مؤيداً حق الأمويين في الخلافة ، مقرراً أن حقهم فيه ثابت ، بولايتهم لدم عثمان :

ويومَ صِفِّينَ والأبصارُ خاشعةٌ　　أمدهم إذ دعوا من ربهم مَدَدُ
على الأُولى قتلوا عثمانَ مظلمةً　　لم ينههم نَشَدٌ عنه وقد نُشِدوا [4]
فَثَمَّ قرَّتْ عيونُ الثائرين بـه　　وأدركوا كلَّ تَبْلٍ عنده قَوَدُ [5]
فلم تزل فيلقٌ خضراء تَخْطِمُهم　　تنعى ابن عفّانَ حتى أفرَخَ الصَّيَد [6]

---

(١) مستشرف (على البناء للمفعول) مظلوم ، من قولهم استشرفه حقه اي ظلمة . والسفود الحديدة التي ينظم فيها اللحم حين يشوى .
(٢) زلقت نعلي ، يشير الى زلتة بهجاء الانصار . ويقصد بالاسد معاوية .
(٣) المودنة حفرة الميت . الرديني الرمح شبه يزيد به ، واه ضعيف . اود معوج .
(٤) نشدهم عثمان الله أن لا يقتلوه ، فلم ينههم ذلك عن قتله .
(٥) التبل الثأر . القود القصاص .
(٦) الصيد الكبر . افرخ سكن .

ويقول إن نصرهم جاء من عند الله . فانتهاء أمر المسلمين إليهم دليـــل على تفضيل الله لهم . وهذه فكرة جديـــدة ، وقف الأخطل جهده على تقريرها بمختلف الصور والوسائل ، كما سنرى :

تمّتْ جُدودُهم والله فضّلَهم ... وجَدُّ قوم سواهم خاملٌ نَكِدُ

هم الذين أجابَ الله دعوتهم ... لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلَدُوا

...قومٌ إذا أنعموا كانت فواضلُهم ... سَيْباً من الله لا منٌّ ولا حسد

...ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ ... أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ثم هو يهاجم أعداءهم من القيسية وأصحاب صفين :

ويوم شرطة قَيْسٍ إذْ مُنيت لهم ... حنَّت مثاكيلُ من إيقاعكم نُكُدُ [1]

ظلوا وظل سحابُ الموت يمطرهم ... حتى توجَّهَ منهم عارضٌ برد [2]

والمشرفيةُ أشباهُ البروق لهـــا ... في كل جمجمةٍ أو بيضةٍ خُدَدُ [3]

ويختم القصيدة بهذا البيت القوي يخاطب به يزيد :

والمسلمون بخيرٍ ما بقيتَ لهم ... وليس بعدك خيرٌ حين تُفتَقَدُ .

---

(١) مناه الله يمنيه قدره أو ابتلاه . يقول : قدرك الله لاعدائك في ذلك اليوم ، اذ اوقعت بهم فاثكلت الامهات وابكيتها على قتلاها . الناكد المرأة التي لا يعيش لها ولد .

(٢) العارض السحاب المعترض في الافق . البرد الذي يمطر بردا .

(٣) البيضة الخوذة . خدد يقصد بها الجراح . والخدة في الأصل الحفرة المستطيلة في الارض ، شبه الجرح بها .

من ذلك الوقت ، لم يعد الأخطل صديقـــاً ليزيد فحسب ، ولكنه أصبح شاعراً أموياً ، أعد نفسه للدفاع عن سياسة هذه الدولة ، ومهاجمة أعدائهـا ، فنال عندهم حظوة رفعت من شأنه في قبيلته ، حتى احتل منها مكانة الزعامة ، وحتى كانت بكر بن وائل إذا تشاجرت رضيت به حكماً ، فكان يدخل المسجد فيقدمون إليه [1] . وعظم جاهه حتى اتخذ دار ضيافة . قال أبو الفرج : كان للأخطل دار ضيافة . فمر به عِكْرِمة الفياض وهو لا يعرفه ، فقيل له ـ هذا رجل شريف قد نزل بنا . فلما أمسى بعث إليه فتعشى معه ثم قال له : أتصيب من الشراب شيئاً ؟ قال : نعم . وإذا عنده قينتان خلفه ، وبينه وبينهما ستر ، وإذا الأخطل أشهب اللحية له ضفيرتان ، فغمز الستر بقضيب في يده ، وقال : غنياني بأردية الشمر ، فغنتاه بقول عمرو بن شاس :

وبيضٍ تَطَلَّى بالعبير كأنمـا يطأْنَ وإن أعنقْنَ في جدَدٍ وحلا
لهونا بهـــا يوماً ويوماً بشاربٍ إذا قلتُ مغلوباً وجدتُ لهعقلا [2]

ولم يصرفه مكانه من الأمويين عن رعاية قبيلته ، وتتبع شؤونها ، ومهاجمة أعدائها :

وقد علمت أفناءُ تغلب أنني نُضارٌ ولم أنبت بقَرْقرةٍ أثلا [3]
وأني يوماً لا مضيعٌ ذِمارَها ولا مُفْلِتي هاج هجا تغلباً بُطْلا

بل لقد استغل مكانته هذه عند الأمويين ، في إصلاح أمر قومه ، كلمـــا

---

(١) الاغاني ٨ : ٣٠٢

(٢) الاغاني ٨ : ٣١٨

(٣) افناء تغلب قبائلها . النضار شجر ينبت في الجبل فيكون خشبه صلبا . القرقرة الارض المطمئنة اللينة يكون خشبها هشا ضعيفا . الاثل شجر ضعيف العود .

وجد لذلك سبيلا . وكان مثال الزعيم القوي ، الذي يحرص على وحدة القبيلة واجتماع كلمتها . فهو إذا وقع بينهم خلاف ، تدخل مصلحاً ، وسعى في حقن الدماء خوفاً من أن يقع بأسُهم بينَهم ، فتذهب ريحهم ، وتهن قوتهم ، ويطمع فيهم عدوهم . فكان يحتمل الحمالات عن الجناة ، ويدى القتلى ، ساعياً بين وجهاء القبيلة وأثريائها ، يستعينهم على ما احتمل من غرامات ، فيمدح من يعينه منهم مشيداً بوفائه للقبيلة وبذله في سبيلها ، ويهجو بخلاءهم ، الذين يمتنعون عن المساهمة بأموالهم في الإصلاح قال صاحب الأغاني : أتى الأخطل الكوفة فأتى الغضبان بن القبعثري الشيباني ، فسأله في حَمالة . قال : إن شئت أعطيتك ألفين . وإن شئت أعطيتك درهمين . قال : وما بال الألفين وما بال الدرهمين قال : إن أعطيتك ألفين لم يعطكها إلا قليل ، وإن أعطيتك درهمين لم يبق في الكوفة بكري إلا أعطاك درهمين ، وكتبنا إلى إخواننا بالبصرة ، فلم يبق بكري إلا أعطاك درهمين ، فخفت عليهم المؤونة ، وكثر لك النيل. قال: فهذه إذن . قال : نقسمها لك على أن تَرِدَ علينا ... [1] ويروي الأصفهاني في بقية الخبر ، أن الأخطل قدم على أبي سُوَيْد بن مَنْجوف السَّدُوسي بالبَصرة ، فلم يعطه شيئاً ، وحض قومه على الامتناع ، مذكراً إياهم بما كان بين تغلب وبكر من قديم العداء . فهجاهم الأخطل بقوله :

فإن تبخلْ سَدوسُ بدرهميها　　فإن الريح طيبةٌ قَبُول [2]
تَوَاكَلني بنو العَلَّات منهم　　وغالَتْ مالكاً ويزيد غول [3]
قَرِيعَا وائلٍ هلكا جميعاً　　كأن الأرض بعدهما مُحول [4]

---

(١) الاغاني ٨ : ٣١٠

(٢) القبول ريح الصبا . يعني أن بخل سدوس لم يضره شيئا ، فالامور تجري على ما يحب .

(٣) تواكل القوم اتكل بعضهم على بعض . بنو العلات الاخوات لامهات شتى .

(٤) القريع فحل الابل لانه مقترع للفحلة اي مختار . يعني بقريعي وائل بكرا وتغلب .

وهجا سُوَيْد بن منجوف بقوله :

وماجِذعسوءوَخرّبالسُّوس أصله لما حَمَّلتهُ وائلٌ بمُطيق
تُطيف سدوسٌ حوله وكانها عِصِيٌّ أشاء لُوِّحَتْ بحريق[1]
جمادُ الصفا ما إن يَبِيضُ بقطرةٍ ولو كان ذا زرّاعةٍ ورقيق[2]
فإن نعف عن حُمران بكر بن وائل فما إنْ لنا سودانهم بصديق

ووفد الأخطل الكوفة ، فأتى حَوْشَب بن رُوَيْم الشيباني ، وقال : إني تحملت حَمالتين ، لأحقن بها دماء قومي ، فنهره . فأتى سيار بن البزيعة ، فاعتذر إليه . فأتى عِكْرِمة الفياض ، وكان كاتباً لبِشْر بن مران ، فسأله وأخبره بما رد عليه الرجلان ، فقال : أما إني لا أنهرك ولا أعتذر إليك ، ولكني أعطيك إحداهما عيناً والأخرى عَرَضاً[3] وفي ذلك يقول الأخطل :

إن ابن رِبْعِيٍّ كفاني سيبه ضِغْنَ العدو ونَبْوةَ البخّال
أغلَيْتَ حين تواكلتني وائلٌ إن المكارم عند ذاك غوالي
ولقد شفيْتَ مَليلَتي من معشر نزلوا بعقْوة حيّة قتال[4]
بَعُدَتْ قُعورُ دِلائهم فرأيتَهم عند الحَمالة مغلقي الأقفال
ولقد منتَ على ربيعة كلِها وكَفيتَ كلَّ مُوا كِل خَذّال

(١) الاشاء النخل . لوحت اسودت ، وصفهم بالسواد والنحول .
(٢) الجماد الناقة التي لا لبن لها والجماد ايضا السنة المجدبة ، الصفا الحجارة يعني انه بخيل كالصخرة لا يندى .
(٣) الاغاني ٨ : ٣١٩ . العين النقد الحاضر . والعرض ما ليس نقدا .
(٤) المليلة الحمى الباطنة والحر الكامن في العظم ، استعاره لرغبة الانتقام . العقوة الساحة والباءة والمحلة .

كَزْمِ اليدين عن العطية ممسكٍ　　ليست تَبِضْ صَفَاتُه ببِلالِ[1]

مثلِ ابن بَزْغة أو كآخر مثلِه　　أوْلى لك ابنَ مُسيمةِ الأجمالِ[2]

إن اللئيم إذا سألت بهرتَه　　وترى الكريم يَرَاحُ كالمختالِ[3]

وإذا تبوَّعَ للحَمَالة لم يكن　　عنهـــا بِمُنْبَهِرٍ ولا سَعّالِ[4]

وإذا المِئُونَ تُوُوكِلَتْ أعناقُها　　فاحمل هناك على فتى حمّالِ[5]

فهو الجوادُ لمن تعرض سَيْبَه　　وابنُ الجواد وحامل الأثقالِ[6]

ويشير الأخطل في موضع آخر من شعره إلى هذه الحالات ، مثنياً على من يفي للقبيلة ، فيستجيب لدعائها وقت الشدة ، معرّضاً بمن يقعد عن المشاركة فيما يلم بها ، حيث يقول :

سعى لي قومي سعي قوم أعزَّةٍ　　فأصبحت أسمو للعلى والمكارم

تمنّوا لنَبْلِي أن تطيش رياشهـــا　　وما أنا عنهم في النصالِ بنائم

وما أنا إن جارٌ دعاني إلى التي　　تحمّل أصحاب الأمور العظائم

ليُسْمِعَنِي والليـــلُ بيني وبينه　　عن الجار بالجافي ولا المتناوم

---

(١) الكزم الضيق الكف القصير الاصابع كنى بذلك من بخله . الصفا الحجر . تبض صفاته تندى . بلال وبلل واحد .

(٢) ابن البزيغة يعني به سيار بن المنذر ويقصد بالاخر حوشب بن رويم اللذين ورد ذكرهما في القصة السابقة . ابن مسيمة الاجمال يعيره بأن امه كانت ترعى الابل كالاماء .

(٣) بهره كلفه فوق طاقته . راح للمعروف يراح راحة أخذته له خفة واريحية .

(٤) تبوع للحمالة مد باعه لها .

(٥) توُوكلت اتكل كل واحد على صاحبه . اعناقها جماعاتها .

(٦) تعرض السيب وللسيب تصدى له وطلبه . والسيب العطاء .

ألم تر أني قد وديتُ ابنَ مِرفَقٍ ... ولم تُودَ قتلَى عبدشمس وهاشم[1]

جزى الله فيها الأعورَيْن مذمةً ... وعبدةَ ثَفر الثورة المتضاجم[2]

فاعيوا وما المولَى بمن قلّ رِفدُه ... إذا أجحفَتْ بالناس إحدى العقائم[3]

وما الجار بالراعيك ما دمت سالماً ... ويزْحلُ عند المُضْلِع المُتَفاقِم

هذه المنزلة الكبيرة التي احتلها الأخطل عنـد قبيلته من جهة وعند البيت الحاكم من جهة أخرى ، قد ربطت بين التغلبيين والأمويين ، وكان لها أثر عظيم في توجيه سياسة القبيلة ، وتعليق مصالحها بقيام البيت الأموي . وقد ظهر أثر ذلك واضحاً في أيام الفتنة التي تلت موت يزيد بن معاوية ، فقد شذت تغلب على قبائل العراق ، التي كانت يداً واحدة على الأمويين ، وقد بُعِثت من جديد تلك الحزازات القديمة بين الشام والعراق ، فوقفت موقفاً ظاهره الحيـاد ، وباطنه الولاء للأمويين . كانت النصرانية غالبة على تغلب ، فلم يكن يقبل منهم رأي في خلافة المسلمين، ولم يكن من شأنهم أن يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من حروب، في سبيل إقرار هذا الخليفة أو ذاك . فاعتزلوا أول الأمر إلا قليلاً من رجالهم المسلمين ، كانوا يغيرون مع عمير وزُفَر على كلب واليمنية ويدلونها[4] ولكن القبيلة في معظمها ظلت على حيادها الشاذ ، وسط هـذه الكتلة الزبيرية ، التي تحيط بها من كل مكان ، تترقب الظروف ، وتشارك الأمويين بعواطفها، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً . ولم يكن بد من أن ينتهي موقفها بالحرب، فالقيسية

---

(١) ولم تود قتلى عبدشمس وهاشم هؤلاء رجال من قومه ذمهم لانهم لم يعينوه في حمالته . لم تود قتلاهم اي لم يؤخذ بثارهم .

(٢) الثفر للسباع بمنزلة الحياء للناقة وهو فرجها . وقد يستعار من السباع فيجعل للانسان . الثورة يقصد بها انثى الثور او البقرة . المتضاجم المائل .

(٣) المولى هنا ابن العم المخلص لقبيلته . الرفد العطاء . العقائم الشدائد .

(٤) ابن الاثير : ٤ : ٣ .

لا يُنقطعون عن التحرش بهم ، لما هو معروف من ميلهم الأموي ، فهم يستأوون جواريهم ، ويسخّرون مشايخهم من النصارى ، ويُغيرون على إبلهم وماشيتهم. كل ذلك والتغلبيون يؤثرون السلم ، لكثرة عدوهم حولهم. فهم يشتكون إلى زعيمهم عُمَيْر بن الحُبَاب ، فلا ينهرهم ولا يكفُّهم ، فيتمادون في الاعتداء ، حتى ثار التغلبيون مستقتلين ، تتقدمهم أعلام النصرانية ، قد رسم عليها الصليب [1] ، وفي ذلك يقول الأخطل :

لمـــا رأونا والصليبَ طالعاً وَمَارَ سَرْجِيسَ وسمًّا ناقعا
وأبصروا راياتِنا لَوَامعـــا كالطير إذْ تَستورِد الشرائعا
والبيضَ في أكُفِّنا قواطعا خلَّوا لنا رَاذانَ والمَزَارعا [2]

وتتابعت الوقائع بين تغلب وبين القيسية ، الذين كان يتزعمهم الجحاف بن حكيم وعُمير بن الحُبَاب السُّلَميان وزُفَر بن الحارث الكِلابي. ووقف الأخطل الموقف الذي ينبغي لمثله ، يسجل انتصارات قومه ، ويهاجم القيسية وشعراءهم ،

---

(١) ذهب الدكتور غازي في كتابه (الاخطل شاعر بني امية) الى ان تغلبْ انضمت في اول امرها الى القيسية ، حفاظا على ما سماه عصبية نزار . وكل ما قدمه في ذلك من ادلة غير مقنع . بل هو يدل على العكس في بعض الاحيان . فنص ابن الاثير الذي يشير الى ان القيسية كانوا يستاوون جواري بني تغلب – اي انهم كانوا يجبرون نساءهم على ايوائهم – ويسخرون مشايخهم ، يعني أنه لم يكن بينهم من التفاهم ما يجعلهم يؤوونهم بدافع العصبية النزارية المزعومة . أما اشتراك بني تغلب مع القيسية في قتال بني كلب فغير صحيح . وكل الذي ذكره ابن الاثير هو أن (قوما من تغلب) كانوا يتبعون القيسية بوصفهم أدلاء يرشدونهم الى الطريق بحكم خبرتهم بمسالك ارضهم . ولا يخفى ان اشتراك تغلب في مقاتلة كلب يناقض ما هو ثابت من عصبيتهم الأموية . والشعر الذي اورده للاخطل يشير فيه الى عصبية نزار لا يدل على اكثر من ممالقة الاخطل لزفر بن الحارث اتقاء شره .

(٢) الشريعة مورد الماء . راذان هو الثرثار ، نهر او واد كبير في منازل تغلب بين سنجار وتكريت ، كانت فيه وقعة مشهورة بين تغلب وقيس .

كالنابغة الجعدي ، ونُفَيْع بن صَفّار المحاربي، وتميم بن أبي بن مُقبل. وكان من أعنف ما هجاهم به :

ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بدْر وإن كان حَيّانا عِدَى آخرَ الدّهر

وهو يتتبع فيها قبائل قيس بأعنف الهجاء وأفحشه ، ويفتخر بقتل ابن الحُبَاب ، معتداً بذلك عند الأمويين . والقصيدة تمتاز بقوة التصوير الهجائي ، الذي ينزل إلى الفحش البذيء في بعض الأحيان . وبالقسوة الوحشية في تصوير مناظر الحرب البشعة ، وطول النفس ، مع الاحتفاظ بالمستوى الشعري الممتاز حتى البيت الأخير منها . انظر إلى ما في شعره من عنف حين يخاطب القيسية :

لقد حملت قيسَ بنَ عيلان حربُنا على يابس السِّيساء مُحْدَوْدِب الظَّهر [١]

..ركوبٌ على السَّوْءات قد خرَّم أسْتَه مقارعةُ الأعداء والنَّخسُ في الدُّبْر [٢]

وانظر إلى بني محارب في جلبتهم وضوضائهم ، كأنهم الضفادع التي لا تنقطع عن النقيق ، تتجاوب أصواتها ، فتجني على نفسها ، لأنها تدل حية البحر على موضعها :

تنِقُّ بلا شيء شيوخُ محارب وما خلتُها كانتْ تَرِيشُ ولا تَبْري

ضفادعُ في ظلماء ليل تجاوبتْ فدل عليها صوتُها حيَّةَ البحر

ثم انظر إلى هذه الصورة البشعة ، التي يخوض فيها حين يخاطب الشاعر

---

(١) السيساء العمود الفقري الذي ينتظم فقار الظهر في الحيوان . صور ما يحتملون من الحرب بما يحتمل الراكب على دابة عجفاء محدودبة الظهر بارزة فقاره .

(٢) الحديث هنا عن ابن بدر الذي وصف هربه من المعركة في أبيات سابقة .

القيسي "نقَيْعَ بن صَفّار المحاربي، وإلى استخفافه به وبشعره ، الذي لا يثبت لشعر الأخطل ، فكأنه إفك فرعون وسحرته ، أمام حية موسى ، لا يلبث أن يتضاءل ويزول :

وكان ابن صَفّار هجين محارب كمقتبس مني شهاباً على ذعر
وقدو سَمَتْ عينيه إذ طرّقتْ به من الوُرْق دَفْراء القذَّين والنحر [1]
إذا انفرجت عنه الأشاعر رَدَّه عن القصد بَظْرٌ مثلُ أرنبة النسر
تَخلَّ ابنَ صفار فلا تَرُم العلى ولا تذكُرَنْ حيّاتِ قومك في الشعر
فقـــد نهضَتْ للتغلبيين حيةٌ كحية موسى يوم أُيِّد بالنصر

وانظر إلى هذا الشاعر القيسي الآخر ، تمم بن أبي بن مقبل العامري ، وإلى رهطه بني العجلان ، يُسوّدهم قومهم وهم من ألأم الناس . وتأمل هذه الصورة الساخرة ، التي يصور فيها هؤلاء الذين يتزعمون الناس ، يبخلون على غلمانهم بالزاد ، حتى يكاد يقتلهم الجوع ، ولا يزال غلامهم يبكي من شدة جوعه ، وقد تَمَعّس وجهُه ، وراح في بكائه يدلك عينيه بيديه ، كأنه الخفاش ، حتى تمـــل الوليدة كثرة صياحه ، فتلقي به في زاوية مظلمة من أركان البيت، مصمّة أذنيها عن صراخه . وانظر إلى رثاثة نسائهم وقماءتهن ، يتكافن من أعمال الرعي وحمل المتاع ، قد لصقت الأوضار بجلودهن ، كأنما طليت سواد القِدْر . وتآكلت كعوبهن من طول الرعي . ويبست أعجازهن من حمل القرب ومراكب النساء :

---

(١) طرقت المراة والقطاة اذا عسر خروج الولد والبيضة . رجل ورق وامـراة ورقـة حسيـان . دفراء القذفين : الدفر نتن الرائحة ، القذان ما خلف الاذنين . وهـذا البيـت والبيت الذي يليه وصف لعسر ولادة نقيع بن صفار وهو تصوير بشع يقشعر منه البدن . وهذه البشاعة والوحشية والتصوير الكالح الفظ من خصائص الاخطل كمـا سنرى .

إذا التمس الأقوامُ في الناس ذِكرَهم   فذِكرُ بني العَجْلان من أقبح الذِكْر

وقد سرني من قيس عيلان أنني   رأيتُ بني العَجْلان سادُوا ابني بدر

وقد غبَرَ العَجْلانُ حيناً إذا بكى   على الزادِ ألقَتْه الوليدةُ في الكِسْر

فيُصبحُ كالخفّاش يدلكُ عينَه   فقُبّحَ من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجْر

وكنتم بني العَجْلانِ أقصرَ أيْدِياً   وألأمَ من أن تبلُغوا عاليَ الأمر

بَنِي كلُّ دسماء الإهابِ كأنما   كساها بنو العجلان من حُمَم القِدْر

ترى كعبَها قد زال من طول رَعْيِها   وقَاحَ الذُّنابَى بالسَوِيَّة والزِفْر (١)

وانظر إلى هذه الصورة البشعة ، التي يصور فيهــا امرأة من نساء قيس ، قد أثخنتها الجراح ، فخرت صريعة على الأرض ، قد تدلى منها جنينها ، ملففاً في هذه اللفائف التي تكون على الجنين في البطن ، والطير تحوم من حولها تضرب عينيها وتعبث بأحشائها ، وهي تلفظ آخر أنفاسها :

وكم من جنين بات ينزِعُ نفسَه   لقَيْسِيَّةٍ قد هَكَّها السيفُ بالخَصْر

سُلَيْمِيَّةٍ سوداء أو عامريّةٍ   تجُرُّ سَلاها حين تنهضُ بالصَّدْر (٢)

بها رَمَقٌ فالطير تبقر بطنَها   وتضربُ عينيها قوادِمُ من نَسْر

---

(١) اللذنابي يعني به هنا العجز . قاح من القبح . السوية كساء محشو بثمام (بضم الثاء) يوضع تحت الراكب وهو مركب خشن من مراكب الاماء . الزفر (بكسر الزاي) الحمل والقربة وجهاز المسافر يقول انهن من الاماء يشتغلن بالرعي حتى حفيت كعوبهن ، ويركبن مراكب الاماء ويحملن الاحمال حتى دميت اعجازهن .

(٢) السلى الكيس الذي يكون الجنين في داخله .

وانظر إلى هذه الصورة الدقيقة الرائعة ، التي يصور فيها هذا السيد القيسي الذي أخذته الرماح من كل مكان ، حتى ألجأته إلى الهرب . فهو يستحث فرسه على العدو ، وقد تحلب من أعطافها الماء . كأن في بطنها ومجرى حزامها قِرَباً تَسُحُّ الماء . ترمي برجليها مُوسعةً الوثب . ولا تكاد تمس الأرض . كأنها تسبح في الفضاء ، أو تعوم في بحر من الغبار المتكاثف ، الذي يثيره من حولها هذا الزحام المضطرب العنيف . والرماح تنوشه من كل جانب ، تكاد تناله ولما تنله ، وقد انخلع قلبه من الذعر ، فراح يلهب ظهر الفرس في عَدْوٍ جنوني . فكأنه عقاب يسرع إلى وكره ، وقد أقبل عليه ظلام الليل . وظل في شدة فزعه وذهوله ، يُفَدّيها بنفسه وأمه ، قائلاً : فِدىً لك أمي إن دأبت إلى العصر . وبالله لو أدركته الرماح ، لتركته جثة مهملة في الصحراء يتوسد كفه ولا يضمه قبر ، فهو نهب الضباع وكوامر الوحوش .

ونجّى ابنَ بدرٍ ركضُه من رماحنا	بنضّاحةِ الأعطافِ مُلْهَبَةِ الحُضْرِ [1]
إذا قلتُ نالته العوالي تقاذفتْ	به سَوْحَقُ الرِّجلين سابحةُ الصدر
كأنهما والآلُ ينجاب عنهما	إذا هبطا وعثاً يعومان في غَمْرِ [2]
كأن بطُبْيَيْها ومجرى حِزامها	أداوَى تسُحُّ الماءَ من حَوَرٍ وُفْرِ [3]

(١) نضاحة الاعطاف يعني فرسا تنضح اعطافها بالعرق لشدة ما اجهدها الجري ، الحضر العدو . ملهبة الحضر الهبت ليستخرج اقصى ما عندها من العدو . سوحق الرجلين طويلتهما . سابحة الصدر كان صدرها سابح في الفضاء لسرعتها فهي لا تكاد تمس الارض .

(٢) كانهما يعني ابن بدر وفرسه . الآ ل السراب . ينجاب ينكشف . الوعث الأرض السهلة الرخوة تغيب فيها الاقدام . الغمر الماء الكثير يشبهه حين يحيطه الغبار الذي يثور حوله وحول فرسه بالذي يسبح في ماء .

(٣) الاطباء : الاثداء واحدها طبي (بضم الطاء وسكون الباء) . الحور جلد مدبوغ ، وفر ضخام . يصف العرق الذي يتحلب من بين ثدييها ومن موضع حزامها بالماء المتدفق من قرب ضخام . الإداوة إناء صغير من جلد يتخذ للماء

فظلّ يُفدّيهـــا وظلّت كأنها … عُقابٌ دعاها جُنْحُ ليلٍ إلى وَكْرِ [1]

وظل يجيشُ الماء من مُتَفَصِّد … على كلّ حالٍ من هزائمه يَجْري [2]

يُسِرُّ إليهـــا والرماحُ تَنوُشه … فِدىً لكِ أمّي إنْ دأبتِ إلى العَصْر

وبالله لو أدركْنَه لاضطرَرْنه … إلى صَعبةِ الأرجاء مظلمةِ القَعْر [3]

فوسّدَ فيهـا كفّه أو لَحَجَّلتْ … ضِباعُ الصحارِى حولَه غيرَ ذي قبر

وهو في آخر القصيدة يتجه إلى الخليفة فيقول : إننا نستغني بك عن عداك، فما بنا من حاجة إلى صلح قيس وأنت أمير المؤمنين . لقد بايَعَتْ قيس، وفزعت إليك تطلب العذر عما قدمت ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك عن إسلام أو حب ، وإنمـــا دفعهم إليه الذل كارهين . ويفتخر بعد ذلك بموقف قبيلته من الدولة وعدائها لمصعب بن الزبير ، ومحاربتهم جنده من القيسية ، وقتلهم رأسهم الذي دفعهم إلى الفتنة ، عُمَير بن الحُبَاب :

وأنت أميرُ المؤمنين ومـــا بنا … إلى صلحِ قيسٍ يا ابنَ مروانَ من فقر

فإن تكُ قيسٌ يا ابنَ مروانَ بايَعَتْ … فقد وَهِلتْ قيسٌ إليك من العُذْر [4]

---

(١) يفديها يقول لها (جعلت فداك) . دعاها جنح ليل ، أي خافت دخول الظلام فجدت في الطيران عائدة الى وكرها . يشبه فرسه في سرعة عدوها بهذا العقاب .

(٢) يجيش يفيض . متفصد متشقق . اهتزمت السحابة بالماء وتهزمت تشققت مع صوت .. الهزائم الخروق والشقوق . يقول : ظل الفرس يرشح عرقا .

(٣) صعبة الارجاء مظلمة القعر ، ذلك هو القبر او الحفرة الضيقة التي يوارى فيها . اي : لو ادركته الرماح لقتلته ، فدفن في حفرة مظلمة ، وقد اتخذ كفه وسادا ، او ترك في الصحراء طعاما للضباع .

(٤) الوهل الفزع . اي ان قيسا فزعت اليك تطلب عذرا عما قدمت .

على غير إسلام ولا عن بصيرة ... ولكنهم سِيقُوا إليك على صُغْر [1]

ولما تبيَّنا ضلالةَ مُصْعَبٍ ... فتحنا لأهل الشام باباً من النصر

فقد أصبحَتْ مني هوازنُ كلها ... كواهي السُّلَامى زيدَ وَقْراً على وَقْر [2]

سمَونا بعِرْنين أشمَّ وعارض ... لنمنعَ ما بين العراق إلى البِشْر [3]

فأصبح ما بين العراق ومَنْبِج ... لِتَغْلِب تَرْدِي بالرُّدَينيَّة السُّمر

إليك أميرَ المؤمنين نَسيرُها ... تخُبُّ المطايا بالعَرَانين من بَكْر

برأس امرىءٍ دلَّى سليماً وعامراً ... وأورد قيساً لُجَّ ذي حَدَبٍ غَمْر [4]

فأسرَيْنَ خمساً ثم أصبحن غُدوةً ... يُخبِّرن أخباراً ألذَّ من الخمر

ومما يصور قسوة الأخطل الوحشية في الهجاء ، وبشاعة تصويره لمناظر القتال ، هذه الأبيات التي يصف فيها جثة عمير بن الحباب ، وقد تركت في الصحراء عارية من الأكفان ، تنبعث منها الروائح العفنة ، فتدل الضباع على موضعها ، ومن حولها جثث مبعثرة على جوانب الوادي ، قد انتفخت بطونها ، وخرجت أحشاؤها :

أمعشرَ قيس لم يمتَّع أخوكم ... عميرٌ باكفان ولا بطَهور

(١) الصغر الذلة والهوان .

(٢) السلامى عظام خف البعير . الوقر الصدع ، يشبه هوازن في تفرقها بعد هزيمتها بعظام خف البعير وقد تصدعت من ادمان السير .

(٣) العرنين عظم الانف يريد بالعرانين الاشراف . العارض الجمع الكثير واصله السحاب . البشر ماء لبني تغلب .

(٤) أورد قيسا لج ذي حدب غمر ، اي اوردها بحرا من المصائب . ذو الحدب البحر ، والحدب الموج . الغمر الكثير الماء .

تدلُّ عليه الضبعَ ريحٌ تضوّعتْ ... بلا نَفْحِ كافور ولا بعبير
وقتلى بني رِعْل كأن بطونَها ... على جَلْهَةِ الوادي بطونُ حمير[1]

ومن قصائده التي تمتاز بالفحش ، وبالاعتماد على الصور الهجائية ، قصيدته في هجاء النابغة الجعدي أحد شعراء قيس :

لقد جارَى أبو ليلى بِقَحْم ... ومُنتكِثٍ على التقريب وان[2]

فمن إفحاشه فيها قوله .

خنافسُ أدْلَجتْ لِمبيتِ سوء ... وَرِثْنَ فِراش زانيةٍ وزان
وما أمٌّ ربوتَ على يديْها ... بطاهرة الثياب ولا حَصَانِ
كأن عِجانَها لَحْيا جَزور ... تحسَّرَ عنها وَضْرُ الجِران[3]

وقد عرف الأمويون لتغلب وشاعرها إخلاصهم للدولة في محنتها وقتالهم في سبيلها ، فأعظموا مكانهم ، وقربوا الأخطل ، حتى بلغ في بلاط عبد الملك قمة مجده السياسي ، فكان شاعر الدولة المقدم . ولقد بلغ من جرأته على الخليفة ، أنه كان في شعره يمن عليه سابق صنعه له ، ولا ينقطع عن الإدلال بموقف قبيلته في تيه وعجب ؛ وكان عبد الملك ، مع ما هو معروف من قوته وهيبته ، يحتمل

---

(١) جلهتا الوادي جانباه . رعل بطن من بهثة (بضم الباء) من سليم (بصيغة التصغير)

(٢) أبو ليلى : كنية نابغة بني جعدة . القحم الفرس الكبير السن المهزول الهرم . التقريب ضرب من العدو . المنتكث والمنتكس الضعيف . يعيره كبر سنه وعجزه عن المضي في مساجلته الشعر .

(٣) العجان ما بين القبل والدبر . اللحى مَنبت اللحية من الانسان وغيره . الجزور الناقة المذبوحة . الوضر وسخ الدسم واللبن . جران البعير مقدم عنقه .

منه كل ذلك . بل لقد استطاع أن يقول له في إحدى مدائحه ، إن قبيلته أقرّت ملك الأمويين :

وقدْ نُصِرتَ أميرَ المؤمنين بنـــا   لما أتاك ببطن الغُوطَةِ الخبَرُ[1]

واستطاع أن يذهب في الجرأة إلى أبعد من ذلك ، حين نقض الجحاف عهده ، فأوقع بتغلب في البِشْر . فهو يتهم الخليفة بالتقصير في حماية قومه ، ويجعله مسؤولاً عن قتل منهم ، فيطالبه بأن يغرم عن القيسية دماءهم ، قائلاً إن الحالة مهما تثقل فدم القوم أثقل . وهو يهدد الخليفة بالخروج معتمداً بقوة قومه :

لقد أوقع الجحافُ بالبِشْرِ وقعةً   إلى الله منها المُشتَكَى والمعوَّلُ
فسائلْ بني مروانَ ما بالُ ذِمَّةٍ   وحبلٍ ضعيفٍ ما يزال يُوَصَّلُ[2]
بنزوة لصٍّ بعدما مرّ مُصْعَبٌ   بأشعثَ لا يُفلَى ولا هو يُغْسَلُ[3]
أآمَرَكَ الجحافُ ثم أمرتَه   بجيرانكم وَسْطَ البيوتِ تُقَتَّلُ؟[4]
لقد كان للجيران ما لو دَعَوتمُ   به عاقِلَ الأرْوَى أتتكم تنزَّلُ[5]
فإن لا تُغيِّرْها قريشٌ بِمُلْكِها   يكنْ عن قريشٍ مُستمازٌ ومَزْحلُ[6]

---

(١) الغوطة غوطة دمشق .

(٢) حبل ضعيف ، يقصد العهد الذي بين قومه وبين الامويين ، يصفه بالضعف لان الخليفة لم يستطع ان يحمي قومه من الجحاف السلمي حين اوقع بهم .

(٣) يقصد باللص الجحاف . يقول له فعلتم هذا بعد أن قتلنا لكم مصعب بن الزبير .

(٤) يتهكم بالامويين يقول هل استأذنكم الجحاف في قتل جيراتكم الذين يحتمون بكم فأذنتم لـــه .

(٥) الاروى جمع كثرة للاروية وهي أنثى الوعول . والعاقل الممتنع في الجبال العالية . يقول لقد كان للجيران عليكم عهد ينزل الاروى المعتصم بأعالي الجبال .

(٦) مستماز من ماز الرجل وامتاز واستماز انتقل من مكان الى مكان متنحيا . زحل تباعد . وفي رواية اخرى (ومرحل).

وَنعْرُرْ أناساً عَرَّةً يكرهونها ... وَنَحيَى كراماً أو نموتُ فنقتلُ[1]

وإن تحملوا عنهم فما من حَمَالةٍ ... وإن ثقُلت إلا دمُ القومِ أثقلُ[2]

وإن تَعرِضُوا فيها لنا الحقَّ لم نكن ... عن الحقِّ عِمياناً بل الحقَّ نسال

وقد ننزِلُ الثغرَ المخوفَ ويُتَّقَى ... بنا الباسُ واليومُ الأغرُّ المحجَّل

كان الأخطل لسان الحكومة الذي يعبر عن رأيها واتجاهاتها . فهو يصور بغض الأمويين لهذا الحزب القيسي، الذي ظل مكروهاً من عبد الملك، لا يُقرّبه ولا يثق به . فلا تكاد تخلو قصيدة في مدح عبد الملك من هجائهم ، والتحدث عن نفاقهم ، ونبش قديم كيدهم للدولة وانحرافهم عنها . يقول في قصيدته :

لعمري لقد أسريتُ لا ليلَ عاجزٍ ... بساهمة الخدَّين طاوية القُرْبِ[3]

... عَتَبْتُمْ علينا قيس عيلان كلُّكم ... وأيُّ عدوٍّ لم نُبتِه على عَتْبِ

لقد علمتْ تلك القبائل أننا ... مصاليتُ جذّامون آخيَةَ الشَّغْبِ[4]

فإن تكُ حربُ ابنَيْ نزارٍ تواضعَت ... فقد عَذَرَتْنا في كلابٍ وفي كعب

وفي الحُقْبِ من أفناءِ قيسٍ كأنهم ... بمنعرَجِ الثرثارِ خُشبٌ على خشبِ[5]

---

(١) عره بشر لطخه به . والعر (بفتح العين) في أصل معناه هو الجرب (بفتحتين).

(٢) الحمالة الدية والغرامة .

(٣) السرى سير الليل . الساهم الشاحب الضامر . القرب الخاصرة .

(٤) المصلات الشجاع . الجلم القطع . الآخية خشبة تدفن في الارض يشد فيها حبل تربط به الدابة . الشغب تهييج الشر .

(٥) الحقب جمع أحقب وهو الحمار الوحشي الابيض في حقويه ، والحقو (بفتح الحاء) الخصر . أفناء قيس أخلاطهم . الثرثار وادٍ عظيم بالجزيرة وهو في البرية بين سنجار وتكريت تسكنه تغلب ، وبه كانت وقائع مشهورة بينهم وبين قيس عيلان في أيام الفتنة الثانية .

وهنَّ أذقنَ الموتَ جزءَ بنَ ظالم ... بماضيةٍ بينَ الشراسيفِ والقُصْبِ [1]

فظلَّت بنو الصمعاء تأوي فلولُهم ... إلى كل دسماء الذراعين والعَقْبِ [2]

وقد كان يوما راهطٍ من ضلالكم ... فناءٌ لأقوامٍ وخطباً من الخطب

تُساممون أهل الحقِّ بابنَي محاربٍ ... ورهطِ بني العَجْلانِ حسبُك من ركْبِ! [3]

قرومُ أبي العاصي غداةَ تَخَمَّطت ... دمشقُ بأشباه المهنَّأةِ الجُربِ [4]

يقودون موجاً من أمية لم يرِثْ ... ديارَ سليمى بالحجاز ولا الهضب

ملوكٌ وحكامٌ وأصحابُ نجدةٍ ... إذا شوغبوا كانوا عليها أولي شَغْب

ويعرِّض بزعيمهم زفر بن الحرث في قصيدة يمدح بها بشر بن مروان فيختمها بقوله :

فلا تجعَلَنِّي يا ابن مروان كامرىءٍ ... غلتْ في هوى آل الزبير مراجِلُه

يُبايِعُ بالكفِّ التي قد عرفتَها ... وفي قلبه ناموسُه وغوائلُه

وقد اتخذ هجاؤه للقيسية صورة جديدة في النقائض التي اتصلت بينه وبين

---

(١) الشراسيف أطراف الاضلاع من اسفل الجنب . القصب المعران . جزء بن ظالم الحارث بن ظالم الذي قتل ابن النعمان وكان من فتاك العرب المشهورين ، والاخطل يفتخر هنا بقتلهم هذا البطل .

(٢) بنو الصمعاء اخوة عمير بن الحباب نبزهم بذلك . والصمعاء الصغيرة الاذن . دسماء الذراعين من الوسخ والاقذار .

(٣) اهل الحق يعني بني أمية . محارب وبنو العجلان من قبائل قيس عيلان .

(٤) القروم جمع قرم وهو السيد على التشبيه بفحل الابل . تخمط تكبر وغضب . المهناة الابل المطلية بالقطران وذلك حين تداوى من الجرب . والعرب تصف الجيش بالسواد لكثرة ما عليه من الدروع والحديد .

جرير ، وكان عمادها هجاء الأخطل لهذا الحزب الزبيري المنحرف عن الأمويين، وانتصار جرير له وهجو تغلب وشاعرها النصراني .

ومن أروع ما يصور الهجاء السياسي الممتاز نقيضة الأخطل المشهورة :

خفَّ القطينُ فراحوا منكَ أو بكروا   وأزعجتهم نوىً في صَرْفِها غِيَرُ [١]

وهو يمزج المدح فيها بالهجاء . يرفع من قدر الأمويين ، معرضاً بأعدائهم من القيسية ، متشمِّتاً بما لحقهم من ذل وانكسار ، مباهياً بمشاركة قبيلته في إقرار الخلافة . وأين يذهب هؤلاء الحمقى من عبد الملك ، وهو أعلى الناس همة، وأقوامهم مُنَّة ، وأصبرهم على قتال :

لا يَطعَمُ النومَ إلا ريثَ يبعثُه   همٌّ الملوكِ وجَدٌّ هابه الحجر
مفترشٌ كافتراش الليث كَلْكَلَه   لوقعةٍ كائنٍ فيها له جَزَر [٢]
حتى تكونَ له بالطفِّ مَلْحَمَة   وبالثَّوِيَّةِ لم يُنبَضْ بها وَتَر [٣]
وتستبينَ لأقوامٍ ضلالتهم   ويستقيم الذي في خده صَعَر
يعلو القناطرَ يبنيهـا ويهدُمها   مُسَوَّمٌ فوقه الراياتُ والقتَر [٤]
حتى استقلَّ بأثقالِ العراقِ وقد   كانت له نِقمةٌ فيهم ومُدَّخر [٥]

---

(١) خف القوم ارتحلوا مسرعين . راحوا من الرواح وهو ضد البكور . ازعجتهم نوى أقلقتهم . غير الدهر وصروفه حوادثه .

(٢) الجزر كل شيء مباح للذبح .

(٣) الطف أرض من ضاحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين رضي الله عنه . الثوية موضع قرب الكوفة . لم ينبض بها وتر لان الجيشين ملتحمان فليس بينهم الا الضرب والطعن. وانما يترامى الجيشان بالنبل اذا كانا بعيدين قبل أن يلتحما .

(٤) مسوم معلم بعلامة يعرف بها . وكان الفرسان المشهورون يعلمون أنفسهم وقت القتال ليعرفوا من سائر الناس . القتر غبار المعركة .

(٥) نقمة فيهم ومدخر : سبقت اليهم نقمته ولا يزال يدخر لهم الوانا من النكال .

وماذا يعيبون على بني أمية أو ينقمون منهم وهم :

في نَبعةٍ من قريشٍ يَعصِبون بها   ما إنْ يُوازَى بأعلى نبتها الشَّجَرُ
علَتْ هضاباً وحَلّوا في أرُومتِها   أهلُ الرِّياءِ وأهلُ الفخرِ إنْ فخروا
حُشْدٌ على الحقِّ عيّاً فو الخنَا أُنُف   وإن أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَروا

وما الذي غرهم من بني أمية حتى ركبوا رؤوسهم، وهم أوسع الناس حيلة، وأشدهم بطشاً :

لا يستقِلُّ ذوو الأضغان حربَهم   ولا يُبيِّنُ في عيدانهم خَوَرُ
وإن تدجَّت على الآفاق مُظلِمَةٌ   كان لهم مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصَرُ[1]
شُمْسُ العداوة حتى يُستَقادَ لهم   وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَروا[2]

وهل يستحق هؤلاء المارقون الذين أنزلهم السيف على حكمه، فأعطوا عن يد وهم صاغرون، إلا الذل والهوان؟ وكيف يأمن الخليفة لزعيمهم وهو عدوه الذي استباح دم جنده وأوليائه، وإنه ليخفي في نفسه الغــل الدفين والحقد الكمين :

بني أميــة إني ناصِحٌ لـكم   فــلا يبيتَنَّ فيكم آمناً زُفَر[3]

---

(١) تدجت اظلمت . مظلمة كارثة او مصيبة . معتصر ملجأ ومعقل .

(٢) رجل شموس عسر في عداوته ، والشماس الاباء ، والفــرس الشموس الــذي يستعصي على راكبــه .

(٣) هو زفر بن الحارث الكلابي من زعماء القيسية الذين حاربوا الامويين ، وكان قـد هرب ثم امنه عبد الملك ، وهو القائل :

فقد ينبت المرعى عـلى دمـن الثرى   وتبقى حزازات النفـوس كما هيـا

واتخِذوه عدوًّا إن شاهِــدَه   وما تَغيَّبَ من أخلاقه دَعَر
إنَّ الضغينةَ تلقاها وإن قدُمت   كالعَرِّ يكمُنُ حيناً ثم ينتشر [١]

أتقرّبون منكم هــذا الرجل ، وسيفه يقطر من دماء قومي ، الذين بذلوا أنفسهم في إقرار ملككم ؟ ألم أناضل دونكم أبناء الأنصار ؟

حتى استكانوا وهم مِنّي على مضَضٍ   والقولُ ينفُذُ ما لا تنفُذُ الإبَر
وقيسَ عيلانَ حتى أقبلوا رَقَصاً   فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضَجُّوا من الحرب إذ عَضَّت غوارِبَهم   وقيسُ عيلانَ من أخلاقها الضَجَر
فلا هدى اللهُ قيساً من ضلالتهـا   ولا لَعاً لبني ذَكوانَ إذ عثروا [٢]

ويندفع الأخطل في الفخر بقومه ، ونصرهم عبد الملك ، وقتلهم عمير بن الحباب رأس سليم الذي دلاهم إلى الفتنة ، وقادهم إلى الحَيْن والهلاك . وتستثيره ذكرى الدم ومناظر القتال ، فيبلغ منه الغضب والحماس حد الوحشية والفلظة القاسية ، حين يصف جثته مطروحةً في ميدان القتال ، وقد حزَّت رأسهـا وحملت بعيداً عنها إلى الخليفة ، يقدّمها له حاملُها معرّفاً بصاحبها ، وقــد صُمَّت منها الآذان ، وخرس اللسان ، ومزق السيف خيشومهـا . وتمر رأس ابن الحُباب وهي في الطريق إلى عبد الملك بذلك الحي من (غَسّان) ، الذين كان يستخف بهم عُمَيْر ويصفهم بأنهم رعاة ، فينظرون لرأسه ساخرين ويقولون : كيف رأيتَ بَلاءَ الرعاة؟ وهذا هو الحَـرث بن أبي عوف لعبت به السيوف حتى تركته جَزَرَ العقبان والحِدَأ ، تحوم حول جثته ، وتتنازع لحمه :

---

(١) العر الجرب ، يقول ان الحقد يظل كامنا في النفس كالجرب يسكن فيظن انه قد انصرف ولكنه لا يلبث ان ينتشر .

(٢) لا لعا يعنى لا ارتفعوا ، يقال لا لعا لفلان اي لا أقامه الله .

وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنين بنا   لما أتاك ببطنِ الغُوطة الخَبَرُ
يعرِّفونك رأسَ ابنِ الحُبابِ وقد   أضحى وللسيفِ في خَيْشُومِه أثر
لا يسمع الصوتَ مُسْتَكّاً مسامعُه   وليس ينطقُ حتى ينطقَ الحجر
أمسَتْ إلى جانب الحَشّاكِ جيفتُه   ورأسُه دونه اليَحْمُوم والصُّوَر [1]
يسأله الصُّبْرُ من غسّانَ إذ حضروا   والحَزْنُ كيف قَرَاكَ الغِلمةُ الجَشَر [2]
والحرثُ بن أبي عوفٍ لعِبْنَ به   حتى تَعَاوَرَه العِقْبانُ والسُّبَر [3]

انظر إلى ما يشتمل عليه هذا الهجاء من غضب وحشي ينزع من قلبه كل رحمة ، وإلى ما يخوض فيه من تفصيل تقشعر منه الأبدان ، وإلى هذه الألفاظ القاسية التي يستعملها في وصف جثته حين يسميها (جيفة) وأنفه حين يسميه (خيشوماً) .

هذه الغلظة القاسية هي طابع الأخطل الذي تتّسم به كل أهاجيه ، وهذه الألفاظ البدوية الخشنة ، بما فيها من ضخامة تصك الأسماع ، هي أنسب الأثواب لهذه الغلظة البالغة . لم يكن الأخطل متهكماً ساخراً كجرير ، ولم يوهب هذ

---

(١) الحشاك واد بأرض الجزيرة بين دجله والفرات كانت فيه وقعة بين قيس وتغلب وفي هذه الواقعة قتل عمير بن الحباب من زعماء قيس . واليحموم موضع بالشام والصور قرية على شاطىء الخابور .

(٢) الصبر والحزن حيان من غسان . الجشر الرعاة الذين يبعدون بابلهم عن العمران. كانَّ عمير يسخر من بني تغلب ويقولِ (انما هم جشر) والاخطل يسخر به هنا ويقول انهم قد حملوا رأسه لهؤلاء الاقوام من بني غسان فسألوه متهكمين : كيف رأيت قرى هؤلاء الغلمان من الرعاة ؟ وانما قروه الموت .

(٣) الحارث بن أبي عوف من رجال بني عامر بن صعصعة (من قيس عيلان) . السبر طائر شبيه بالصقر . تعاورة العقبان والسبر تداولته .

الذكاءَ الذي يلهم النكتة البارعة ، والصورة التي تستفز للضحك ، فهو غاضب دائماً حين يهجو ، يذهب الغضب بكل ما في مزاجه من دعابة . وقد تجد في هجائه كثيراً من الصور القوية ، ولكنها صور كالحة دائماً يغشيهــا عبوس مظلم واجم . فهو رجل غليظ قاس لا تعرف الرقة إلى قلبه سبيلاً. ولم يكن من محض الصدفة والاتفاق أن يخلو ديوان هذا الشاعر الكبير من الرثاء ، فالواقع أن هذا الرجـل لم يكن يستطيـع الحزن ، ولم تكن مصيبة إنسان مهما عظمت لتحرك قلبه أو تثير عطفه ، بل لقد كانت المناظر المثيرة للحزن ، لا تثير في نفسه إلا الوحشية الفظة ، والثورة الهائجة .

كان الأخطل ، كما تقدم ، لسان الأمويين الذي يعبر عن ميولهم واتجاهاتهم في مدائحه وفي أهاجيه على السواء . فهو يثني على ولاتهم المعروفين بالشدة التي تتجاوز حدود العدالة ، مبرراً مسلكهم ، مؤيداً سياستهم، وكأنه بذلك يجيب على ما يوجه إليهم من نقد، وما يرمون به من ظلم واستبداد. فهو يخاطب عبدالملك مؤيداً الحجاج فيما ينتهج من عنف صارم، يؤدب به هؤلاء المنافقين من أهل العراق، الذين عرفوا بميلهم عن الدولة وبغضهم لهـــا . فهو ضابط للخراج ، مظفر في الحروب ، لا يزال يسوق إلى الخليفة السبايا والغنائم ، ضارب على أيدي العابثين بالقانون من الخوارج :

فعليك بالحجاج لا تعدِلْ به	أحداً إذا نزلَتْ عليك أمور
ولقد علمتَ وأنتَ أعلمُنا به	أن ابنَ يوسفَ حازمٌ منصور
وأخو الصفاء فما تزالُ غنيمةٌ	منه يجيء بهـــا إليكَ بَشير
وترى الرواسمَ يختلِفنَ وفوقها	ورقُ العِراق سبائكٌ وحرير [1]

---

(١) الرواسم الابل . الورق الفضة . وبنات فارس مالهن مهور لانهن سبايا . يعلونهن يعلـون الابـــل .

وبناتُ فارسَ كلَّ يومٍ تُصطفَى يعلونَهنَّ وما لهن مُهورُ

...ولقد علمتَ بلاءه في مَعْشَرٍ تغلي شَناةُ صدورِهم وتفورُ

والقوم زَأْرُهُمُ وأعلى صوتهم تحتَ السيوفِ غَماغِمٌ وهريرُ[1]

طلبوا الأزارقَ بالكتائب إذ هوت

بشَبيبَ غائلةُ النفوسِ غَدورُ[2]

يرجو البقيةَ بعدَما حَدَقتْ به فُرُطُ المنيةِ يَحْصِبٌ وحَجُورُ[3]

فأباح جمعَهُمُ حميداً وانثنى وله لوَقْعَةِ آخرين زئيرُ

ويمدح الأخطل عَبَّاد بن زياد وأخاه مسلم بن زياد فينسبهما لأبي سفيان ، توكيداً لما فعل معاوية من إلحاق زياد ، وإقراراً له في الأذهان والآذان . وكان الناس لا يكادون يقولون إلا (زياد بن أبيه) أو (زياد بن سُمَيَّة) . يقول في مدح عَبَّاد :

إليكَ أبا حَرْبٍ تدافَعْنَ بعدما وصلن لشمسٍ مَطلعاً بغروبِ

ثم يكرر ذلك بعد أبيات :

ولولا أبو حَربٍ وفضلُ نواله علينا أتانا دهرُنا بخطوبِ

---

(١) الزئير : صوت الأسد شبه به أصوات المحاربين . الغمغمة : الكلام الخفي . يقول اقصى ما ترتفع به حناجر المحاربين ان يغمغموا لشدة انشغالهم بالقتال ولجفاف حلوقهم . هر الكلب هريرا صات دون النباح .

(٢) الازارقة من فرق الخوارج ومن اشدها تطرفا . شبيب من زعمائهم كانت له حروب كثيرة مع الحجاج حتى مات غرقا عند جسر دجيل سنة ٧٧ .

(٣) يحصب وحجور من قبائل اليمن ، الأولى من حمير والاخرى من همدان . فرط المنية ما سبق اليه منها .

ويقول في أخيه مُسلِم بن زياد :

نفسي فداءُ أبي حربٍ غداةَ غدا ... مخالطُ الجنِّ أو مستوحشٌ فَرِقُ

وكان أكثر ما عني الأخطل بتقريره حق الأمويين في الخلافة . فهو يؤكد في كل موضع من شعره أن الله اختارهم للخلافة ، فهم أصلح الناس لها . يقول في عبد الملك ، من قصيدة مدحه بها :

وقد جعل الله الخلافةَ فيكم ... لأبيضَ لا عاري الخِوانِ ولا جَدْبُ[1]

..أهلُّوا من الشهرِ الحرَامِ فأصبحوا ... مواليَ مُلكٍ لا طريفٍ ولا غصبِ

ولم ترَ عيني مثلَ يومٍ رأيتُه ... أتاك بلا طعنِ الرماح ولا الضربِ

ولكن رآك الله موضع حقّه ... على رغم أعداءٍ وصَدّادةٍ كُذْبِ

ويقول في مدح بِشْر بن مروان :

أنتم خيارُ قريش عند نسبتهم ... وأهلُ بطحائها الأثرونَ والفرَعِ

أعطاكم اللهُ ما أنتم أحقُّ به ... إذا الملوكُ على أمثاله اقترعوا

وهو يؤكد فضلهم على الناس ، بما لهم من حسب عريق في الجاهلية ، وبخلافة عثمان في الإسلام . فملكهم ثابت بحسبهم وقديم فضلهم (ليس بطريف ولا غصب) وليس أعداؤهم من بني الزبير وأنصارهم القيسية إلا خُرّاباً وقطاع طرق ، عاقبهم الله على بغيهم بيد الأمويين :

---

(١) هذا البيت من سقطات الأخطل التي لامه فيها قدماء النقاد فقالوا (لو مدح بهذا البيت حرسيا لعبد الملك ماانصفه) فقليل جدا على الخليفة ان يوصف خوانه بأنه ليس عاريا ولا جدبا .

فالله لم يَرْضَ عن آل الزبير ولا ... عن قيس عَيْلانَ حيًّا طالما خَرَبوا [1]

يُعاظِمون أبا العـاصي وهم نَفَرٌ ... في هامةٍ من قريشٍ دونها شَذَبُ [2]

بيضٌ مصاليتُ أبناءُ الملوك فلن ... يُدرِكِ ما قدَّموا عُجمٌ ولا عَربُ

كانوا مواليَ حقٍّ يَطلُبون بـه ... فادركوه وما مَلُّوا ولا لغَبُوا

إن يك للحقّ أسبابٌ يُمَدُّ بها ... ففي أكفهمُ الأرسانُ والسبَـبُ

هُمُ سعوا بابن عفانَ الإمامِ وهُمْ ... بعدَ الشِّماسِ مرَوْها ثمت احتلبوا [3]

حرباً أصاب بني العوَّامِ جانبُها ... بُعْـداً لمن أكلته النار والحطب

حتى تناهَتْ إلى مصرٍ جماجمُهم ... تعدو بها البُرْدُ منصوباً بها الخشب [4]

وهو يؤكد هذا المعنى في مواضع أخر حين يقول من قصيدة يمدح بهـا عبدالله بن معاوية :

قوم إذا بَسَطَ الإلهُ ربيعهم ... دارَتْ رحاه بِمُسْبِلٍ درَّارِ

وإذا أُريدَ بهم عقوبةُ فاجرٍ ... مطرت صواعقُهم عليه بنارِ

---

(1) الخارب السارق وقاطع الطريق .

(2) الشـذب : ما يقطع مما تفرق من اغصان الشجرة ، واحدتها شذبة (بفتحتين)

(3) سعوا بابن عفان أي سعوا لادراك ثاره . مروها ثمت احتلبوا . شبه الحرب بناقة صعبة الخلق تمتنع على الحالب في اول الامر . والمري مسح الضرع ليدر . يشبه مذليلهم الحرب بالحالب الصناع الذي يمسح ضرع الناقة النافرة حتى تلين له وتسمح باللبن .

(4) لما قتل مصعب بن الزبير بعث عبد الملك برأسه الى اخيه عبد العزيز بن مروان بمصر . البرد مخفف برد (بضمتين) جمع بريد .

ثم يقول :

لما تُبُحْثِت الضغائن بينهم   أفضى وسار بِجَحْفَل ٍ جرّار

وأهلّ إذ غَنَظَ العدوُّ بقيلق   تحت الأشاء عريضة الآثار [1]

حتى رأوه بجنب مَسْكَنَ مُعْلَماً   والخيلُ جاذيةٌ على الأقتار [2]

ولقد تناولت العُقُورَ بضربةٍ   وبني أبي بكر ذوي الأصهار [3]

ورجالُ عبدالقيس تحت نُحورِها   كانوا لها جَزراً من الأجزار

وعلى خزاعةَ والسَّكون تعطفت   وأصابهم ظُفُرٌ من الأظفار [4]

والخيلُ تمشقُ عنهمُ أسلابهم   في كل معترَك وكلٌّ مُغَارِ [5]

حتى إذا علم الإله نكاله   وتصاغرُوا للحرب أيَّ صَغار

حقن الدماء وردَّ ألفتهم لهم   وجزاهُمُ بالعُرف والإنكار

ويقول في مدح بِشْر بن مروان :

إمامٌ يقود الخيلَ حتى كأنها   صُدورُ القَنا معوَّجها وقويمها

---

(١) غنظ (كنصر وضرب) اشرف على الهلكة ، وغنظه الامر جهده . الأشاء النخل شبه القنا بها .

(٢) الجاذي الثابت القائم . الاقتار اطراف الحوافر . مسكن موضع على نهر دجيل قريب من دير الجاثليق كانت به وقعة بين عبد الملك ومصعب .

(٣) العقور قبائل من تغلب وبنو أبي بكر هم أبو بكر بن كلاب . الاصهار القرابة .

(٤) عبد القيس قبائل من ربيعة . وخزاعة والسكون من قبائل اليمن : خزاعة من الازد والسكون من كندة .

(٥) مشق ثوبه شقه ومزقه . المغار الاغارة .

إلى الحربِ حتى تخضَعَ الحربُ بعدما
تخمَّطُ مَرحاها وتَحْمَى قرومُها[1]

...بكم أدرك اللهُ البرية بعدما سعى لصُّها فيها وَهبَّ غَشومُها

وفكرة الأخطل هنا بسيطة قريبة . فالقوي الغالب هو صاحب الحق دائماً، لأن الله لا ينصر الظالمين ، ولا يعين المفسدين . وليست الحروب إلا محنة واختباراً ، يُظهر الله خلالها صاحب الحق ، ويعاقب الظالمين بيديه . وهو بهذا متأثر بالفكرة الجاهلية التي قررناها ، من أن القوة وحدها هي الفضيلة ، وأن كل ما نالته يد القوي فهو حق له . وقد كان الأمويون أنفسهم يحبون أن يمدحوا على هذا النحو الذي يصورهم أقوياء ، ولم يكونوا يرون بأساً في أن يقول عنهم الشعراء إنهم أخذوا الملك بالسيف . وكان الشعراء يجرون في ذلك على ما يحب الأمويون ، حتى جاء الأخطل فاستحدث فكرة هذا الحق الإلهي، ولكنه ألبسها ثوباً جاهلياً . روى صاحب الأغاني أن عبد الملك أُنشِد قول كثير فيه :

فما تركوها عَنوةً عن مودَّةٍ ولكن بِحَدِّ المَشْرَفيِّ استقالها

فأُعجب به . فقال له الأخطل : ما قلته لك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه . قال : وما قلت ؟ قال قلت :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا مَوالِيَ مُلكٍ لا طريفٍ ولا غصب

جعلته لك حقاً وجعلك أخذته غصباً . قال : صدقت .

والواقع أن الأخطل كان بدوياً يعيش على هـــذه المثل الجاهلية ولا يرى

---

(1) تخمط : تهيج وتهدر ، أصلها تتخمط حذفت احدى التاءين للتخفيف . المرحى الحرب ، اسم مكان من رحى الرحى يرحيها رحيا اذا أدارها . القروم جمع قرم (بفتح فسكون) وهو السيد . تحمى تغضب .

غيرها ، نجد ذلك واضحاً في حياته وتفكيره وفي فنه على السواء . فهو رجل لا يؤمن إلا بالقوة . وقارىء شعره في الفخر لا يراه إلا جاهلياً ممعناً في الجاهلية . يقول :

نصبنا لكم رأساً فلم تكلموا به ... ونحن ضربنا رأسكم فتصدَّعا

ونحن قسمنا الأرض نصفين: نصفُها ... لنا و نُرامي أن تكون لنا معا

بتسعين ألفاً تأْلَهُ العينُ وسطه ... متى تره عينا الطُرامة تَدْمَعا[1]

إذا ما أكلنا الأرضَ رعْياً تطلَّعت ... بنا الخيلُ حتى تستبيحَ الْمُمَنَّعا

وهو لا يرى في الجود فضيلة الإيثار والعطف على البائس المحروم ، ولكنه يراه مظهراً من مظاهر القوة ، لأن الكريم يجود مما اجتمع له من السبي والمغانم بقوته :

إليك أميرَ المؤمنين رَحلْتُها ... على الطائر الميمون والمنزل الرَّحب[2]

إلى مؤمنٍ تجلو صحيفةُ وجهه ... بَلابِلَ تغشى من هموم ٍ ومن كَرْب[3]

مناخُ ذوي الحاجاتِ يستمطرونه ... عطاء كريم من أساري ومن نَهْبِ[4]

ترى الحلَقَ الماذيَّ تجري فُضُولهُ ... على مستخفٍ بالنوائبِ والحرب[5]

---

(١) تأله تحار . ابن الطرامة شاعر من كلب اسمه حسان بن الطرامة .

(٢) على الطائر الميمون أي على الحظ المبارك .

(٣) يقول ان كل كرب يزول ، وكل ضائقة تفرج بوجهه وبركته ويمنه .

(٤) النهب الغنيمة اي انه يعطى مما يغنم في الحروب .

(٥) الحلق يعني به حلق الدروع . الماذي الدرع اللينة . فضوله ما فضل منه وزاد . أي ان الدرع سابغة تغطي سائر الجسد .

وهو يذهب في اللذة مذهب الجاهليين ، الذين يرون الهجوم عليها واغتصابها أليق بالفتى وبالجريء الفاتك :

بانَ الشبابُ وربما علَّلته بالغانيات وبالشرابِ الأصهَب[1]
ولقد شربتُ الخمر في حانوتها ولعبتُ بالقَيْنات كلَّ المَلْعب
ولقد أوكِّلُ بالمدَّجج تُتَّقى بالسيفِ عُرَّتُه كعرَّة أجرب[2]

ويقول :

ألا يا اَسْلَمِي يا أمَّ بِشْرٍ على الهجر ومن عهدِكِ الماضي له قِدَمُ الدهر
ليالِيَ نلهو بالشباب الذي خلا بمُرتَجَّةِ الأردافِ طيِّبَةِ النَّشْرِ

ويقول – وهو يشبِّه النساء بالوحش النافر –

ولقد أَصِيدُ الوَحْشَ في أوطانها فيَذِلُّ بعدَ شِمَاسِه اليَعْفور[3]

ومما يصور حبه للبادية ، وكرهه للمدن وما فيها ، قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها بِشْر بن مروان :

سقى الله منه دارَ سلمى برَيَّةٍ على أن سلمى ليس يُشفى سقيمُها[4]
من العربيات البَوادي ولم تكن تُلوِّحها حُمَّى دمشقٍ ومُومُها[5]

---

(١) عللته شغلته والهيته .
(٢) المدجج الداخل في السلاح . عرته شرته ، واصل العرة الجرب او قرحته .
(٣) الشماس الاباء والامتناع . اليعفور الظبي .
(٤) رية صفة لموصوف محذوف اي بسحابة رية غزيرة الماء .
(٥) لوحته النار والسموم غيرته وسفعت وجهه . الموم مرض الجدري .

وفن الأخطل بعد ذلك مرآة صادقة لهذه البداوة في صوره وتشبيهاته . وفي أسلوبه وألفاظه . فهو يشبّه النساء بابل قد أوعثها السير في أرض سهلة ، تغيب أقدامها في رمالها :

يمشين مَشْيَ الجمالِ الأُدْمِ يُوعِثها   أعرافُ دَكْداكةٍ مُنهالةِ الكُثُب [١]

ويشبه مشيهن في موضع آخر ، بمشي الإبل البيض ، يهدر الفحل وراءهن فيتبخترن :

يمشين مَشْيَ الهجانِ الأُدْمِ رَوَّحها   عندالأصيلِ هديرُ المُصْعَبِ القَطِمِ [٢]

ويشبه دنان الخمر بإبل جربي قد طليت قطراناً :

ولقد تباكرني على لذاتها   صهباءُ عارية القذى خُرطوم [٣]
من عاتق حَدِبَتْ عليه دِنانه   وكأنها جَرْبَى بهنَّ عَصيم [٤]

ويشبه هدير الخمر في الدّنان بهدير الجمال :

---

(١) الهجان الابل الكرام . يوعثها يجعلها تمشي في الوعث وهو المكان السهل تغيب فيه الاقدام . أعراف الرمل والجبل ظهره وأعاليه . الدكداك اللين من الارض ، والكثب جمع كثيب وهو التل من الرمل سمي بذلك لانه انكثب اي اجتمع في مكان واحد .

(٢) الادم من الابل البيض . المصعب الفحل الصعب . القطم الهائج ، شبه مشيهن بذلك لان الجمل اذا هدر عليهن تبخترن .

(٣) الصهباء الخمر وذلك للونها ، والصهبة حمرة في سواد عارية القذى ظاهر قذاها لصفائها. الخرطوم ما سال من الخمر قبل ان يعصر وهو اجود. وفي رواية اخرى (عالية القذى) اي انها لصفائها يبدو القذى حين يكون في قعرها كانه في سطحها .

(٤) العاتق الخالص اللون ، عتق الشيء والخمرُ (كنصر) كرم وحسن فهو عاتق وعتيق . العصيم القطران . الدنّ وعاء كبير من فخار تخزن فيه الخمر ويطلى بالقطران لتسد مسامه .

عَزّ الشرابُ فاقبلَتْ مشروبةً هدر الدّنانُ بها هديرَ الأفحُل

ويشبّه القِلال الصغار بجانب الدن الكبير ، بصغار الإبل حول الفحل ، تتمسح به وتشمه بين رجليه :

وترى القِلالَ بجانبيه كأنها قُلُصٌ يسفْن فروجَ قَرْمٍ مُرسَل[١]

ويشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفاً فهي قوية شديدة ، بناقة لبِسوا لها جِلد حُوار ، فهي إذا نظرته من بعيد حسبته ابنها ، فإذا دنت منه فشمته أنكرته :

كأني كَرَرْتُ الكأس ساعة كرّها على ناشِصٍ شمّت حُواراً ملبّسا[٢]

ويشبه رجلاً من بكر اسمه الحُراق ، في غيظه وشدة غضبه ، بالفحل الذي حُبِس عن ضراب الإبل فهو يحرق نابه ويهدر لاوياً رأسه :

وظل الحُراقُ وهو يَحْرِقُ نابَه بها قد رأى من قوةٍ وعَتَاد[٣]
هديرَ المُعَنَّى ألقحَ الشَّوْلَ غيرُه فظل يُلوّي رأسه بقتاد[٤]

---

(١) القلال آنية الفخار الصغيرة . قلص جمع قلوص وهي الناقة الفتية ـ القرم الفحل .

(٢) الناشص الناقة التي يؤخذ فصيلها فتمنع اللبن ولا تسمح به ، فيحشون لها جلد حوار بالتبن أو القطن ويوضع بجانبها لتسمح باللبن ، فاذا شمته بأنفها عرفت أنه ليس ابنها . والشاعر هنا يشبه نفسه حين يشرب الخمرصرفا فيقطب جبينه للذعها وشدة حرارتها بهذه الناقة حين تشم جلد الحوار المحشو فتلوي راسها نافرة .

(٣) حرق نابه (من باب نصر وضرب) سحقه حتى يسمع له صريف .

(٤) الشول جمع شائل وهي الناقة التي تشول بذنبها اي ترفعه طلبا للقاح . المعنى (على البناء للمجهول) الفحل المحبوس عن ضراب الابل . بقتاد يعني وقد شد الى قتاد . وهو شجر صلب ذو شوك .

ويشبه القيسية ، فيما ذاقوا من نكال الحرب بالذي حمل على ناقة عجوز ، قد تساقط عنها وبرها وبرزت عظامها :

صُكُّوا على شارِف صعب مراكبها   حصَّاء ليس لها هُلْبٌ ولا وبر[1]

ويشبه الحقد بالجرب الذي يزول عن ظاهر الجلد ولكنه يكمن تحته وينتشر بعد حين :

إن الضغينةَ تلقاها وإن قَدُمَتْ   كالعَرِّ يكمِنُ حيناً ثم ينتشر

فلو أن جَمَلاً نطق فقال شعراً ما اجتمع له من التشبيهات والصور أكثر مما اجتمع للأخطل في شعره من ذكر الإبل .

والأخطل بعد هذا يتخذ مُثُله الفنية من فحول الجاهليين ؛ فينشىء بعض قصائده على نهجهم مثل قصيدته :

بانت سعادُ ففي العينين مُلْمُول   من حبها وصحيحُ الجسم مخبول[2]

فهو يعارض بها قصيدة كعب بن زهير المشهورة في مدح النبي ﷺ ، ويتأثر فيها ببعض ألفاظ الأعشى في مطولته (ودع هريرة) . يقول فيها :

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضُها   كأنها أحورُ العينين مكحول

وهو مأخوذ من بيت الأعشى :

---

(١) صكوا على شارف اي حملوا على خطة صعبة ، شبهها بالناقة الشارف وهي الكبيرة المسنة . الحصاء التي لا وبر لها . الهلب شعر الذنب .

(٢) الملمول (بضم الميم) المكحال الذي يكتحل به . اراد انه مكتحل بالسهر .

غرّاء فرعاء مصقولٌ عوارضُها
تمشي الُهوَيْنَى كما يمشي الوَجِي الوَحِل[1]

وهو في قصيدته :

ألم تعرض فتسأل آل لهو وأروَى والُمدِلَّة والرَّبابا

متأثر بقصيدة الأعشى :

عرفتَ اليومَ من تيًّا مَقَاما بجوٍّ أو عرفتَ لها خِياما

في مثل قوله:

وقد قالَتْ مُدِلَّةُ إن قلَتْني أراكَ كبِرتَ والصدغَيْن شابا
فإن يك رَيِّقي قد بان مِنّي فقد أُروِي به الرَّسَلَ اللهابا

فهو مأخوذ من قول الأعشى:

وقد قالت قتيلةُ إذ رأتني وقـد لا تَعدَمُ الحسناءُ ذاما
أَراكَ كبرتَ واستحدثتَ خُلْقاً وودعتَ الكواعبَ والمداما
فإنْ تك لِمَّتي يا قَتْلُ أضحت كأنّ على مَفارِقهـا ثَغاما

---

(1) غراء بيضاء . فرعاء طويلة الفرع وهو الشعر . العوارض الاسنان . الوجي الذي يشتكي حافره فيكون مشيه متثاقلا . الوحل الذي يمشي في الوحل . وهو تشبيه خشن لانه يشبه صاحبته المتمهلة في سيرها بدابة تشكو حافرها وتمشي في الوحل .

وأقصَرَ باطلي وصحوتُ حتى كأن لم أجرِ في دَدَنٍ غلاما[1]

فإن دوائرَ الأيامِ يُفْنِي تتابعُ وقعِها الذَّكَرَ الحساما

وهو يعتمد كذلك في قصيدة (عفا واسط) على كثير من صور الأعشى . ثم هو بعد ذلك يكثر من وصف الناقة والصحراء في مدائحه ، ويسلك في ذلك مسلك الجاهليين ، الذين يشبّهونها بحمار الوحش أو الثور ، وينصرفون عن الناقة إلى هذا الثور ، أو ذاك الحمار ، ليصوروا نشاطه في الصحراء ، وما يلقى من عنت الصائد ، وقسوة الريح والمطر . وينتهون آخر الأمر إلى القول بأن ناقتهم تشبه هذا الموصوف ، في نشاطها وقدرتها على تخطي العقبات ، وفيما نالها من إعياء بسبب الرحلة إلى الممدوح . هذه الصورة تتكرر في الشعر الجاهلي، ويتداولها الشعراء على نحو متشابه ، بتفاصيلها وأجزائها ، ليس فيها تحوير أو تغيير . وكذلك هي في شعر الأخطل بأجزائها ودقائقها [2] .

وتأثره بالأعشى في الخمر خاصة مشهور لا يحتاج إلى التنبيه عليه . ويكفي أن أقدم له مثلين أو ثلاثة :

الأعشى : تحسِبُ الزِّقَّ لديها مُسنَداً حبشياً نام عمْداً فانبطح

الأخطل: أناخوا فجروا شاصِياتٍ كأنها رجالٌ من السودان لم يتسربلوا[3]

---

(١) الددن اللهو واللعب . أقصر باطلي ارعويت عن عبث الشباب حين كبرت .

(٢) راجع في تشبيهها بثور الوحش الديوان ص ١١٢،٨٦ ، ١٣٨، ٢٢٠ ، ٢٦٠ وفي تشبيهها بحمار الوحش ص ١٤٨،٦٠،١٤، ٢٣٥ ، ٢٥٢ .

(٣) الزق جلد (قربة) يحفظ فيه الماء والخمر يتخذ في الاسفار خاصة . يشبه الاعشى الزق في اسوداده برجل حبشي قد رقد على الارض عاريا . ويشبهه الاخطل برجل عار من السودان . الشاصية هي الزق .

الأعشى: مِن خمرِ عانة قد أتى لِختَامِها   حولٌ تسُلُّ غمامةَ المزكوم

الأخطل: وإذا تعاورت الأكُفُّ زجاجَها   نفحَتْ فشم رياحَها المزكوم[1]

الأعشى: لا يستفيقون منها وهي راهنةٌ   إلا بِهَاتِ وإنْ عَلُّوا وإنْ نَهَلُوا

الأخطل: فما لَبَّثَتْنَا نشوةٌ لَحِقَتْ بنا   توابعُها مما نُعَلُّ ونُنْهَلُ[2]

. . . .

لم يدم للأخطل هذا النفوذ في بلاط الأمويين. فقد كثرت حوله الوشايات في أواخر أيام عبد الملك، وأخذ النصارى يفقدون ما كانوا يستمتعون به من حرية، فتزعزعت منزلته، وتقلص سلطانه، حتى أصبح يلجأ إلى الوليد ولي العهد، يطلب إليه التوسط فيما ناب قومه من غرامات ثقيلة وضرائب فادحة لا يطيقونها:

وحاجِلةِ العيون طوى قُواها   شهابُ الصيف والسفرُ الشديد[3]

طلبن ابن الإمام فتى قريش   بخِمْصَ وخِمْصُ غائرةٌ بعيد

غناك إلى الرياءِ فحولُ صدقٍ   وَجدٌّ قصَّرَتْ عنه الجدود[4]

---

(١) تسل غمامة المزكوم، وشم رياحها المزكوم هو تصوير لقوة رائحة الخمر التي تقتحم انف المزكوم، وحاسة الشم تكون عنده ضعيفة.

(٢) يقول الاعشى انهم يوالون الشراب ولا يتوقفون عنه الا ريثما يقول أحدهم للساقي «هات!» ويقول الاخطل ان نشوة الكأس السابق لا تلبث ان تسلمهم الى اللاحق. لكثرة ما يشربون المرة بعد المرة. العلل الشربة الثانية. والنهل الشربة الاولى.

(٣) حاجلة العيون غائرتها.

(٤) الرياء يقصد به هنا فعل الخير. نماه نصه ورفعه. فحول صدق يقصد بهم اجداده.

وزندُك من زناد واريات ٍ إذا لم يُحمَد الزندُ الصَلُود
وإنّا معشرٌ نابَتْ علينا غراماتٌ ومضلِعَةٌ كَؤود
وعضٌّ الدهرِ والأيامِ حتى تغيَّر بعدَك الشَّعَر الجديد

بدأ نجم عدي بن الرقاع في الصعود ، حتى أصبح الشاعر المقدم عند الوليد بن عبد الملك . وانكمش الأخطل على خوف ووجل ، مهدَّداً لا يطمع إلا في السلامة والعافية ، لا يكاد يقدم على الخليفة ، إلا في هذه المواسم التي يجتمع فيها الشعراء لمدحه كل عام ، يؤكد ولاءه للأمويين ، ويعدد سابق فضلهم عليه ، معتذراً عن بعده بما يخاف من وشاية الواشين ، التي كادت – لولا فضل الوليد – تودي به ، وتورده موارد الهلكة :

بني أمية قد أجدَتْ فواصلُكم منكم جيادي ومنكم قبلَها نَعَمي
فهي إذا ذُكِرَتْ عندي وإن قدُمَتْ يوماً كخط كتاب الكفِّ بالقلم
فإن حلفتُ لقد أصبحتُ شاكرَها لا أحلفُ اليومَ من هاتا على أثِمِ [١]
لولا بلاؤكم في غير واحدةٍ إذاً لقمتُ مقامَ الخائف الرَّزِمِ [٢]
أسمعتكم يوم أدْعو في مُودَّاةٍ لولاكم شاع لحمي عندها ودمي [٣]
لولا تناوُلكم إياي ما عَلِقَتْ كفي بأرجائها القصوى ولا قدمي
وقد علمتم وإن أصبحتُ نائيَكم نصحي قديماً وفعلي غيرَ متَّهَم
لقد خشيتُ وُشاةَ الناس عندكم ولا صحيحَ على الأعداء والكَلِم

---

(١) الاثم (مثل طرب وفرح) الكاذب . يقول لا أحلف كاذبا .
(٢) الرزم المنقطع الذليل قليل الرهط .
(٣) المودَاة (كمعظمة) الهلكة والمفازة وحفرة الميت .

ويقول من قصيدة أخرى يمدح فيها الوليد :

وقد علمَتْ أميةُ أن ضِغْني إليها والعُداةُ لهـا هرير

وأني ما حييتُ على هواها وأني بالمغيبِ لهـا نَصُور

وما يبقى على الأيـام إلا بناتُ الدهْرِ والكَلِمُ العَقُور[1]

فمَنْ يك قاطعاً قَرَناً فإني لفضلِ بني أبي العاصي شَكُور

ثم يقول :

ومظلِمَةٍ تضيق بها ذراعي ويتركني بها الحدِب النصور

كفَوْنيهـا ولم يَتوَاكَلوها بخُلْقٍ لا ألَفٌ ولا عَثُور[2]

ولولا أنتم كَرِهَت مَعَدٌّ عِضَاضي حين لاح بي القتير[3]

ولكني أهـاب وأرتجيكم ويأتيني عن الأسد الزئير

ويقول من قصيدة أخرى يشير فيها إلى إنقاذ الوليد إياه من هذه المحنة التي كادت تودي بحياته :

إن الوليد أمـينَ الله أنقذني وكان حصناً إلى مَنْجاته هربي

أتيتُه وهمومي غيرُ نائمـةٍ أخا الحِذَار طَريدَ القتلِ والهرب

---

(1) الكلم العقور يعني شعر الهجاء الذي يجرح المهجو . بنات الدهر مصائبه .

(2) الالف الضيق الخلق العيي بالامور . العثور الكثير السقوط . تواكلوها وكلها بعضهم لبعض .

(3) القتير الشيب ، وأصله رؤوس مسامير الدرع .

فما مَنَ النفسَ ما تخشى ومَوَّلها   قَدْمَ المواهبِ من أنوائه الرُغب[1]

وثبّتَ الوَطْء مني عند مُضْلِعَةٍ   حتى تخطّيتُها مسترخياً لَبِبي[2]

ويعش هذه النهاية الحزنة ، تطوى حياة هذا الشاعر الكبير ، الذي أفنى عمره ، وبذل شعره ، في تثبيت ملك الأمويين ، والدفاع عن سياستهم ، وهجاء أعدائهم ، فحلق في سماء الشهرة حتى بلغ أقصى ما يطمع فيه شاعر من نفوذ ، ثم هبط من حالق ، فمات في السنوات الأولى من خلافة الوليد مجفواً خاملاً ، يشكو متذللاً ، بعد أن كان يهدر بالفخر مزهواً فخوراً .

---

(١) قدم له من المال (كنصر) وقثم له اذا اعطاه واكثر . النوء المطر استعارة للعطاء يقال طلب نوءه اي عطاءه . الرغب الكثيرة الواسعة .

(٢) اللبب ما يشد في صدر الدابة او الناقة، يكون للرحل والسرج يمنعها من التاخر. مسترخيا لببي يقصد به ثابتا جناني مطمئنا .

الهجاء الشخصي

هذا الفن الذي عرفناه ضئيلا قليل الخطر في العصر الجاهلي، قد نضج وتقدم في القرن الأول ، حتى أصبح من أظهر فنون الشعر وأجلها خطراً. وكان العراق بنوع خاص موطناً لهذا الفن ، فلا نكاد نعرف شاعراً من شعرائه لم يأخذ منه بنصيب . وما أكثر ما يجد قارىء الأغاني هذه العبارة في تراجم شعراء العراق في هذا القرن (وكان هجاء خبيث اللسان) يقول في عيينة بن مرداس الملقب بابن فسوة : هجاء خبيث اللسان بذيء ، كان فاحشاً كثير الشر وكان لا يزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه [1] . ويقول في الوليد بن حنيفة الملقب بابن حزابة : شاعر بدوي حضر وسكن البصرة ، وكان شاعراً راجزاً فصيحاً خبيث اللسان هجاء [2].ويقول في عبد الله بن الزبير الأسدي : شاعر كوفي المنشأ والمولد وهو أحد الهجائين للناس المرهوب شرهم [3] . ويقول في الحكم بن عبدل : شاعر مجيد مقدم في طبقته هجاء خبيث اللسان ، ومنزله ومنشأه الكوفة [4] . وأمثال هؤلاء الشعراء كثير لا نحب أن نطيل باستقصائهم وتتبعهم .

وكان الأشراف والوجهاء أكثر الناس تعرضاً لشر الشعراء ، الذين اصطنعوا أسلوب الحطيئة في التكسب بالهجاء . فقد وجدوا أن أكثر الناس لا ينتفع بهم

---

(١) الاغاني ١٩ : ١٤٣ — (٢) الاغاني ١٩ : ١٥٢

(٣) الاغاني ١٣ : ٣٣ — (٤) الاغاني ٢ : ٤٠٤

إلا على الرهبة ، ولا يبالون الشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخافوا شره. ووجدوا أن الذين يتقونهم على عرضهم ، أكثر من الذين يرغبون إليهم في تشريفهم بمدحهم. فهم إذا هجوا رجلاً ففضحوه ، خاف غيره مثل فعلهم به ، فاتقاهم بالمال والعطاء. وهذا هو المهلب ، يعنف ابنه حين تعرض لبعض هؤلاء الهجائين خوفاً من شره. أكل المغيرة بن حبناء يوماً مع المفضّل بن المهلب فعرّض بآفتـه — وكان المغيرة أبرص — فقام مغضباً . وبلغ المهلب مـا جرى فشتم ابنه وقال : أردتَ أن يَتمضّغ هذا أعراضَنا ؟ ما حملك على أن أسمعته ما كره بعد مؤاكلتك إياه ؟ أما إن كنت تعافه فاجتنبه. ثم بعث إليه بعشرة آلاف درهم واستصفحه عن ابنه[1]. وتعرض حبيب بن المهلب لزياد الأعجم وقد شرب فعربد عليه ، وأمر بشق قباء ديباج كان عليه . فقال زياد :

لعمرُكَ ما الديباجُ خَرّقْتَ وحده ولكنما خرقت جـلد المهلب

فبعث المهلب إلى ابنه حبيب فأحضره وقال له : صدق زياد . ما خرقت إلا جلدي ، تبعث عَليّ هذا يهجوني . ثم بعث إليـه فأحضره واستل سخيمته من صدره ، وأمر له بمال وصدقة [2]. وبلغ من خوف الناس من شر هؤلاء الهجائين ، أن الحكم بن عبدل كان يكتب على عصاه ، ويبعث بها إلى الولاة والحكام ، فلا يرد طلبه ، حتى قال فيه يحيى بن نوفل :

عصَى حَكَمٍ في الدار أولُ داخل ونحن على الأبواب نقصَى ونحجَب

وكانت عصى موسى لفرعون آية وهذي لَعَمْرُ الله أدهى وأعجب

تطاع فلا تعصى ويُحذر سخطها ويُرغَب في المرضاه منها ويرهب

---

(١) الاغاني ١١ : ١٦٦

(٢) الاغاني ١٤ : ١٠٣

وقدم الفرزدق المدينة وعليها عمر بن عبد العزيز . فقيل لعمر : إن الفرزدق قد قدم فيسأل الرجل ، فإن لم يرضه هجاه ، وإن أرضاه جهد نفسه . وقومُكَ والأنصارُ مجهودون يتجملون . فبعث إليه من العقيق فأتاه — وكان به نازلاً — فأعطاه ألف درهم ، وقال إنك قدمت على قريش وقد جُهِدَتْ ، فلا تسألن أحداً [1].

ومن بين هؤلاء الهجائين المحترفين ، طبقة عرفت بالتهتك والمجون وحضور النكتة ، مثل الحكم بن عَبْدَل والأقيشر . وكانت هذه الجماعة أكثر الهجائيين رهبة في صدور الناس ، لأنهم لا يتورعون عن شيء ، ولا يبالون ما يقولون . فهم يخوضون في أفحش السباب وأكثره بذاءة مفصلين في ذلك أقذع تفصيل وأقذره . وهجاؤهم مع ذلك أشبه بالنادرة الطريفة ، التي تصادف من النفس ارتياحاً وتشوفاً لسماعها ، وتعلقا بحفظها وروايتها في الأسمار . ثم هو يتميز بسهولة الألفاظ ، وخفة الأوزان ، التي تعين على ذيوعه وانتشاره. ومن هنا كانت خطورته، وشدة خوف الناس منه. أتى الحكم ابن عبدل الأسدي محمد بن حسان ابن سعد التميمي — وكان على خراج الكوفة — فكلمه في رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه ، فقال : أماتني الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً. فانصرف عنه وهجاه بقصيدة طويلة بدأها بقوله:

رأيتُ محمداً شرهاً ظلوماً   وكنت أراه ذا ورع وقصد

يقول أماتني ربي خداعاً   أمات الله حسان بن سعد

ولم يزل ابن عبدل يطيل فيها ويضيف إليها حتى مات . واشتهرت أبياتها وذاعت بين الناس ، حتى إنْ كان المكاري ليسوق بغله أو حماره فيقول: عَدّ. أمات الله حسان بن سعد . فإذا سمع ذلك أبوه قال : بل أمات الله ابني محمداً ،

---

(١) ديوان الفرزدق ٣٦٠.

فهو عرضني لهذا البلاء في ثلاثين درهماً [1]

ومما يصور روح الفحش الغالبة على شعرهم،هذه الأبيات التي هجا بها الأقيشر امرأة من العِبّاديين محتالة اسمها أم حنين . فقد قصد يوماً إلى بيت الخمار الذي كان يأتيه فلم يصادفه ، فجعل ينتظره . فزعمت له امرأة من العباديين اسمها أم حنين أنها زوج الخمار، فأخذت منه درهمين فهربت بهما. فراح يهجوها أفحش هجاء وأقذره . وكان مما قال فيها :

عاهدَتْ زوجَها وقد قال إني ... سوف أغدو لحاجتي ولِدَيْني

فدعت كالحصان أبيض جَلْداً ... وافر الـ... مرسَلَ الخصيتين

قال ما أجرُ ذا هُديتِ فقالت ... سوف أعطيك أجره مرتين

فابدأ الآن بالسفاح فلما ... سافحتْه أرَضتْه بالآخرين

تلّها للجبين ثم امتطاها ... عالم الـ... أفحجُ الحالبَيْن

بينما ذاك منها وهي تحوي ... ظهرَه بالبنان والمعصمين

جاءها زوجها وقد شام فيها ... ذا انتصابٍ موثّقَ الأخدعين

فتأسّى وقال ويلٌ طويل ... لحنين من عار أم حُنَيْن

فجاء حنين الخمار فقال: يا هذا ما أردتَ بهجائي وهجاء أمي؟ قال: أخذت مني درهمين ولم تعطني شيئاً. قال – والله ما تعرفك أمي ولا أخذت منك شيئاً فانظر أمي فإن كانت هي صاحبتك غرمتُ لك الدرهمين . قال : لا والله

(1) الاغاني ٢ : ١٣)

ما أعرف غير أم حنين . ما قالت لي إلا ذلك ولا أهجو إلا أم حنين وابنها فإن كانت أمك فإياها أعني . وإن كانت أم حنين أخرى فإياها أعني . قال: إذاً لا يفرق الناس بينهما . قال : فما عليّ إذاً ؟ أترى درهميّ يضيعان ؟ فقال له : هلم إذاً أغرمْهما لك وأقم ما تحتاج إليه ، ولا بارك الله لك [1].

هذا الفحش الذي يمنع اليوم من إذاعة مثل هذا الشعر وتداوله ، هو نفسه الذي كان يدعو في تلك الأيام إلى ذيوعه وتناقله ، فقد كان ملائماً لأذواق البدو من الأعراب ، التي يضحكها ذلك التفصيل الخشن اللفظ ، الذي يسمي الأشياء بأسمائها ولا يكتفي بالتلميح .

ومما يصور الدعابة الغالبة على هجائهم، هذه الأبيات التي يقولها ابن عَبْدَل في امرأة من هَمْدان تزوجها ثم كره صحبتها . وهي شبيهة بأبيات الأقيشر السابقة في أم حنين . فكلاهما يذهب في هجائه مذهب القصة ، ويسوقه في صورة حوار .

أعاذلَتيَّ من لومٍ دعاني	أقِلاَّ اللومَ إن لم تعذراني
فإني قد دُلِلتُ على عجوز	مبرقعة مخضبة البنان
تغضَّنَ جلدُها واخضر إلا	إذا ما ضُرِّجت بالزعفران
فلما أن دخلت وحادثتني	أظلتني بيومِ أرنوَان [2]
تحدثني عن الأزمان حتى	سمعتُ نداءَ حُرٍّ بالأذان
فقالت قد نكحتُ اثنين شتى	فلما صاحباني طلَّقاني

(١) الاغاني ١١ : ٢٦١

(٢) ارنوان صعب .

وأربعةً نكحتُهم فماتوا — فليتَ عَريفَ حَيٍّ قد نعاني

وقالت ما تِلادُك قلت مالي — حمارٌ ظالعٌ ومَزَاداتان

وبُوريٌّ وأربعةٌ زُيوفٌ — وثوباً مُفْلِسٍ متخرقـان [1]

وقطعـةُ جُلَّةٍ لا تَمْرَ فيها — ودَنَّا عُومـةٍ متقابـلان [2]

فقالت قد رضيتُ فَسَمِّ ألفاً — ليسمعَ ما تقولُ الشاهدان

ومالكِ عندنا ألفٌ عتيد — ولا تسعٌ تُعَدُّ ولا ثمان

ولا سبعٌ ولا ستٌ ولكن — لكم عندي الطويلُ من الهوان [3]

وقد كانت دعابتهم هذه من أثقل الأشياء على الولاة والأشراف ، وأكثرها إزعاجاً لهم . ولى الشرطة رجل أعرج ، ثم ولى الإمارة آخر أعرج وخرج ابن عبدل – وكان أعرج – فلقي سائلاً أعرج ، وقد تعرض للأمير يسأله . فقال :

ألقِ العصا ودع التَّخامُعَ والتمس — عملاً فهٰذي دولةُ العُرْجان

لأميرنا وأمـير شرطتنا معاً — يا قومنـا لكليهما رِجْلان

فإذا يكون أمـيرُنا ووزيرُنا — وأنا فإن الرابـع الشيطـان

فبعث الأمير إليه بمائتي درهم وسأله أن يكف عنه .

وقد نشأ على يد هذه الطائفة من مجان الهجائين نوع من الهجاء القصير اللاذع الذي لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة . وهو هجاء خفيف الروح ، سهل الألفاظ ،

---

(١) البوري الحصير المنسوج من القصب . اربعة زيوف يقصد اربعة دراهم زائفة .

(٢) الجلة القفة الكبيرة تتخذ للتمر . العومة (بضم العين) دويبة تسبح في الماء . ولعله يقصد انه لا يملك غير دنين ليس فيهما الا ماء آسن تسبح فيها الديدان .

(٣) الاغاني ٢ : ٤١٩

يعتمد على الصورة الهزلية المضحكة ، كان قصره أوكدَ لذيوعــــه وخطورته ، وثقل وقعه على المهجو . قيل للفرزدق : ما اختيارك للقصار ؟ قال : لأني رأيتها أثبت في الصدور ، وفي المحافـــل أجْوَل . وقيل للحطيئة : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها في الآذان أولج ، وفي أفواه الناس أعلق .
وهـــذا النوع من الهجاء القصير ، شبيه بما كان يعرف عند اليونان واللاتين بالـ (epigram) .

خطب رجل من تميم امرأة من بني أسد، ولم يزل يسأل عن حسبها وأمهاتها، حتى سأل الأقيشر . فقال فيه :

حضرموت فتّشَت أحسابَنـــا	وإلينـــا حضرموت تنتسب
أخوة القرد وهم أعمامـــه	برئت منكم إلى الله العرب

وتولى الكوفة رجل من تميم ، فانكسر المنبر من تحته ، فقال :

أبني تميم مـــا لمنبر مُلْكِكم	مـا يستقر قَرَارُه يتمرمر
إن المنابر أنكرت أستاهكم	فادعوا خُزَيْمــة يستقر المنبر

وكان لابن عبدل جارية سوداء ، وكان يميل إليها فولدت له ابناً أسود ، فقال فيه :

يا رُبَّ خالٍ لك مسودِّ القفا	لا يشتكي من رجله مسَّ الحفا
كأن عينيه إذا تشوّفـــا	عينا غرابٍ فوق نِيقٍ أشرفا

وخطب امرأة يقال لها أم رباح فلم تتزوجه ، ففضحها بقوله :

---

(١) الاغاني ٢ : ٣٣ .

ولا خير في الفتيان بعد ابن عبدل ... ولا في الزواني بعد أم رياح

فـ... بحمد الله ماض مجرَّب ... وأم رياح عرضة لنكاحي

فتحاماها الناس ، فما تزوجت حتى أسنَّت .

ودخل ابن عبدل على عمر بن يزيد الأسدي وهو يأكل بطيخاً –وكان بخيلاً– فسلم فلم يرد عليه السلام ، ولم يدعه إلى الطعام ، فقال فيه :

في عمر بن يزيـــد خَلَّتا دَنسٍ ... بخل وجـبن ولولا (...) سادا

جئناه يأكل بطيخاً على طبق ... فـما دعانا أبو حفص ولا كادا .

ويقول الفرزدق في هجاء رجل يتهمه بالبخل اسمه عقبة بن جبّار :

لو أن قِدْراً بكت من طول ما حُبِسَت
عن الحُفُوف بَكَتْ قِدْرُ ابن جبَّار [1]

ما مسَّها دَسَمٌ مذ فُضَّ معدنُها
ولا رأتْ بعد عهد القَيْنِ من نار [2]

وبرز في هذا العصر لون آخر من ألوان الهجاء الشخصي عرف بالنقائض [3]

---

(1) الحفوف قلة الدسم

(2) القين الحداد

(3) روى ابن اسحق في السيرة كثيرا من النقائض . وقد حذف منها ابن هشام شيئا كثيرا عندما نقح السيرة . وعلق على كثير منها بأنه غير صحيح النسبة لقائله . وذكر ابن هشام في مقدمته ان ابن اسحق لم يكن له علم بالشعر . ولذلك ضربنا صفحا عن كل ما جاء في السيرة من نقائض .

وتبادل فيه شعراء ذلك القرن السباب ، على نحو لم يعرف من قبل . وكان محورَ هذا الفن ومداره شعراءُ العصر الثلاثة المقدمون : جرير والفرزدق والأخطل . ودخل بينهم عدد كبير من الشعراء ، أحصى منهم صاحب الأغاني تسعة عشر شاعراً معروفاً من عصرهم ، في معرض قصة ساقهـا في لقاء جرير للحجاج ، وسؤاله إياه عن خبر الشعراء الذين هجاهم[1]. وانشغل الناس بأمرهم والتحزب لهم ، والسؤال عما أحدثوا من هجاء ، وما أجـاب به كل منهم ، ينقض هجاء خصمه ويرد عليه ، حتى لقد اختلف الناس في عسكر المهلب وهم يقاتلون الخوارج على أيهم أشعر ، فسألوا فيه بعض جند الخوارج الأزارقة ، حين أبى المهلب أن يقول فيهم شيئاً خوفاً من شرهم[2] . وكان الفرزدق وجرير يأتيان القبائل في مساجدهم فينشدانهم من شعرهما . وكان أحدهما إذا سمع أن خصمه قد أتى قبيلة في مسجدها فأنشدها من شعره أسرع للانشاد في المسجد نفسه . وربما تعصبت القبيلة لصاحبه فمنعته الإنشاد ، كما فعل بنو الهُجَيم ، حين أذنوا للفرزدق أن ينشد في مسجدهم ، ومنعوا جريراً أن يفعل مثله حين علم بخبره[3]. وصار الهجاء جُلَّ هم هؤلاء الشعراء ، حتى كان أحدهم يمدح الخليفة من الخلفاء ، أو الوالي من الولاة ، فلا يخلو مدحـه من هجاء خصمه والتعريض به ، وحتى أضاف جرير إلى قصيدته المشهورة في رثاء زوجته (لولا الحياء لهاجني استعبار) هجاءَ صاحبيه الفرزدق والأخطل. ولم يسلم من الانشغال بأمرهم وتتبع نقائضهم الخلفاء والأمراء . بعث بشر بن مروان برسول إلى جرير ، يسأله أن يجيب عن شعر سُراقة البارقي ، الذي يفضل فيه الفرزدق ، فلم يبرح الرسول حتى أخذ قصيدة جرير ، فقرئت في العراق ، وأُفحِم سُراقة فلم ينطق بعدها بشيء من مناقضاته[4] .

وكان إقبال الناس على شعرهم ، واهتمامهم بهجائهم . داعية لإغـراء معظم

---

(1) الاغاني ٨ : ١٥
(2) الاغاني ٨ : ٤٢
(3) الاغاني ٨ : ٥٢
(4) الاغاني ٨ : ٦٨

شعراء عصرهم أن ينهجوا نهجهم. فجوّاس بن قُطنة يهاجي جميل بن مَعْمَر[١]. وتميم بن أُبيّ بن مُقبِل يهاجي النجاشي . والنجاشي يهاجي عبد الرحمن بن حسان بن ثابت[٢]. وعبد الرحمن بن حسان يهاجي عبد الرحمن بن الحَكَم[٣]. وشَبيب بن البرْصاء يهاجي عَقِيل بن عُلَّفَة[٤] . وأبو جِلْدة يهاجي زياداً الأعجم[٥] . وزياد الأعجم يهاجي المُغيرة بن حَبْناء[٦] . والمُغيرة بن حَبْناء يهاجي أخاه صخر بن حَبْناء[٧]. وصخر الغَيّ يهاجي أبا المثلَّم[٨]. وأبو النجم يراجز العَجّاج[٩] .

اشتعل العراق بالهجاء وبالمناقضات حتى تجاوزته إلى الأقطار الأخرى ، فكان جرير والفرزدق يلهبان هذا الفن وينشطانه حيناً ذهبا ، حتى لقد قدم الوليد المدينة وبها جرير وعمر بن لَجَأ يتهاجيان ، فأمر بهما فضربا وأقيما على البَلَس[١٠] . وكان جلدهما بسبب قصيدة جرير التي يبدأها بقوله :

يا تيم تيم عدي لا أبا لكم لا يوقعنكم في سَوْءةٍ عمر

وكان أفحش ما قاله جرير فيها :

تقول والعَبدُ مِسْكينٌ يُجَرِّرُها أرفُقْ فديتُكَ أنت الناكح الذكر

ولم تكن العداوة وحدها هي الدافع إلى الهجاء والمناقضة في كل الأحيان . فقد كان جزء كبير من هذه المناقضات يعتمد على المهارة الفنية ، ويهدف إلى

(١) الاغاني ١٩ : ١١٢ (٢) ابن سلام ٥٦
(٣) الاغاني ١١ : ١٥٠ (٤) الاغاني ١١ : ٩٣
(٥) الشعر والشعراء ٢ : ٧١١ (الحلبي مصر ١٣٦٩) (٦) الاغاني ١١ : ١٦٢
(٧) الاغاني ١١ : ١٦٨ (٨) الأغاني ٢٠ : ٢٩٨
(٩) الاغاني ٢٠ : ٢٠ (١٠) الشعر والشعراء ٢٣٣
(١٠) البلس غرائر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به ، وينادي عليه .

السبق والتفوق من الناحية الشعرية الخالصة . وقد كان الفرزدق وجرير على ما بينهما من خصومات مريرة ، يتبادلان فيها أشنع الهجاء وأفحش السباب، يلتقيان عند الأمراء والخلفاء ، ويترافقان في الرحلة ، فلا يكون بينهما إلا ما يكون بين الصديقين . وربما خرجا مرتدفين على ناقة واحدة ، كما يحدثنا ابن خلكان ، في بعض رحلاتهما إلى هشام بن عبد الملك، وهو يومئذ بالرصافة [1] بل لقد شفع جرير في الفرزدق عند هشام ، حين كتب إلى خالد القَسْرِيّ عامله في العراق ، يأمره بحبسه لتعريضه به في قوله :

يُقَلِّبُ عيناً لم تكن لخليفة مشوَّهةً حَوْلاء بادٍ عيوبها

دخل جرير يومذاك على هشام فقال : يا أمير المؤمنين إنك تريد أن تبسط يدك على بادي مضر وحاضرها . فأطلق لها شاعرها وسيدها الفرزدق . فقال له هشام : أوَما يسرك أن أخزاه الله ؟ قال : ما أريد أن يخزيه الله إلا على يديّ. فأمر هشام بإطلاقه [2] . وتبادل جرير والأخطل الهجاء وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، حتى التقيا عند عبدالملك بن مروان [3] . ولقي ابن مَيّادة ابن هَرْمة فقال له : والله لقد كنت أحب أن ألقاك ، لا بد أن نتهاجى ، وقد فعل ذلك الناس قبلنا [4] . فالتهاجي والتناقض هنا مباراة أدبية ، وليس ناجماً عن عداوة ولا هو موجباً لها ، إلا بمقدار ما يكون بين متنافسين على السَّبْق . وربما استطعنا أن نتصوره إذا قرناه بما نعرف في الأندية الشعبية من تباري رجلين في النكتة بما يعبر عنه المصريون(بالدخول في آفية).وتزدادهذه الحقيقةوضوحاً كلما أمعن القارىء في دراسة شعر النقائض . فالشعراء يكثرون من الفخر بقوة شعرهم ، وبتفوقهم الفني الذي لا يجارَى ، وبشدة وقع شعرهم على أعدائهم وخصومهم ، وما يتاح لهذا الشعر من ذيوع يذهب به إلى أقاصي الأرض .

---

(١) ابن خلكان ٣ : ١٥١ . ط. محمد فريد رفاعي (٢) العقد الفريد ٦ : ١٧٣ .
(٣) الاغاني ٧ : ٦٩ (٤) الاغاني ٤ : ٣٦٩

يقول جرير في هجاء النُّمَيري :

أعـــد الله للشعراء مني ... صواعق يخضعون لها الرقابا
أنا البازي المطل على نُمَير ... أُتِحْتُ من السماء لها انصبابا
إذا علقت مخالبُه بقِرْنٍ ... أصاب القلب أو هتك الحجابا

ويقول :

رجوتم يابني وَقَبــانَ موتي ... وأرجو أن تطول لكم حيـــاتي
إذا اجتمعوا عليَّ فخَلِّ عنهم ... وعن بازٍ يصُكُّ حُبَارياتِ

ويقول للبَعيث :

وعاوٍ عوى من غير شيء رميتُه ... بقافية أَنفَاذُهــا تقطر الدما
وإني لقوّالٌ لكلّ غريبـــة ... وَرُودٍ إذا الساري بليـــل ترنما
خَروجٍ بأفواه الرواة كأنهــا ... قَرَى هِنْدُواني إذا هُزَّ صمما

ويقول للفرزدق :

إن القصائد قد جَدَعْنَ مجاشعاً ... بالسم يُلحَمُ نَسْجُها ويُنـــار
ولقوا عَوَاصِيَ قد عَيِيتَ بنقضها ... ولقد نُقِضْتَ فما بك استمرار
قـد كان قومك يحسبونك شاعراً ... حتى غرقت وضمك التيّـــار

ويقول الفرزدق لجرير :

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم ... وأوابدي بتنحل الأشعـــار

ويقول له :

إن كان قد أعياك نقضُ قصائدي فانظر جريرُ إذا تَلاقَى المَجْمَعُ

ويقول معيراً إياه ضعف شعره زاعماً أنه سباب ليس من الفن في شيء :

أتطلب يا حمارَ بني كُلَيب بعانتك اللَّهَامِيم الرِغابا
وتعدل دارماً ببني كليب وتعدل بالمُفَقِّئة السِبابا

ويقول :

غلبتُك بالمفقِيء والمعنَّى وبيت المُحْتَبِي والخافقات

وهو يقصد بذلك قصائده التي يقول في إحداها :

ولستَ وإن فقأتَ عينك واجداً أباً عن كليب أو أباً مثل نَهْشَل

ويقول في أخرى :

وإنك إذ تسعى لتدرك دارما لأنت المُعَنَّى يا جريرُ المكلَّف

ويقول في ثالثة :

بيتاً زرارةُ مُحْتَبٍ بفِنائه ومجاشعٌ وأبو الفوارس نَهْشَل

ويقول في رابعة :

وأين تُقَضَّى المالكان أمورَها بحقٍّ وأين الخافقاتُ اللوامع [1]

---

(١) المالكان هما : مالك بن زيد بن تميم ، ومالك بن حنظلة بن مالك بن زيد بن تميم

ويبدو من هذا البيت أن الفرزدق كان يسمي قصائده ، كما يبدو ذلك أيضاً من بيته في نقيضته المشهورة (إن الذي سمك السماء) حيث يسميها الفيصل :

إن التي فُقئت بها أبصاركم　　وهي التي دمغت أباك الفَيْصَلُ

وكان جرير والفرزدق يتواقفان بالمِرْبَد ، وينشد كل منهما نقيضته بإزاء صاحبه [1] .

وربما أوحت الظروف والموقف لأحدهما بشعر مرتجل لم يكن قد فكر فيه من قبل ، كما نعرف من نقيضة جرير :

أقلي اللوم عاذل والعتابا　　وقولي إنْ أصبتُ لقد أصابا

وما كان من تغطية الفرزدق لرأسه ، حين بلغ جرير قوله (ترى بَرَصاً بأسفل إسْكَتَيْها) ، متوقعاً أن الشطر الآخر من البيت لا بد أن يصيبه . فلم يلبث جرير أن قال : (كَعَنْفَقَةِ الفرزدق حين شابا) .

وكان الشعراء المتناقضون يتربص بعضهم ببعض ، فلا يكاد أحدهم يصيب من صاحبه سقطة ، حتى يسجلها عليه ، ويشنع بها مبالغاً في تصويرها . يشكو الأخطل من إيقاع الجحاف بقومه حين يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبِشْر وقعةً　　الى الله منها المشتَكَى والمعوَّل

فيقول له جرير :

بكى دَوْبَلٌ لا يُرقِىء الله دمعَه　　ألا انما يبكي من الذل دوبل

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ٢ : ٢٧

ويفحش الفرزدق في بعض شعره وهو مقيم بالحجاز، فينفيه عمر بن عبدالعزيز والي الحجاز وقتذاك ، فيقول جرير :

نفاكَ الأَغرُّ ابنُ عبدِ العزيز   وحقُّكَ تُنفَى من المسجد

ويهب بعض السادة جارية لجرير ، فتملّ عيشة الخشن، ويقول فيها جرير:

تكلفني معيشةَ آل زيد   ومن لي بالمرقّق والصِناب [1]

وقالت: لا تضمُّ كضم زيد   وما ضمي وليس معي شبابي !

فلا يلبث الفرزدق أن يعيره بقوله :

فإن تفرُكْكَ عِلجَةُ آل زيد   ويعوِزْكَ المرقّق والصِناب [2]

فقِدماً كان عيش أبيك مرّاً   يعيش بما تعيش به الكلاب

وكانت مهارة الهجاء تتركز في أدراكه لوجـه النقص البارز في خصمه ، وقدرته على الافتنان والتصرف في استخراج مختلف الصور وألوان الدعابـة الساخرة منه . فهجاء جرير للأخطل يدور في معظمه حول نصرانيته . فكل صوره من الخمر والصليب والجزية المفروضة على أهل الذمة .

يقول له :

قبح الإله مَن الصليبُ إلٰهُـه   واللابسين برانس الرهبان

والتابعين جُرَيْجسا وبُنَيَّه   والتاركين مساجدَ الرحمٰن

---

(١) المرقق نوع من الفطائر . الصناب لون من الطعام يتخذ من الخردل والزبيب .
(٢) فركت المرأة زوجها (من باب نصر وطرب) كرهته . العلج من ليس عربيا .

والذابحين إذا تقارب فِصْحُهم   شُهْبَ الجلود خسيسةَ الأثمان

من كل ساجي الطرف أعصلَ نابُه   في كل قائمـــة له ظِلْفان

تغشى ملائكةُ الإله قبورَنا   والتغلبيُّ جنازةُ الشيطان

يُعطي كتابَ حسابه بشماله   وكتابُنا باكفنا الأيمـان

ويقول له :

الضـاربون على النصارى جزية   وهدى لمن تبع الكتاب ونورا

إنّا نُسَـوِّدُ في الحياة حياتنـا   ويسود من دخل القبور قبورا

الله فضلنا وأخزى تغلبــا   لن تستطيع لما قضى تغييرا

البـاعثين برغم آنُفِ تغلب   في كل منزلة عليـــك أميرا

أفبالصليب ومار سرجس تَتَّقي   شهباء ذات كتائبٍ جمهورا [1]

أمُّ الأخيطل بالرحوب إذا انتشت   عَلِقَتْ بشِقْشِقة العِجان هديرا

لَقِحَتْ لأشهب في الكُناسة داجِناً   خِنزيرةٌ فتوالدا خنزيرا [2]

وَلَدَ الأخيطلَ أمُّه مخمورةً   قبحاً لذلك شارباً مخمورا

ويقول له :

---

(١) مار سرجس قديس نصراني كانت تغلب تتخذه شعارا لها في الحروب . كتيبة شهباء بيضاء لكثرة ما عليها من حديد . جمهور مجتمعة متماسكة .

(٢) يتهمها بانها قد اتت بالاخطل من خنزير لا من ابيه . اشهب في الكناسة داجنا يعني خنزيرا .

رُوَيْدَكُمْ مسحَ الصليب إذا دنا   هلالُ الجزَى واستعجلوا بالدراهم[1]

وهجاء جرير للفرزدق يدور حول ما يزعم من أن أجداده كانوا يحترفون الحدادة . فكل صوره من النار والحديد والشرر والدخان والكير وأدوات الحدادة والرقيق الذين يتخذونهم لهذه الصناعة وما يتهم به نساءهم من ميل لهؤلاء العبيد :

فانفخ بكيرِكَ يا فرزدق إنني   في باذخٍ لمحـــل بيتك عالي

يا رُبَّ معضِلةٍ دفعنا بعد ما   عَيَّ القُيونُ بحيلة المحتال

مابالُ أمك إذ تَسَرْبَلُ درعَها   ومن الحديد مُفاضةٌ سِرْبالي

حَمَّمتَ وجهك فوق كيرك قائماً   وسقيت أمك فضلةَ الجِرْيال[2]

فانفخ بكيرك يافرزدق وانتظر   في كَرْنَباءَ هديةَ القُفَّال[3]

ويقول :

حدراء أنكرت القيون وريحهم   والحرُّ يمنع ضيمَه الإنكارُ

لما رأت صدأ الحديد بجلده   فاللون أَوْرَقُ والبنانِ قصار

قال الفرزدق : رقعي أكيارنا   قالت: وكيف ترقِّعُ الأكيار

رقِّع متاعَكَ إن جدي خالدٌ   والقيْنُ جدُّك لم تلدك نزار

---

(١) الجزى جمع جزية وهي الضرائب التي كان يؤديها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) للدولـــــة .

(٢) الجريـال الخمـر .

(٣) كرنباء قرية من قرى الاهواز.القفال العائدون، من قفل (كنصر وضرب) فهوقافل.رجع

ويقول :

فدِينُك يافرزدق دِينُ لَيْلَى ... تزور القَيْنَ حجًّا واعتمارا[1]

فظل القين بعد نكاح ليلى ... يُطيِّرُ عن سِبَالِكُمُ الشَّرارا[2]

وهجاء الفرزدق لجرير يدور حول فقرهم واصطناعهم الحمر في تنقلهم وهو دليل الذلة ، لأن السادة يركبون الخيل والإبل. وهو يتمادى في ذلك إلى أغرب ألوان الخيال وأفحشه ، فيتصور رجالهم وقد هجروا مضاجعهم إلى الأتُن ، ويتخيل ما يكون من غيرة نسائهم من هذه الأتن التي تنافسهن على أزواجهن .

يقول له :

يا ابن المراغه كيف تطلب دارما ... وأبوك بين حمـارة وحمار

هلا غداةَ حَبَسْتُمُ أعياركم ... بجدود والخَيْلان في إعصار[3]

والحوفزانُ مسوَّمٌ أفراسَه ... والمحصَناتُ حواسرُ الأبصار

يدعون زيد مناة إذ ولَّيتُمُ ... لا يتَّقين على قفاً بخُمار

قبح الإله بني كليب إنهم ... لا يغدرون ولا يفون لجار[4]

---

(١) ليلى ام الفرزدق . يتهمها بالعبيد الذين كان يتخذهم جد الفرزدق للحدادة. ويقول له انـك تشبهها .

(٢) السبال شعر الشاربين واللحية .

(٣) جدود يوم كان بين الحوفزان (وهو من بكر بن وائل) وبين بني يربوع (قوم جرير) . وحديثه مفصل في النقائض ج ٢ ص ٣٢ ـ ٣٥ .

(٤) اي انهم لضعفهم لا يستطيعون الغدر . وهم في الوقت نفسه لا يفون ، لان عدم غدرهم ناشىء عن الضعف وليس عما طبعوا عليه من الوفاء .

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم   وتنام أعينهم عن الأوتار [1]

تلقى فوارسنا إذا ربّقتم   مُتلبّبين لكل يومٍ عوارِ [2]

ويقول له :

لعمري لقد قالت أمامةُ إذ رأت   جريراً بذات الرقمتين تشنّعا [3]

أمُكتفِل بالرّقم إذ أنت واقف   أتانكَ أم ماذا تريد لتصنعا [4]

رأيتُك تغشى كاذَتيها ولم تكن   لتركب إلا ذا السُّحوج الموقّعا

دعيتْ يا عبيد بن الحرام ألا ترى   مكان الذي أخزى أباك وجدّعا

أأعيا عليك الناسُ حتى جعلتَ لي   خليلا يعاديني وآتنه معا

وهجاء المغيرة بن حبناء لزياد الأعجم يدور حـول فارسيته ، فهو علج مستضعَف مجهول النسَب ألكَن لا يقيم لهجته . وليس بناته إلا ولائد لم يجر عليهن مُوسَى في ختان [5]

---

(١) يعجب لهم كيف يوقظهم نهاق الحمير ، ثم لا يوقظهم دم قتلاهم الذي يصرخ طلبا للثار . الاوتار جمع وتر (بكسر فسكون) وهو الثار .

(٢) الربق (بكسر الراء) حبل فيه عدة عرى يشد به البهم . فكل عروة ربقة . وربـق (بالتشديد) جعل الراس في الربقة . يقول ان قوم جرير رعاة لا يصلحـون للقتال . العوار (بفتح العين) العيب . اي لكل يوم قتال يكشف عن عيوب المقاتلين ويفضح كل جبان .

(٣) امامة زوجة جرير . ذات الرقمتين اتانه . والرقمتان ما اكتنف دبـر الحمـار من جانبيه . لتشنع هم بامر شنيع قبيح .

(٤) أكتفل الدابة ركب كفلها وهو مؤخرها ، الكاذتان اعلى الفخذين . ذو السحوج الموقع الاتان يريد آثار الدبر في ظهورها .

(٥) الاغاني ١١ : ١٦٦

ويقول له :

أزيادُ إنك والذي أنا عبـــده ... ما دون آدم من أبٍ لك يُعلَم

فالحق بارضك يا زياد ولا ترم ... ما لا تُطيق وأنت عِلجٌ أعجم

أظننتَ لؤمك يا زياد يسده ... قوس ستزتَ به قفاك وأسهم

عِلجٌ تعصب ثم راق بقوسه ... والعلجُ تعرفَــه إذا يتَعَمّم"(١)"

ألق العصابـــة يا زياد فإنما ... أخزاك ربي إذ غدوتَ تَرَنَّمُ

واعلَمْ بانك لستَ مني ناجياً ... إلا وأنت ببَظْر أمك مُلْجَم

تهجو الكرام وأنت ألأم من مشى ... حَسَباً وأنت العِلج حين تَكَلَّمُ

ولقـــد سالتْ بني نزار كلّهم ... والعالِمين من الكهول فاقسموا

بالله ما لك في معـــدٍ كلّها ... حسبٌ وأنك يا زياد موَذَّمُ

ويقول له :

فأصبحت علجاً من يُزُرك ومن يزُرْ ... بنـــاتك يعلم أنهن ولائد

وأصبحن قُلْفاً يفتزلن باجرة ... حواليك لم تَجْرَحْ بهن الحدائد

نفرن من المُوسَى وأقررْنَ بالتي ... يُقِرُّ عليها المُقرِفاتُ الكواسد

بإصطخر لم يلبَسْنَ من طول فاقة ... جديداً ولا تُلْقى لهن الوسائد

---

(١) راق عليه يروق روقا (بفتح الراء) زاد عليه فضلا . اي انه حين تعصب وحمل القوس ظن انه قد راق اي زاد على الناس فضلا .

وما أنت بالمنسوب في آل عامر ولا ولدَتْك المحصَناتُ المواجد

ولا ربَّبتْكَ الحنظلية إذ غذت بنيها ولا جِيبَتْ عليك القلائد

ولكن غذاك المشركون وزاحمت قفاك وخديك البظور العوارد

ولم أرَ مثلي يا زياد بعِرْضه وعِرضك يستَبَّان والسيفُ شاهد

ولو أنني غَشَّيْتُك السيف لم يُقَلْ إذا متَّ إلا مات عِلجٌ معاهد

كان الجانب الأكبر من نقائض جرير والفرزدق منافسة أدبية كما قدمنا. ولذلك حرص الشاعر حين يجيب على نقيضة خصمه أن تكون إجابته من نفس البحر والروي ، حتى تظهر مزية السبق لأحدهما على الآخر . والظاهر أن الإجابة من نفس البحر والروي كانت قاعدة مقررة في الموازنة بين شعر الشعراء. فقد كان النقاد منذ عصر امرىء القيس ، إذا أرادوا أن يوازنوا بين شاعرين ، وازنوا بينهما في شعر متحد في الغرض وفي الوزن والقافية. وقصة علقمة الفَحْل مع امرىء القيس ، حين احتكما إلى زوجته أم جُنْدُب ، أشهر من أن نحتاج إلى ذكرها . وهي قوية الدلالة على أن هذا أصل من أصول النقد القديم . وقد أخذ شعراء النقائض في هذا القرن أنفسهم بقيد جديد ، هو محاولة الإجابة على أبيات الخصم ونقضها بيتاً بيتا . ويكفي في ذلك أن نقدم مثلين من قصيدة الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطول

ونقيضة جرير :

لمن الديار كأنها لم تُحلَلِ بين الكِناس وبين طَلْح الأعزل

فأول ما نلاحظ في النقيضتين كثرة اشتراك القوافي فيهما . فنقيضة جرير تشترك في قوافي أبياتها مع ثلاثة وثلاثين بيتاً من قصيدة الفرزدق ، مع أن مجموع أبياتها ثلاثة وستون بيتاً. وجرير يتتبع في نقيضته معاني الفرزدق، فيجيب عليها بنفس الطريقة والأسلوب ، مقـــابلاً الفخر بفخر ، والصورة بصورة ، والحوار بحوار .

يقول الفرزدق .

إن الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول[1]

بيتاً بناه لنا المليك وما بَنى حَكَمُ السماء فإنه لا يُنْقَل .

بيتاً زُرارةُ مُحْتَبٍ بفِنائه ومجاشعٌ وأبو الفوارس نَهْشَل[2]

لا يحتبي بفنـــاء بيتك مثلُهم أبداً إذا عُدَّ الفَعال الأفضل

فيجيبه جرير عن البيتين الأولين بقوله :

إن الذي سمك السماء بَنى لنا بيتاً عَلاك فما له من مَنقَل

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

بيتاً يُحمِّمُ قينكم بفِنائه دَنِساً مَقاعِدُه خبيثَ المَدْخَل

---

(١) سمك السماء رفعها . السمك (بفتح السين وسكون الميم)السقف . أعز واطول يعني من بيتك .

(٢) زرارة ومجاشع ونهشل كلها من بيوت درام (ودارم من تميم) ، والفرزوق من مجاشع ثم من دارم (راجع شجرة أنساب تميم). الاحتباء أن يجلس الرجل على الأرض ثانيا ساقية وقد شدهما الى ظهره بعمامته أو نطاقه أو نجاد سيفه أو نحو ذلك ليطمئن في جلسته. والفرزدق يكنى به هنا عن السيادة والاطمئنان والحلم .

ويجيبه عن البيت الثالث في فخره بنهشل – وهم من غير قومه لأنه من مجاشع – بقوله :

أعيَتْكَ مأثُرةُ القُيُونِ بمجاشعٍ — فانظر لعلك تَدَّعِي في نَهْشَلِ

ويجيبه عن البيت الرابع الذي يشير فيه إلى احتبائهم بفناء بيتهم – يكنى بذلك عن عزهم – بقوله :

قُتِلَ الزُّبيرُ وأنت عاقِدُ حُبْوَةٍ — تَبًّا لِحُبْوَتِكَ التي لم تُحْلَلِ [1]

ويقول الفرزدق :

وإذا دعوتُ بني فُقَيمٍ جاءني — مَجْرٌ له العددُ الذي لا يُعْدَلُ

وإذا البراجمُ بالقرومِ تخاطروا — حولي بأغلبَ عِزُّه لا يُنْزَلُ [2]

فيجيبه جرير :

وامدحْ سَراةَ بني فُقَيمٍ إنهم — قتلوا أباكَ وثأرُه لم يُقتَلِ

ودَعِ البراجمَ ان شِرْبَكَ فيهمُ — مُرٌّ عواقِبُه كطعمِ الحنظلِ

(١) هو الزبير بن العوام الصحابي كان قد قصد العراق للاصلاح بين المتخاصمين مع طلحة وعائشة ام المؤمنين . وقد زعم جرير أنه كان جارا للنمر بن زمام المجاشعي فقتل في جواره . وهو يقول له : قتل جاركم وانتم مطمئنون لا تتحركون ولا تحلون الحبوة ناهضين لاغاثته .

(٢) بنو فقيم من دارم ، فهم ابناء عم مجاشع قوم الفرزدق (راجع الشجرة). مجر جيش كبير - البراجم بيوت من تميم يلتقون مع بيت الفرزدق في جدهم الأعلى (حنظلة بن زيدمناة بن تميم) – راجع شجرة الانساب . القروم جمع قرم (بفتح فسكون) وهو فحل الابل والسيد العظيم القدر .

ويقول الفرزدق :

وهب القصائدَ لي النوابغُ اذمضوا وأبو يزيد وذو القروح وجَرْوَلُ
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنــــه ومهلهِلُ الشعراء ذاك الأول[1]

فيجيبه جرير :

حَسْبُ الفرزدق أن تُسَبَّ مجاشع ويَعُدُّ شعر مُرَقَّش ومُهَلْهِل

ويقول الفرزدق :

إني ارتفعت عليك كلَّ ثَنِيَّــــة وعلوتُ فوق بني كليب من عَل[2]

فيجيبه جرير :

إني انصببت من السماء عليكُمُ حتى اختطفتك يا فرزدق من عل

ويعير الفرزدق جريراً أمه حيث يقول :

وتركتَ أمك يا جريرُ كأنها للناس باركةً طريقٌ مُعْمَل[3]

ويمضي في تفصيل الصورة ممعناً في الفحش .

---

(١) النوابغ النابغة الذبياني والنابغة الجعدي ونابغة بني شيبان - ابو يزيد هو المخبل، ذو القروح امرؤ القيس . جرول هو الحطيئة . أخو بني قيس طرفه ابن العبد . هن قتلنه يعني القوافي .

(٢) الثنيـة الطريـق .

(٣) طريق معمل مستعمل تدوسه الاقدام .

فيجيبه جرير معيراً بأخته (جِعْثِن) :

بات الفرزدق يستجير لنفسه وَمَجَرُّ جِعْثِنَ كالطريق المُعْمَل

ثم يقابل تفصيل الفرزدق في الفحش بتفصيلٍ مثلِه :

ويقول الفرزدق :

حلَلُ الملوك لباُسنا في أهلنا والسابغاتِ إلى الوغى نتسربل

أحلامُنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جنًّا إذا ما نَجهَل

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حُلل الملوك فإنكم بعد الزبير كحائضٍ لم تُغْسَل

أبلغ بَنِي وَقَبانَ أن حلومهم خفت فما يزنون حبة خردل

ويحتكم الفرزدق إلى دَغْفَل النسّابة في أنه أكرم من جرير أخوالاً حين يقول :

أوصى عشيّةَ حين فارق رهطَه عند الشهادة والصحيفة دَغْفَلُ

أن ابنَ ضبةَ كان خيراً والداً وأتمَّ في حسب الكرام وأفضل[1]

فيرد عليه جرير محتكماً إلى قريش في أن قومه أكرم :

فارجع الى حَكَمَيْ قريش إنهم أهل النبوة والكتاب المنزل

---

(١) بنو ضبة اخوة تميم وهم اخوال الفرزدق .

فاسأل إذا خرج الخدامُ وأُحمِشَتْ   حرب تَضَرَّمُ كالحريق المُشعَلِ[1]
أبنو طُهيَّة يعدلون فوارسي   وبنو خَضَافٍ وذاك ما لم يُعدَلِ

ويفخر الفرزدق بأخواله من ضبة قائلاً :

يا ابن المراغة أين خالُك إنني   خالي حُبَيْشٌ ذو الفَعال الأفضل
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم   وإليه كان حِباءُ جَفنَة يُنقَلُ[2]

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله   مثل الذليل يعوذ تحت القَرْمَلِ[3]
وافخر بضبة إن أمك منهم   ليس ابن ضبة بالمُعِمِّ المُخْوِلِ

ويفتخر الفرزدق بقومه في الدروع والسيوف حين يقول :

يمشون في حَلَق الحديد كما مشت   جُربُ الجمال بها الكَحيلُ المُشعَلُ[4]
يَحْمِي إذا اخْتُرِطَ السيوفُ نساءَنا   ضربٌ تَخِرُّ له السواعد أرْعَلُ

---

(١) الخدام الخلاخيل . خرج الخدام يعني وقت الغارة اذا فزع النساء وشمرن الثياب.

(٢) الحباء العطاء . آل جفنه هم الغساسنة ملوك الشام . وكان حبيش بن دلف خال الفرزدق قد اسر احدهم وجز ناصيته ثم أطلقه على أن يبعث اليه كل عام بحبائه من غير أن ينتقل اليه .

(٣) القرمل شجر ضعيف لا شوك له .

(٤) الكحيل القطران تطلى به الابل اذا أصيبت بالجرب . يشبه قومه لكثرة ما عليهم من الحديد بالابل المطلية بالقطران .

فيجيبه جرير بأنه إنما يحسن وصف السيوف لأنه حداد ابن حداد ، فهم يصنعون السيوف ، ولكن غيرهم يحارب بها :

تَصِفُ السيوف وغيرُكم يَعْصَى بها
يا ابن القيون وذاك فِعلُ الصَّيْقل[1]

ويشير الفرزدق إلى أتن جرير فيتهمه ويتهم أباه بها :

هلا سألت بني غُدانة ما رأوا حيث الأتانُ إلى عمودك تُرْحل
كسرت ثنيَّتك الأتانُ فشاهدٌ منها بفيكَ مبيَّنٌ مستقبَلُ
رمحتْك حين عجِلتَ قبل وِدَاقِها لكن أبوك وِداقَها لا يَعجَل[2]

فيجيبه جرير مشيراً إلى اشتغالهم بالحدادة ، ويتهم أمه بقين من قيونهم اسمه نَبْتَل :

ألْهَى أباك عن المكارم والعلى لَيُّ الكتائف وارتفاعُ المِرْجل
وَلَدَتْ قُفَيرة قد علمتم خِبثَةً بعد المشيب وبَظْرُها كالمنجل
أشرَكْتِ إذ حُمِل الفرزدقُ خبثةً حوضَ الحمار بليلةٍ من نَبتَل[3]

---

(1) الصيقل الذي يصقل السيوف .

(2) الثنية الاسنان الاربع التي في مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من اسفل . والظاهر ان اسنان جرير الامامية كانت ساقطة ، فزعم الفرزدق ان الأتان قد رمحته برجليها الخلفيتين فكسرتها . الوداق طلب الفحل .

(3) قفيرة ام الفرزدق . اشركت يخاطبها بذلك فيقول انك قد جئت بالفرزدق من غالب ابيه (حوض الحمار) ، ومن نبتل العبد . فكلاهما أبوه . وهما مشتركان فيه .

وكثيراً ما كان يبدو للشاعر أن ينقض أبياتاً من رد خصمه ، ثم يضيفهـا إلى قصيدته . فنحن نجد في قصيدة الفرزدق هذه أبياتاً يرد بهـا على نقيضة جرير التالية لها . ولا شك أن مثل هذه الأبيات قد ألحقها الفرزدق بنقيضته بعد أن سمع رد جرير . وذلك مثل قوله :

يبكي على دِمَن الديار وأمه تعلو على كَمَرِ العبيد وتَسفُل

فهو رد على ما ابتدأ به جرير قصيدته من الوقوف بالأطلال :

لمن الديار كأنهـا لم تُحلَل بين الكِناس وبين طَلْح الأعزل

ومنه قول الفرزدق :

أسألتَني عن حُبْوَتي ما بالهـا فاسأل إلى خَبَري وعمَّـا تسأل
فاللؤم يمنع منكم أن تَحتْبوا والعِزُّ يمنعُ حبوتي لا تُحلَل
والله أثبتهـا وعِزٌّ لم يزل مُقْعَنْسِاً وأبيك مـا يتحول

وهو رد على بيت جرير :

قُتِل الزبيرُ وأنت عاقِدُ حُبْوَةٍ تبًّا لحبوتك التي لم تُحلَل

وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح في قصيدة جرير المشهورة التي رثى بها زوجته :

لولا الحياءُ لهاجني استعبار ولزرت قبركِ والحبيبُ يزار

فالرثاء فيها ينتهي عند البيت الثاني والعشرين ، ثم ينتقل الشاعر إلى هجاء

الفرزدق ، حتى يبلغ بالقصيدة سبعة عشر بيتاً فوق المائة . والواقع أن جريراً رثى زوجته ، فنقض عليه الفرزدق الرثاء ، متشمتاً بمصيبته ، مهاجماً زوجته الفقيدة ، في غلظة قاسية ، لا تصدر إلا عن رجل فظ جاف كالفرزدق . ثم رد جرير على الفرزدق ، وألحق الرد بالرثاء ، فبدا رثاؤه غريباً على القارىء الذي لا يكاد يتصور أن شاعراً حزيناً منكوباً في زوجته ، يجد في نفسه الفراغ للخوض في مثل هذا الهجاء الخبيث المفحش . ودارس النقيضتين يجد ذلك واضحاً لا شك فيه . ففي نقيضة الفرزدق أبيات يتشمت فيها بمصيبة جرير ويهجو زوجته ، وهي رد على الجزء الخاص بالرثاء من قصيدة جرير . على أن الشطر الهجائي من نقيضة جرير كله رد على نقيضة الفرزدق .

يبدأ جرير مرثيته بقوله :

لولا الحياءُ لهاجني استعبار ... ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزار

ولقد نظرتُ وما تَمَتُّعُ نظرةٍ ... في اللحد حيث تَمَكَّنَ المِحْفار[1]

فجزاكِ ربُّكِ عن عشيرِكِ نظرةً ... وسقى صَداكِ مجَلْجِلٌ مِدْرار[2]

وهي أبيات تقطر حزناً ووفاء . وهي من أجمل ما قيل في الرثاء صدقاً وروعة . ولكن الفرزدق ، ذلك الشاعر الفظ ، لا يتورع عن اغتنام هذه الفرصة لهجاء جرير ، فيجيب عن هذه الأبيات بقوله :

إن الزيارةَ في الحياةِ ولا أرى ... مَيْتاً إذا دخل القبورَ يُزار

---

(١) المحفار آلة الحفر . يقول : ما فائدة نظري اليها وقد حفرت حفرتها وانزلت فيها !

(٢) الصدى جسم الميت . مجلجل له صوت شديد . يدعو الله ان يسقي قبرها بسحاب شديد الرعد لغزارته وتكاثف طبقاته .

ويمضي في الرد ، متصوراً نظرة جرير الحزينة إلى زوجته نظرة خبيثة تفيض بالإثم ، فهو لا يبكي فيها إلا شهوته :

ولقد هَمَمْتَ بسَوْأةٍ وفعلتَها في اللحد حيث تمكن المِحْفار
أفبعدما أكل الضباعُ رَجِيبَها تُذْرى الدموع أهانك القَهّارُ[1]
ورثيتَها وفضحتَها في قبرها ما مثلَ ذلك تفعل الأخيار

وجرير يقول في مرثيته :

كانت مُكرَّمةَ العشير ولم يكن يَخْشَى غوائلَ أمِ حَزْرَةَ جارُ

فيجيبه الفرزدق :

كانت مُنافقةَ الحياة وموتُها خِزيٌ علانيةً عليك وعار

وجرير يقول :

صَلَّى الملائكةُ الذين تُخُيِّروا والصالحون عليكِ والأبرارُ

فيجيبه الفرزدق :

قال الملائكةُ الذين تخيروا والمصطَفَون لدينه الأخيارُ
أبكى الإلٰهُ على نَبِيثَة من بَكَى جدَفاً ينوحُ على صداه حمار[2]

(١) الرجيب عورة المراة .
(٢) النبيثة التراب الذي يخرج من القبر اذا حفر . ولعله هنا اسم الموضع الذي دفنت فيه . الجدف كالجدث ، وهو القبر . الصدى جثة الميت .

وبعد ، فجرير يبدأ الجزء الهجائي التالي للرثاء من نقيضته بقوله :

أَفَأُمُّ حزرة يا فرزدق عبتم غَضِبَ المليكُ عليكم القهار

ويمضي في الإجابة على أبيات الفرزدق ، مقابلاً الفخر بفخر، والحوار بحوار، والصورة بصورة ، والفحش بفحش مثله . فالفرزدق يلح في نقيضته على أُتُن جرير ، ويَفتنُّ في استخراج الصور البالغة في البراعة والفحش معاً ، فيقول له: فيمَ بكاؤك على زوجتك ، ولك منها في الأتن خيرُ خَلَف ؟ فاذهب إلى أبيك يخطب لك إحداهن ... ثم ينصحه متهكماً يتخير الأبكار .

وجرير يعدل هذه الصورة ، التي يفتنُّ فيها الفرزدق في تصوير الحُمُر ، بصورة مثلها ، يفتنُّ فيهـــا في تصوير القَيْن . فليس في قبر أبيه إلا أدوات الحدادة ، كَتَيف وكلبتان ومنشار. وليس يُذكَر أبوه بخير إلا إذا تصدع مِرْجل ، أو كُسِرت قِدْر ، فقد كان خير من يصلحها . وحَدْراء ، زوجُ الفرزدق ، قد أنكرت القيون وريحهم . (والحرُّ يمنعُ ضيمَه الإنكارُ) . ويمضي في تصور ما يكون بينه وبينها من حِوار، إذ يطلب إليها ترقيع أكياره، فتجيبه غضبى بأنها لا تحسن ذلك ، فجدها خالد لم يكن حداداً . وهي غاضبة على قومها الذين زوجوها من (قينٍ أَحمَّ لفسْوِه إعصار)، فجمعوا عليهـا بين الاغتراب عن أهلها ، والذل الذي تلقاه في بيت زوجها . ثم يتهم جرير أمَّ الفرزدق وبنات الجلَوْبق – وهو لقب مجاشع – بالعبيد من قيونهم ، ويخص منهم عبداً اسمه جُبَيْر ، بادئاً ذلك بقوله :

سَبُّوا الحمارَ فسوف أهجو نسوةً للكير وسطَ بيوتهـــن أوار

ومن الخصائص الجديدة على فن الهجاء في النقائض ، هذا الأسلوب القصصي الذي ابتدعه جرير والفرزدق ، وبرعا فيه براعة ظاهرة ، لا يغض منهـا إلا

إمعانها في الفحش البذيء ، الذي تنفر منه كل نفس نظيفة الفطرة . ومع ما في هذه الواقعية العارية التي تلتقط مادتها من الوحل والأقذار من إسفاف منفر ، فهي تنطوي على ملكة شعرية خصبة في دقة التصوير ، وفي تسلسل الحوار على نحو بالغ في محاكاة الطبيعة . ونحن نكتفي في التمثيل لهذا الأسلوب بما قدمنا ففيه غناء . وما حملنا على تقديم ما قدمناه من نماذجه – على ما فيها من سخف – إلا أن ذلك هو السبيل الذي لا سبيل غيره لتصوره .

ولم يبق إلا أن نلاحظ على هذه الطبقة من المحترفين للهجاء ، ما أشرنا إليه في مقدمة هذا البحث ،من أن معظمهم قد دُفع إلى هذا الاتجاه نتيجة إحساسات مكبوتة ، أو دوافع مستترة ، هي شعور بالنقص في معظم الأحيان وشعور بالاضطهاد أو التفوق في أحيان أخرى . فالمتتبع لأخبارهم يجد أن معظمهم قد أحاط بنشأته شيء من النقص الذي يغض من قدرهم ، ويهوّن من أمرهم على الناس ، ويحقّرهم في أعينهم ، وأنهم يصطنعون الهجاء ليُكسِبهم رهبة في عيون الناس . ونحن نقدم بعض الأمثلة ؛ مما نعرف عن نشأة بعض الهجائين ، الذين جاء ذكرهم في هذا الفصل .

كان جرير من أسرة فقيرة مغمورة . وكان قميئاً [1] وُلِد لسبعة أشهر . وكان عاقاً لأبيه ، لأنه ساخط على الظروف التي جاءت به إلى الدنيا عن طريق هذا الرجل الخامل المغمور ، الذي لا يجد فيه شيئاً يستطيع أن يفخر به . حتى لقد استعار منه مرة فحلاً يُطرِقه في إبله ؛ فلما استغنى عنه ، جاءه أبوه في بَتٍّ خلَق يسترده ، فدفعه إليه قائلا : هذا (رُدَّ إلى عطية تُعْتَل) [2] وهو بذلك يشير إلى بيت الفرزدق فيه :

---

(١) القميء الضئيل الجسم .

(٢) عطية هو والد جرير .

ليس الكِرامُ بِناحِليك أبَاهُمُ   حتى تُرَدَّ إلى عَطِيَّة تُعْتَل

وكان الفرزدق بشع المنظر، فوجهه غليظ جهْم القَسَمات، لا يشبهه إلا غِلَظُ طبعه . وهو على جهامته وضخامة قسماته، منقَّر من آثار الجُدَري ومن أجل ذلك لقب بالفرزدق، وهو الرغيف الضخم . وكان مع هذا غليظاً قصيراً أصلع، كما يفهم من شعر جرير فيه، حين يسميه (القُرَيْد الأصلع) وحين يقول فيه :

لقد ولدَتْ أمُ الفرزدق فاجراً   فجاءت بوَزْوَازٍ قصيرِ القوائمِ[1]

وكان يجمع إلى كل هذا، شعوراً بالتفوق في النسب، يبلغ به حد الجنون .

وكان الأخطل نصرانياً مغموراً في بلد إسلامي . وكان في طفولته مهملاً من زوج أبيه، يذوق آلام الحرمان، ويعاني كثيراً من التضييق، الذي جعله متمرداً منذ نشأته، يلتمس السبيل للظهور بالإفحاش على الناس، حتى لُقِّب بالأخطل – والخَطَل التسرع إلى البذاءة والسفه –

وكان الأقَيْشر أحمر الوجه أقشَر. وكان أبغض الأشياء إلى نفسه أن يناديه الناس بهذا اللقب، لأنه يذكره بما يكره من نفسه، وما يحس من نقصه ودمامة منظره . وقد جعل منه هذا الشعور هجاء فكهاً، بارع النكتة والدعابة .وكان مع هذا فقيراً، يستدين ولا يبالي من أي وجه اقترض، ويمدح بدرهمين وثلاثة، وكان عِنِّيناً، لا يأتي النساء .

---

(١) الوزواز الخفيف السريع الوثب والمقارب الخطو .

وكان المغيرة بن حَبناء أبرص ، وكان من أسرة خاملة ليس فيهم إلا مبتلى بآفة عظيمة ، فأخوه صخر بن حبناء أعور ، وأخوه الآخر مجذوم ، وأبوهم مصاب بالحَبَن ، وهو داء في البطن يعظم منه ويَرِم ، وهو ما نسميه الآن مرض الاستسقاء .

وكان الحكم بن عبدل أعرج أحدب ، لا تكاد تفارقه عصاه .

وكان معظمُ الموالي الذين ظهروا في هذا العصر هجّائين ، كما سنبين في فصل نفرده لهجائهم .

هؤلاء رجال قد فشلوا في أن يحتلوا مكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، عن طريق حب الناس لهم ، واحترامهم إياهم لأشخاصهم ، فهم يحتلون هذه المكانة بالإرهاب والتهديد .

نقائض جرير والفرزدق والأخطل

نقائض جرير والفرزدق والأخطل هي أشهر ما عرف الأدب العربي في هذا الفن وأطوله . وليست هذه النقائض هجاء خالصاً ، فهي خليط من فنون الشعر التي عرفها الأدب في ذلك الحين ، فيها فخر وفيها مدح وفيها نسيب وفيها وصف للبادية ونباتها وحيوانها ، وهي في ذلك تتمشى مع ما عرف عن القصيدة العربية ، من تنقلها بين شتى الأغراض .

ولم يكن الهجاء هو الغرض الأساسي في كل القصائد التي اشتملت عليها النقائض ، فقد كان الشاعر ينشىء قصيدته في بعض الأحيان لغرض آخر غير الهجاء ، فلا يلبث خصمه أن ينقضها . والأمثلة على ذلك كثيرة، منها لامية الأخطل :

عفا واسطٌ من آلِ رَضْوَى فَنَبْتَل فمُجْتَمَعُ الحُرَّيْن فالصبرُ أجمل

فهو لم يذكر فيها جريراً ولم يعرض له . وإنما أنشأها في مدح خالد بن عبدالله بن أسيد . بدأها بالوقوف على الأطلال ، وشبّه نفسه في ذهوله بالثمل وانتهز هذه الفرصة فتخلص إلى الخمر وأطال ، ثم انتقل إلى وصف الصحراء ووحشتها وقوتها على المسافر فيها ، وما لقيت ناقته من تعب ، وما تعرض له معها من أهوال في سبيل الوصول إلى ممدوحه . فلم يصل إليه إلا وقد فرغ من نصف قصيدته غزلاً وخمراً ووصفاً . ثم صرف بقية قصيدته في الإشادة بممدوحه ، ولم يكد يخرج في ذلك عما ألف العرب في مدح السادة والقواد .

وقد كان يمكن أن تمر القصيدة بسلام من غير أن تسترعي انتباه جرير ، لولا أن الأخطل قد عرض في نهايتها لوقعة الجحّاف ببني تغلب في يوم (البِشْر) ، وعاتب بني مروان في ذلك عتاباً عنيفاً ، وحمّلهم جريرة هذا اللص الخارج على القانون ، وألزمهم ما ضاع من دماء قومه ، وكاد يصفهم بأشنع ما يوصم به عربي من انتهاك جواره ، ملوّحاً بقوة قومه بما يشبه التهديد :

فسائل بني مروان ما بالُ ذِمّةٍ — وحبلٍ ضعيف ما يزال يُوَصّل

بنزوةِ لص بعد ما مرَّ مُصْعَب — باشعث لا يُفْلَى ولا هو يُغْسَل[1]

أآمركَ الجحّافُ ثم أمرتَه — بجيرانكم وسْطَ البيوت تُقَتَّل

لقد كان للجيران ما لو دعوتُمُ — به عاقِلَ الأَرْوَى أتتكم تَنَزَّل[2]

فإن لا تغيِّرْها قريش بمُلكها — يكُنْ عن قريش مُستَمازٌ ومَرْحل[3]

ونَعْرُرْ أناساً عَرّةً يكرهونها — ونَحْيَى كراماً أو نموت فنقتل[4]

وقد نبهت هذه الأبيات الأخيرة جريراً ، فنقض عليه قصيدته ، ملشمتاً بما لقي التغلبيون على يد الجحاف وقومه ، معيراً الأخطل بكاءه ، وضعفه عن الانتصار بغير قريش ، الذين هم في حقيقة الأمر أبناء عمومة القيسية ، لأنهم مضرية :

---

(۱) باشعث يعني ابن زياد وكان مصعب قد قتله . فلما كانت وقعة دير الجاثليق احتـز عبيد الله بن زياد رأس مصعب .

(۲) العاقل التي تعتصم بأعالي الجبال . يقول كان بيننا وبينكم عهد وميثاق غليظ لـو دعيت به الاروى المعتصمة بأعالي الجبال لنزلت من معقلها .

(۳) ماز واستماز انتقل من مكان الى آخـر .

(٤) العر (بفتح العين) الجرب . عره بالشر لطخه به .

بكى دَوْبَلٌ لا يُرْقِىء اللهُ دمعَه ألا إنما يبكي من الذُّل دوبل[1]

جزعتَ ابنَ ذاتِ القَلْسِ لما تداركت من الحرب أنيابٌ عليك وكلكل[2]

فإن لا تَعَلَّقْ من قريش بذِمَّة فليس على أسياف قيس مُعَوَّل

لنا الفضل في الدنيا وأنفُكَ راغم ونحن لكم يوم القيامة أفضل

ومن أمثلة ذلك فائية الفرزدق المشهورة :

عزفتَ بأَعشاشٍ وماكدتَ تعزف وأنكرتَ من حدراء ما كنت تعرف

فقد أنشأها يجيب على شاعر الأنصار ، الذي تحداه أن يقول مثل قول حسان (لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن بالضحى) . وهي قصيدة طويلة تزيد على مائة بيت ، لم يعرض فيها لجرير ، كلها فخر بنفسه وبقومه . ولكن جريراً نقضها عليه بفائيته :

ألا أيها القلب الطروب المكلَّف أفِقْ ربما ينأى هواك ويُسعِف

فاضطر الفرزدق أن يلحق بقصيدته أبياتاً لا تزيد على العشرين ، يرد بها على جرير .

ومن أمثلته كذلك رائية جرير ، التي رثى بها زوجته :

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرتُ قبرك والحبيبُ يزار

---

(1) رقأ الدمع انقطع . يدعو عليه فيقول : لا جفف الله دمعك .

(2) القلس (بفتح فسكون) ورقة الجزية ، كانت تختم ويعلقها الذمي في عنقه دلالة على أنه ادى الجزية .

وهي اثنان وعشرون بيتاً . وقد نقضها عليه الفرزدق ملشمّتاً بعصبيته في رائيته :

أَعرَفْتَ بين دُوَيْبتَين وحنبل دِمَناً تلوح كأنها الأسطــــار

فاضطر جرير أن يجيبه ، وألحق رده برثائه الأول وأطال ، حتى بلغت القصيدة مائة بيت وسبعة عشر بيتاً .

والواقع أن القصد إلى الهجاء ، لم يكن هو الدافع الأول إلى إنشاء هــذه المجموعة الضخمة من الشعر . فلم يكن همُّ الشاعر أن ينال من خصمه فحسب ، ولكن كان همه الأول أن يجيد ويبدع ويتفوق في فنه . ولذلك فقد كان يكلف نفسه أن يجيب على خصمه بقصيدة من نفس البحر والروي ،وهو تكليف يضيق على الناقض السبيل ، ويظهره بمظهر المتحدي الذي يترك لخصمه اختيــار نوع السلاح الذي يريد أن يبارز به . وهذا التنافس يعلل لنا ما نجد في النقائض من فخر كثير بالبراعة في الشعر ، وشدة وقعه ،وذيوعه على ألسن الناس، وتكرار هــذا الفخر في كل مكان ، بأسلوب متشابه ، يضيق به القارىء في كثير من الأحيان .

ونحن لا نستطيع أن نزعم أن الفن الهجائي في هــذه النقائض ممتاز ، يبلغ حد الرفعة . وقد يكون من الظلم للنقــائض ، وللعصرِ الذي أنشئت فيه ، أن تقارَن بغيرها من ألوان الهجاء في الأمم الأخرى ، أو تقارن بالشعر الهجائي العباسي ، كهجاء ابن الرومي والمتنبي والمعرى . وإنما العدل أن تقاس هــذه النقائض بعصرها وظروفها التي أحاطت بها . فهي أولاً شعر بدوي ، لا يتذوقه القارىء المعاصر في سهولة ويسر ، لأنه لا يترك في نفسه صدى ، ولم يقصد به أصحابه أن يخــاطبوه ، وإنما خاطبوا به قومهم ، ممن هم على شاكلتهم في البداوة ، وعلى طريقتهم في الحس والذوق . فالقارىء لا يستطيع أن يحس جماله ، إلا بعد أن يتحامى كثيراً من الملل والسأم ، ويتجلد لما تضيق به نفسه في

أول الأمر ، حتى إذا أوغل في القراءة ، ومضى في الدراسة ، غمره جو هـذا الشعر ، ونقله إلى قلب البادية ، وإلى صميم هذه الحياة البدائية الخشنة . وعند ذلك فقط ، يستطيع أن يتذوق شعرهم . فهو لا يتذوقه ، إلا بعد أن يتعرف إلى أصحابه ، ويصحبهم صحبة طويلة ، تخلق في نفسه شيئاً من الإلف لهـذه الحياة ، ولهؤلاء الشعراء .

والنقائض من ناحية أخرى محدودة الغرض ، بحكم الظروف التي أحاطت بها ، والتي دعت إلى إنشائها . فهي شعر شخصي ، محوره الفرد ، لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفقها الواسع العام ، ولا يكاد يتصل بالنفس البشرية ، يصورها في أطوارها المختلفة ، وحالاتها المتباينة . فالشاعر فيه يفتخر بنفسه وقومه ، والفخر ثقيل على القارىء ، لأنه يصور الغرور . ويهاجم لبغضه وغيظه ، والقارىء لا يشاركه هذا الشعور بالقياس إلى المهجو . ويمدح لرغبة في مال أو جاه ، والقارىء لا يصيب من وراء ذلك شيئاً . وكل هذه الأسباب مجتمعة ، تجعل النقائض أقرب إلى الخصوص والضيق ، بعيدة عن العموم والشمول ، في الاستناد إلى عاطفة يستطيع القارىء أن يشارك فيها بنصيب كبير ، فيتجاوب مع الشاعر ، ويستجيب لشعره ، ويفنى فيه وقت قراءته . وكل هذه الأسباب أيضاً ، توضح لنا أن هناك تبايناً كبيراً في العصر والظروف ، بين شعر النقائض ، وبين الشعر العباسي أو شعر الأمم الأخرى ، يبطل المقارنة أو المفاضلة ، ويجعلها جائرة غير صحيحة .

ولعل من الحق والقَصْد البعيد عن التحيز ، أن نقرر أن مثل هـذا الشعر لم يعد يجتذب هواة الفن الشعري ، ممن يَنشُدون اللذة الفنية الخالصة ، والمتعة الروحية الرفيعة . ولكنه شعر المختصين من الدارسين للأدب ، والعلماء الذين لا يجد أحدهم حرجاً من أن ينفق عمراً طويلاً في دراسة حشرة تافهة ، أو صخرة مهملة . وليس معنى هذا أننا نسلب النقائض كل قيمة فنية ، فالواقع أن فيها نواحي كثيرة جميلة ، فهي بعض صور الإنسانية في طور من أطوارها . ولكننا

نقول إنها قد أصبحت بعيدة عن أذواق المعاصرين وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا في الشعر نفسه لذة ، ولكنهم يجدون هذه اللذة فيما قد ينشأ حوله من دراسات، تعتمد على التحليل والتعليل ، فتخلق فيه شيئاً من النشاط والحركة ، التي ترد إليه الحياة ، وتصله بالنفس الإنسانية ، وتقرّبه من قلوب المعاصرين .

ومع ذلك كله ، فللنقائض قيمتها ومكانتها عند دراسي الأدب العربي . وقيمتها ترجع إلى أسباب كثيرة . فشعراؤها الثلاثة هم أبرز الشعراء في عصرهم بغير شك . وشعرهم يمثل عصرهم جملة ، ويمثل الناحية الأدبية فيه بنوع خاص . فقد رسم الحياة في ذلك العصر بخيرها وشرها ، وصوّر القيم الخلقية والاجتماعية تصويراً دقيقاً بارعاً . وهو مع هذا سجل صادق لكثير من الحوادث التاريخية التي عاصرته والتي سبقته ، منذ وعى العرب تاريخهم وأنسابهم . ولهذه الناحية الأخيرة ترجع معظم قيمة النقائض عند الدارسين . وقد زاد في قيمة هذه الناحية وأعظم من قدرها ، هذا الشرح الطويل الذي ينسب لأبي عبيدة، والذي يفصّل ما عرضت له النقائض أو أشارت إليه من أيام العرب ، تفصيلاً قصصياً رائعاً ، يصور الحياة في هذه العصور البائدة تصويراً قوياً حياً .

وقد تباين شعراء النقائض الثلاثة في طريقة علاجهم للهجاء . فغلب على الأخطل فنه الشعري الرصين ، الذي يعنى بالألفاظ ، ويدقق في اختيار العبارات ، فكان في هجائه يرضي فنه الشعري الرفيع ، بأكثر مما يستجيب لغضبه ، وللغيظ الذي يأكل نفسه . فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهماء . ولكن رصانة ألفاظه وجزالتها ، وما تضمنته من معاني شعرية ، أضفت على هجائه كثيراً من الوقار الذي حرمه روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعنيهم من الهجاء إلا النكتة المضحكة ، والسخرية البارعة المسلية . ولذلك ظل الأخطل في هجائه – كما هو في كل شعره – شاعر خاصة كما كان يقول قدماء النقاد .

وأما جرير فقد غلب عليه مرحه ودعابته ، فكان مذهبه في الهجاء قوله : (إذا هجوتَ فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس . ولم يكن يتكلف في شعره ما يتكلف صاحباه من العناء ، فهو يكتفي بما وهبه الله من طبع شعري خصب ، ومن حس فني دقيق رقيق ، ويأخذ فيض هذه المواهب ، دون أن يلح في استنزافها ، أو استخلاص أقصى ما تحتمله من إجهاد . ولذلك بدا في شعره عامة ، وفي هجائه خاصة ، وكأنه يتكلم في غير قصد إلى الشعر ، فإذا هو يقول شعراً . وقد أحسن قدماء النقاد وأصابوا ، إذ وصفوه بأنه يغرف من بحر . وقد أتاحت له هذه السهولة قدرة عجيبة على الإطالة ، لم يكد يجاريه فيها إلا الفرزدق ، وجعلت هجاءه أكثر ذيوعاً على ألسن العامة .

أما الفرزدق فقد كان في عامة شعره معنياً بفنه ، ولكنه لم يكن موهوباً كجرير . ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدها ، حتى لقد وصفه القدماء بأنه ينحت من صخر . ويزيد في إحساس القارىء بهذا الجهد العنيف الذي يبذله في شعره ،خشونة ألفاظه وغرابتها ،التي أغرت به أصحاب اللغة والغريب. ولكن هذه الصفة التي وسمت معظم شعره ، لم تكن واضحة في فنه الهجائي وضوحها في بقية الأغراض . فهو يجاري جريراً في تناول المعاني الهجائية من قرب ، ليستطيع أن يسايره في الإطالة والدعابة .

وليس قصدنا هنا إلى أن نتكلم عن الخصائص الهجائية لكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد أفردنا لكل منهم فصلاً من الكتاب ، تناولنا فيه حياته وفنه بشيء من التفصيل . ولكن الذي يعنينا في هذا المقام ، أن نتكلم عن الفن الهجائي في شعر النقائض جملة ، وعن الخصائص العامة التي يشترك فيها شعراؤها الثلاثة .

فأول ما يسترعي الانتباه في هذه الخصائص العامية ، والابتذال. وهو ابتذال في المعاني وفي الألفاظ وفي الأخلاق جميعاً . أما المعاني فهي قريبة ،وهي

في كثير من الأحيان صورة من الحياة الواقعة ، لم يختزنها الحس الفني ، ليصفيها من شوائبها ، وليضفي عليها من سحره وخياله وترفعه . فالشعر الهجائي يبدو كأنه لا يصدر عن أدنى جهد فني .

يقول جرير في هجاء الأخطل :

يا ابن الخبيثة ريحاً من عدلتَ بنا | أم من جعلتَ إلى قيس إذا خطَروا
قيسٌ وخِنْدِف أهلُ المجد قبلكم | لستم إليهم ولا أنتم لهم خطر
وما لتغلب إن عَدَّتْ مساعيَها | نجمٌ يضيءُ ولا شمسٌ ولا قمر
والتغلبيُّ لئيمٌ حين تَجهَره | والتغلبي لئيم حين يُختَبَرُ
والتغلبي إذا تمت مروءته | عبدٌ يسوق رِكابَ القوم مؤتجَر
ما كان يرضى رسولُ الله دينَهم | والطيبان أبو بكر ولا عمر
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا | وهل يضير رسولَ الله إن كفروا

ويقول في قصيدة أخرى :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد | وبجبْرَئيل وكذبوا ميكالا
أنسيت يومك بالجزيرة بعدما | كانت عواقبُه عليك نَكالا
حملت عليك حُمَاةُ قيسٍ خيلها | شُعْثاً عوابسَ تحمل الأبطالا
زُفَرُ الرئيسُ أبو الهُذَيل أبادكم | فسبى النساء وأحرز الأموالا

ويقول للفرزدق :

زار الفرزدقُ أهلَ الحجاز   فلم يحظَ فيهـــم ولم يُحمد

وأخزيتَ قومك عند الحطيم   وبـــين البَقيعَيْن والغرقد[1]

وَجدْنا الفرزدق بالموسمين   خبيثَ المَداخـل والمشهد

نفاك الأغرُّ ابنُ عبدالعزيز   وحقُّك تُنْفَى من المسجد[2]

تقول نَوارُ فضحتَ القُيون   فليت الفرزدق لم يولد

وقالت بذي حَومَلٍ والرماح   شهِدْتَ ولَيْتك لم تشهـد

وكل هذا تقرير ساذج للواقع ، لا يقصد إلا إلى الإخبار والإفادة ، فهو خلو من كل ميزة فنية ، وليس للشاعر فيه إلا فضل النظم ، فهو يقدم الأخبار نظماً، بدل أن يقدمها نثراً ، في ثرثرة لا غناء فيها .

ويقول الفرزدق لجرير :

يا ابن المراغة أنت الأَم من مشى   وأذل من لَبنَانِه أظفـــار

وإذا ذكرتَ أباك أو أيامه   أخزاك حيث تُقَبَّلُ الأحجار

أنتم قَرارة كلِّ مَدفَع سَوْءة   ولكل دافعـــةٍ تسيل قَرارُ

إني لأشتمكم وما في قومكم   حَسَبٌ يعادلنا ولا أخطـــار

---

(1) البقيمان موضعان بالمدينة ، وهما بقيع الفرقد ، وهو مقبرة أهل المدينة ، وبقيع الزبير

(2) امر عمر بن عبد العزيز الفرزدق بأن يجلو من المدينة حين سمع الابيات الفاحشة في قصيدتـــه :

الا من لشـــوق انت بالليل ذاكـره   وانســان عـــين مـا يغمض عـائره

وهو نظم لا يتجاوز تقرير الأشياء .

ويقول في موضع آخر :

منا الذي اختير الرجالَ سَماحةً　　وخيراً إذا هَبَّ الرياحُ الزعازع

ومنا الذي أعطى الرسولُ عطية　　أسارى تميم والعيونُ دوامع

ومنا الذي يعطي المئين ويشتري الـ　　ـغوالي ويعلو فضلهُ من يدافع

ويمضي في ذلك إلى أربعة أبيات أخرى ، لا يتجاوز فيها هـذا الأسلوب ولا يرتفع عنه . يقول منا الذي فعل ، ومنا الذي فعل وفعل . وهو سرد قد يفيد أصحاب التاريخ ، ولكنه من الناحيـة الفنية ، يهبط بالشعر إلى مستوى العامية في التعبير .

ويقول :

وهب القصائدَ لي النوابغُ إذ مضوا　　وأبو يزيد وذو القروح وجَرْوَل

ويمضي في سرد أسماء الشعراء ثمانية أبيات ، لا شيء فيها غير أسماء الشعراء منظومة فيما يشبه المتون التي وضعت في عصور متأخرة لحفظ العلوم .

ويقول لجرير :

أتى الشامَ يرجو أن يبيع حماره　　وفارسه إذ لم يجد من يبـادله

فجاء بعِدْلَيْه اللذين هما له　　من اللؤم كانت أورثَتْه أوائلُه

وقوله (اللذين هما له) تعبير لا يخطر لشاعر يُعْنَى بفنه أن يفسِد به شعره .

ويقول :

أبا مالك لا بد أني قارع　　لعظمك إني للعظام قَرُوع

و (لا بد) تعبير غريب على الشعر لا يصلح إلا للنثر .

ويقول :

يهتفن أين ذوو الحَمِيَّة أين هم　　أم من يغار ، فلم يجدن غيورا

هذا وقد وطئت سنابك خيلنا　　زوجَ المراغة صاغراً مثبورا

وربط البيتين بكلمة (هذا) ربط نثري ، ليس من أساوب الشعر في شيء .

ويقول :

وليست كليب كائنين كدارم　　وَوَدَّ جريرٌ لو عطيةُ غالبُ

و (كائنين) حشو لا يصدر إلا عن المتعجل ، الذي لا يريد أن يتوقف ليسوي شعره ، ولكنه لا يبالي ما يقول ، ولا كيف يستوي له النظم ، وكأنه مدفوع إلى تحبير عدد من الصفحات في وقت محدود ، فهو ماض إلى بلوغ أجله، في غير توقف أو تريث .

هذا هو ما عنينا بالعامية والابتذال في المعاني والتعبير . أما الألفاظ فهي في كثير من المواضع سباب عامي مبتذل ، لا يفترق كثيراً عما نسمع من شتائم الدَّهْماء ، التي تتناول الآباء والأمهات ، ولا تعف عن استعمالها في صيغها السوقية المُسِفّة .

يقول الفرزدق :

إذا أنت يا ابن الكلب ألقتك نَهْشَل　　ولم تك في حِلْفٍ فما أنت صانع

ويقول في موضع آخر:

تصاغَرْتَ يا ابن الكلب لما رأيتني مع الشمس في صعبٍ عزيز معاقلُه

ويقول جرير :

أخت الفرزدق من أبيه وأمه باتَتْ وسيرتها الوجيف الأرفع [1]

وقوله (من أبيه وأمه) توكيد عامي مأخوذ من أفواه الدهماء .

ويقول :

كان الفرزدق شاعراً فخصيته ذ.. الفرزدقُ أمّه من شاعر

أمسى الأخيطل للفرزدق ضَرّةً فيم المراءُ وقد نكَحْتُ ضرائري

ويقول :

إذا ما كنت ملتمساً نكاحاً فلا تعدل بـ... بني ضرار

وإن لاقيت ضبّيًّا فـ... فكل رجالهم رَخو الختار

وليس يعنينا أن يخرج الفرزدق أو جرير عن آداب النـــاس في شتائمهم ، ويشذا عن الذوق المهذب والخلق السليم ، ولكن الذي يعنينا هنا هو هـــذه الألفاظ العامية المبتذلة التي تنقل السباب من أفواه الدهماء كما هو ، لا عمل فيه للخيال ، فتهبط بمستوى الصناعة الشعرية عما ينبغي له من ترفع فني .

---

(١) الوجيف ضرب من سير الخيل والابل، فعله وجف يجف . ورفع البعير (لازم ومتعد) وارتفع في سيره أسرع .

أما التبذل الأخلاقي فهو كثير يملأ النقائض ، لا يفتح القارىء فيها صفحة إلا وقع على مثال له ، وكله تفصيل يفيض للسوْءات ، وأكثر ما نجده في شعر جرير ، حين يتهم جِعْثِن أختَ الفرزدق بالمِنْقَري ، أو ليلى جدته بعبدها جُبَيْر [1]، ويمعن في تفصيل ما يجري بينهم من أدق الحركات الفاضحة. والمعجيب في الأمور والمؤلم في الوقت نفسه أن النقائض أخصب ما تكون فناً ، وأكثر ما تكون افتناناً وتصرفاً ، حين تعرض لأمثال هذه الفضائح ، في أسلوب قصصي ، لا يفسد روعته إلا طبيعة مواضيعه ، التي تملأ نفس القارىء السَّوي اشمئزازاً من قذارة ما تخوض فيه .

وظاهرتان أخريان تحتلان من النقائض مكاناً بارزاً ، هما تكرار المعاني والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية . أما التكرار فهو نتيجة طبيعية للإكثار ، فكل واحد من الشعراء الثلاثة لا يرضى أن يسكت فيكون مغلوباً ، فليس له بد من أن يرد . وقد طال بينهم الأمر وامتد المدى ، حتى لم يعد أمامهم إلا أن يكرروا ما قالوا ، ويعيدوا ما أبدأوا . فجرير يعير الفرزدق أن أجداده كانوا يصرفون بعض عبيدهم للحدادة ، فهو من بيت صناع حدادين . ويعيره خبث أخلاقه ومنافاتها للدين ، فهو سكير زناء ، ويختلق على أخته صلتها بالمِنْقرى ، ويشنع على جدته ليلى بصلتها ببعض رقيقها الذين كانوا يستخدمونهم في الحدادة. وهي معان محدودة ، لا يخرج عنها في كل هذه المجموعة الضخمة من الشعر .

والفرزدق لا يعير جريراً إلا ضعف نسبه وضعة أبيه . وهو يقابل اختلاق جرير على أخته باختلاق مثله ، يشنع فيه على جرير وأبيه بصلتهم بالحمير . والقارىء يسمع القصة عَينها في كل قصيدة .

ولكن اضطرار هؤلاء الشعراء الثلاثة إلى الإعادة والتكرار ، قد جعلهم

---

(١) لتقديم مثال على ذلك راجع ص ٢٤٩ بديوان جرير من عينيته :

بان الخليط برامتين فودعوا ! وكلما رفعوا لبين لجزع

يفتنّون في هذه المعاني القليلة التي بين أيديهم ، فيخرجونهـــا في شتى الصور ، ويولدون منها مختلف المعاني والأخيلة ، فأحدثوا بذلك في الهجاء لوناً طريفاً من القصص الهجائي ، الذي يدور على الحوار الفكه ، والدعابـــة المضحكة . وكان جرير أبرع الثلاثة في هـذا اللون من القصص الهجائي . ويكاد الفرزدق يجاريه فيه ولكنه يقصّر عنه . أما الأخطل فقد كان أكثرهم تخلفاً في هـــذه الناحية . وكان شعره لذلك أقـل الثلاثة رواجاً عند جمهور الناس ، الذين لا يعنيهم من هؤلاء المتشاقين إلا النادرة الحلوة ، والنكتة المضحكة .

يولّد جرير من اتخاذ أجداد الفرزدق الحدادة شتى الصور . فهو مرة يتصور جد الفرزق في قبره ، وقد دُفِنت معه آلات الحدادة وأدواتهـا ، من كتيف وكلبتين ومنشار ، ثم يتصور الناس وقـد انكسر لأحدهم قِدْر أو مِرْجل ، فيتذكره لأنه كان يصلحها :

سنثير قَيْنَكُمُ ولا يُوفِي بها   قَيْنٌ بقارعة الطريق مشار

وُجِدَ الكَتيفُ ذخيرةً في قبره   والكلبتان جُمِعْن والمنشار

يَبْكي صداه إذ تَهزَّم مِرْجلٌ   أو إن تثلَّم بُرْمةٌ أعشَار

ومرة يتصور حدراء زوج الفرزدق ، وقـد أنكرت ريحه وما علا جسمه القصير من صدأ الحديد ، ويتصور الفرزدق إذ يطلب إليها أن تصلح ما فسد من الأكيار بترقيعه ، فتقول له إنهـــا لا تجيد ذلك ولا تعرفه ، لأن أجدادها من أشراف العرب ، وليسوا كأجداده أصحاب حدادة . وهي تدعو الله أن يخلصها من هذا البلاء الذي ألقاها أهلها فيه ، مستعيذة به من شر هذا الصهر المشؤوم ، ومن جوار هذا الحداد المنتن الرائحة .

حدراءُ أنكرت القيونَ وريحهم   والحرُّ يمنع ضيمَه الإنكار

لما رأت صدأ الحديد بجلده ... فاللون أورقُ والبنان قصار

قال الفرزدق رَقّعي أكيارنا ... قالت وكيف ترقّع الأكيار ؟

رقع متاعك إن جدّيَ خالدٌ ... والقينُ جدك لم تلدك نزار

وسمعتُها اتصلَت بذُهلٍ إنهم ... ظلموا بصهرهم القيونَ وجاروا [1]

دَعَت المصوِّر دعوة مسموعة ... ومع الدعاء تضرع وحذار

عاذت بربك أن يكون قرينُها ... قَيْناً أحمَّ لِفَسْوِهِ إعصار

وهو حيناً يتهم قُفَيْرة أم صعصعة بعبيدها الذين يشتغلون بالحدادة :

ولدَتْ قُفيرةُ أمُّ صَعْصَعة ابنَها ... فوق المُزنَّم بين وَطْبَيْ جازر

جعلت قفيرةُ ليلتين لهُرْمُزٍ ... والزِّيبان وليــلةً لقُنابِر [2]

ويتهمها أخرى بجبير عبدها :

تسوف صُنان القَيْن من رِبَّةٍ به ... ليجعل في ثقب المَحالة مِحْوَرا [3]

تزور جبيراً مرةً ويزورها ... وتترك أعمى ذا خَمِيل مدثّرا [4]

---

(١) ذهل بن شيبان بطن من بطون بكر وهم قوم حدراء زوج الفرزدق . اتصلت بذهل اي نادت مستجيرة بهم : يا للذهل .

(٢) هرمز والزيبان وقنابر أسماء بعض عبيدها . المزنم الذي تقطع اذنه وتترك مدلاة ، وانما يفعل ذلك بكرام الابل . الوطب سقاء اللبن ، وهو جلد الجذع .

(٣) تسوف تشم . ليجعل في ثقب المحالة محورا ، هو مثل ضربة لفعله بها . المحالة البكرة التي تكون فوق البئر ويدور عليها الحبل الذي يحمل الدلو . والمحور العمود الذي تدور عليه البكرة .

(٤) جبير عبد كان لهم يشتغل بالحدادة . الأعمى يقصد به صعصعة جد الفرزدق . الخميل القطيفة .

ويخلِجُ منها القينُ محبوكةَالقَرَى كان بها مُحًّا من البيض أصفرا[1]

ومرة يتهم ليلى جدة الفرزدق بجُبَير هذا ، فيقول إن غالباً أبا الفرزدق هو في الحقيقة ابن جبير ، وليس ابن صعصعة :

تلقى نساء مجاشع من ريحهم مَرْضَى وهن إلى جُبَيْرٍ نُزَّع
ليلى التي زفرَتْ وقالتْ حبذا عَرَقُ القيَانة من جبير ينبع
كلُّ الذي غَيَّرْتُمُ أن قلتمُ هـذا لعمرُ أبيك قَينٌ مُولَعُ !

ويقول :

تركتم جُبَيْراً عند ليلى خليفةً أصعصعَ بئس القين قينُك صعصعا
وماحفلت ليلى ملامةَ رهطِهـا ولا حفظت سِرَّ الحصَانِ المنعا
أبان لكم في غالبٍ قد علمتم نِجارُ جبير قبـل أن يتيَفَّعا

ولذلك فهو يتصور جبيراً يهدي إلى غالب أبي الفرزدق بعض النصائح في صناعة الحديد :

وأوصى جبيرٌ إلى غالب وصيةَ ذي الرَّحمِ المُجهَد
فقال ارْفُقَنَّ بِلَيِّ الكَتِيفْ وَحَكٌّ المَشَاعِب بالمبرد

وهكذا تجد الشاعر يتصرف في المعنى الواحـــد ، فيخلق منه صوراً فنية متعددة ، وإن كان أصلها واحداً .

---

(١) يخلج يجذب . القرى (بفتح القاف) الظهر .

أما التهديد بالفخر والمقدرة الشعرية ، وتكراره في كل مكان من النقائض فأمثلته كثيرة . يقول جرير للأخطل :

تعرضتَ من دون الفرزدق مُجْلِباً
فما كنت منصوراً ولاعاليَ الكعب (١)

تصليت بالنار التي يصطلى بها
فارداك فيها وافتدى بك من حربي

ويقول :

ترى الشعراء من صَعِقٍ مصاب بصَكَّتِه وآخر مستديم (٢)
لقد وجدوا رِشائي مستمراً ودلوي غيرَ واهية الأديم (٣)
ومِثْلِكَ قد قصدتُ له فامسى أخا حلم وما هو بالحليم (٤)
يرى حسراته ويخاف دَرْئي ويُغضي طرفَه نَظَرَ الأميم (٥)

ويقول :

عوى الشعراء بعضهم لبعض عليَّ فقد أصابهم انتقام

---

(١) اجلبه امده .

(٢) صعق مغشى عليه . مستديم منتظر لصكة اخرى . استدام انتظر وترقب .

(٣)الرشاء الحبل الذي تربط به الدلو . يقصد طول نفسه في الشعر ، وخصب طبعه .

(٤) يقول ان خصمه يتكلف الحلم . وليس هو في الحقيقة حليما ، ولكنه ضعف عن مجاراته .

(٥) الدرء الدفع . الاميم المشجوج الراس الذي بلغ جرحه ام الدماغ .

كأنهم الثعالب حين تلقى   هزبراً في العرين له انتحام
إذا أوقعتُ صاعقةً عليهم   رأوا أخرى تَحَرِّقُ فاستداموا

ويقول الفرزدق :

تَغَنّى يا جريرُ لغير شيء   فقد ذهب القصائد بالرواة[1]
فكيف ترد ما بعُمانَ منها   وما بجبال مصر مشهّرات
غلبتك بالفقّىء والمعنّى   وبيت المُحْتَبِي والخافقات[2]

ويقول :

تبكي المراغةُ بالرّغام على ابنها   والناهقاتُ ينحن بالإعوال
قالوا لها احتسبي جريراً إنه   أودى الهزبرُ به أبو الأشبال
ألقى عليه يدّيه ذو قومية   وَرْدٌ فدق مجامع الأوصال

---

(١) تغنى أصلها تتغنى ، حذفت احدى التاءين للتخفيف . في التعبير قلب ، يريد ذهب الرواة بالقصائد .

(٢) يريد بالمفقىء قوله في احدى قصائده :

ولست وان فقأت عينك واجدا   أبا عن كليب او أبا مثل نهشل

وبالمعنى قوله :

وانك اذ تسعى لتدرك دارما   لأنت المعنى يا جرير المكلف

وبالمحتبي قوله :

بيتا زرارة محتب بفنائه   ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله :

واين تقضي المالكان امورها   بحق واين الخافقات اللوامع

ولعله يقصد القصائد التي فيها هذه الأبيات . وكان الشعراء كانوا يسمون قصائدهم المشهورة باسم يشتقونه من احد ابياتها .

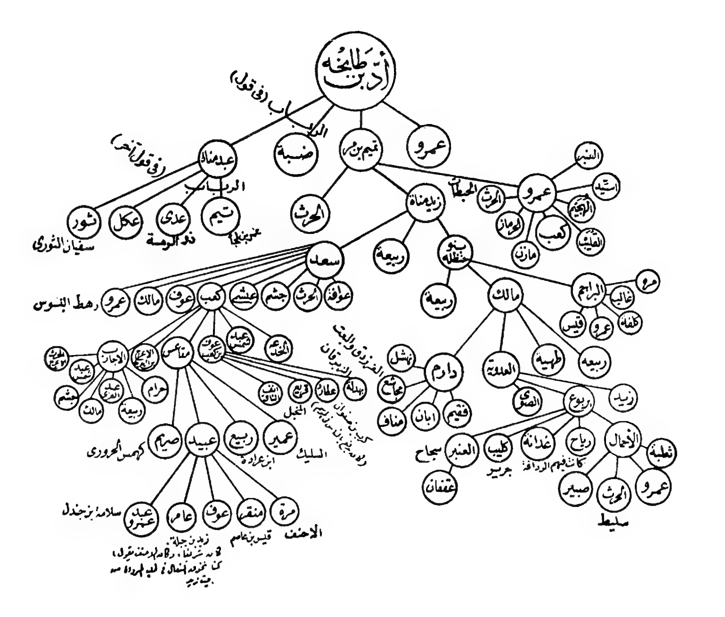
قـد كنتُ لو نفع النذير نهيتُه   أن لا يكون فريسة الرئبال

وهذا الإكثار من الفخر بالمقدرة الشعرية ، والتهديد بما سيصيب الخصم من نكال وعار ، ليس إلا مظهراً لما قدمنا من أن هذه النقائض تصور منافسة فنية ، يزعم كل واحد من هؤلاء الشعراء فيها أنه أشعر من صاحبه . وهو ما نص عليه الفرزدق نصاً صريحاً في بيته :

فدُونكَ هذي فانتقِضْها فإنهـــا   شديدٌ قُوَى أمراسها ومَوَاصِلُه

الذي ختم به نقيضته :

سمَـونا لنَجرانَ اليَماني وأهلِه   ونَجرانُ أرضٌ لم تُدَيَّثْ مَقاوِلُه



طابخة بن أد
عمرو
تميم بن مر
ضبة
الرباب (فی قول)
عبد مناة
(فی قول آخر)
الرباب
تيم
عدی
عكل
ثور
سفيان الثوری
ذو الرمة
الحرث
زيد مناة
عمرو
الحرث الحبطات
الهجيم
اسيد
العنبر
كعب
مازن
ربيعة
بنو حنظلة
سعد
ربيعة
مالك
البراجم
مرة
غالب
كلفة
عمرو
قيس
ربيعه
طهية
العدوية
دارم
نهشل
مجاشع
فقيم
ابان
مناف
الفرزدق والبعيث
زيد
الصوی
يربوع
الأحمال
ثعلبة
عمرو
الحرث
صبير
سليط
رياح
غدانة
كليب
العنبر
سجاح
عقفان
جرير
عوافة
الحرث
جشم
عبشمس
كعب
عوف
مالك
عمرو
رهط البنوس
عمرو الخداء
عبد شمس
عوف بن كعب
مقاعس
الاعرج
الاجارب
حرام
ربيعة
مالك
جشم
بهدلة
علاء
قريع
انف الناقة
الزبرقان
عمير
ربيع
عبيد
صريم
كهمس الحروری
السليك
ابن غراوة
مرة
منقر
عوف
عام
عبد عمرو
الاحنف
قيس بن عاصم
سلامة بن جندل

جريـــر

ينتسب شاعرنا إلى فرع من تميم اسمه يربوع ، كانت بعض بيوته على جانب من الشهرة في الجاهلية والإسلام . فقد كانت الرِدافة في بيت منهم اسمه رياح . ومن آخر اسمه العنبر ظهرت سَجاح ، التي تنبأت في حركة الردة . وقـد غلب بنو يربوع في أيام الفتنــة على البصرة والكوفة وخراسان . غلب على البصرة سَلَمة بن ذؤيب الرياحي ، وغلب على الكوفة مَطَر بن ناجية اليَرْبوعي لابن الأشعث ، وأخرج منهـا عامل الحجّاج ، وغلب على خراسان وكيع بن أبي سود اليربوعي ثم الغُداني ، وقتل قتيبة بن مسلم الباهلي [1] . وقد افتخر جرير بذلك في قوله [2] :

ويومَ عُبيد الله خُضْنا برايةٍ ... وزافرةٍ تمّت إلينا تميمها [3]

لنـا ذادةٌ عن الحفاظ وقادة ... مقاديم لم يذهب شَعاعاً عزيمها

عن المنبر الشرقي ذادت رماحنا ... وعن حرمة الأركان يُرمى حَطيمُها

يقصد بالمنبر الشرقي منبر البصرة وخراسان ، ويقصد بمنع الحطيم إنجـاد الخوارج لابن الزبير ، حين حاصره الحجاج في ملك يزيد ، وكان معظم الخوارج

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٧

(٢) ديوان جرير ٥٤٨ .

(٣) الزافرة الأعوان . يوم عبيد الله بن زياد : ذلك حين ترك الامارة بعد موت يزيد بن معاوية .

وقتذاك من تميم [١] .

والظاهر أن بيت صاحبنا في كليب بن يربوع لم يكن نابهاً ولا مشهوراً ، وإن كنا نعرف أن الخَطَفَى جد جرير كان مثرياً فيما يروي محمد بن حبيب [٢] ، في خبر أبياته المشهورة التي يعاتبه بها ، وهي الأبيات التي عاتب بهـا يزيد أباه معاوية وادعاها لنفسه ، لأن جريراً لم يكن قد اشتهر وقتذاك :

فرُدِّي جِمالَ الحيِّ ثم تحمّلي ... فما لكِ فيهم من مُقامٍ ولا ليا
فأنتَ أبي ما لم تكن لي حاجة ... فإن عرَضتْ أيقنتُ أن لا أبا ليا
وإني لمغرورٌ أعلَّل بالمنى ... لياليَ أرجو أنّ ما لَكَ ماليا [٣]
بأي سنانٍ تطعن القوم بعد ما ... نزعت سناناً من قناتك ماضيا
بأي نِجادٍ تحمل السيف بعد ما ... قطعتَ القُوى من مَحْملٍ كان باقيا [٤]
وإني لعَفُّ الفقر مشتَرَك الغِنى ... سريعٌ إذا لم أرْضَ داري انتقاليا [٥]
جريءُ الجنان لا أهاب من الردى ... إذا ما جعلتُ السيف قَبْضَ بنانيا

---

(١) نقائض جريروالفرزدق ١ : ١٠٧ ، ابن الاثير ٢ : ٢٣٦

(٢) ديوان جرير ٦٠١ .

(٣) يقول لجده لقد غررت نفسي حين زعمت لها ان لا فرق بين مالك ومالي .

(٤) النجاد حمائل السيف . القوى الحبال . مثل ضربه له ، يقول لم يعد لك من معتمد عليه .

(٥) يقول انه اذا افتقر كان عفيفا ، وان اثرى اشرك الناس في ثروته وماله .

وليس لسيفي في العظام بقية   وللسَّيْفُ أَشوَى وقعةً من لسانيا[١]
ألا لا تخافا نَبْوَتي في مُلِمَّةٍ   وخافا المنايا أن تفوتكما بيا[٢]

وهي قصيدة طويلة ، أضاف إليها الشاعر في وقت متأخر أبياتاً في هجاء الفرزدق . وهي تصور صاحبنا جيد الشعر في ذلك الوقت ، وإن كان خاملاً غير معروف . ومع ما يروي محمد بن حبيب من خبر جده وثروته ، فنحن نعرف أن عطية الخطفي أبا جرير كان فقيراً خاملاً ، ليس فيه شيء يستطيع ولد أن يفاخر به . سأل رجل جريراً : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى أعرفك الجواب . فأخذ بيده وجاء به إلى عطية أبيه ،وقد أخذ عنزاً لدفاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به ، أخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته . قال : ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال: أتعرفه؟ قال : لا . قال : هذا أبي . أفتدري لمَ كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يُسمَع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به ، فغلبهم جميعاً .

وقد يكون التحديد الدقيق لمولد شاعرنا صعباً غير يسير ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه ولد في أواخر أيام عثمان . فابن خلكان يقول في ترجمته إنه توفي بين ١١٠ ه ، ١١٤ ه — على خلاف في الروايات — وله نيف وثمانون عاماً . ومولده على هذا حوالى ٣٠ ه . ويتفق ذلك مع ما يروي ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، من أنه عاش نيفاً على ثمانين عاماً . ويؤيد ذلك ما يذكر جرير من شيبه في أول قصيدة مدح بها عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ ه) ، حين

---

(١) ضربه فاشواه أصابه في غير مقتل . والشوى (بفتحتين) اليدان والرجلان والاطراف . يقول ان لسانه أخطر من سيفه .
(٢) يقول لا تخافوا قعودي عن نصرتكم حين تحتاجون الي ، فليس يمنعني من ذلك الا الموت . فمهما قصرتم في حقي فسأظل مخلصا لكم حتى الموت .

أوفده الحجاج إليه ، لأن الحجاج ولي العراق ٧٥ هـ ، ووفود جرير على عبد الملك لا بد أن يتأخر عن ذلك سنوات ، لأنـــه ظل مدة يمدح الحجاج . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع أن نقبل ما يروى في النقائض[١] ، من أن شاعرنا كان "تزعية" يرعى على أبيه الغنم ، لم يقل الشعر بعد ، على عِدّان مُلْك ابن الزبير[٢].

وقـــد بدأ جرير حياته الشعرية بالرجز ، شأن معظم الشعراء ، فاشتبك بشاعر معروف من قومه اسمه غسان السَّليطي ، فكانا يتبادلان السباب بالرجز ، ثم تَحيم بينهما التهاجي شعراً ، فلم يزالا يتناقضان ، حتى دخل بينهما البَعيث . وقد أتاح ذلك لجرير شيئاً من الشهرة الضيقة في قبيلته ، ولكنه لم يظهر في الحياة العامة إلا في خلافة يزيد . روى صاحب الأغاني بسنده عن جرير أنه قال : وفدت على يزيد بن معاوية وأنا شاب يومئذ[٣] . فاستؤذن لي عليـــه في جملة الشعراء ، فخرج الحاجب إلي وقال : يقول لك أمير المؤمنين إنه لا يصل إلينا شاعر لا نعرفه ، ولا نسمع بشيء من شعره ، وما سمعنا لك بشيء فنأذنَ لك على بصيرة . فقلت له : تقول لأمير المؤمنين : أنا القائل :

وإني لَعَفٌّ الفقرِ مشتَرَكُ الغنى   سريع إذا لم أرضَ داري انتقاليا

فدخل الحاجب عليه فأنشده الأبيات . ثم خرج إلي وأذن لي . فدخلت وأنشدته وأخذت الجائزة مع الشعراء ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة . وقال لي : لقد فارق أبي الدنيا ، وما يظن أبياتك التي توسلتَ بها إليَّ إلا لي[٤].

ولم يلبث يزيد أن مات واضطرب أمر العراق . وظهر في الكوفة رجل من

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ : ٤
(٢) ملك ابن الزبير من ٦٤ هـ — ٧٣ هـ
(٣) هذه الرواية تؤيد ما ذهبنا اليه من ان مولده حوالي ٣٠ هـ .
(٤) الاغاني ٨ : ٣٦ .

بني يربوع اسمه سَلمَة بن ذؤيب الرِّياحي ، يدعو لبيعة ابن الزبير ، فاجتمع عليه النـــاس حتى كثف جمعه . وضعف أمر عبيد الله بن زياد ، فكان يأمر بالأمر فلا ينفذ ، ويُرَدُّ عليه رأيه ، ويحال بينه وبين أعوانه وطَلبته . فلجأ إلى الأحنف بن قيس ، سيد تميم وشيخها في ذلك الوقت ، وطلب إليه أن يكف سَلمَة . فخف لإعانته ، ثم قعد عنه ، لما رأى قوة الداعين لابن الزبير . ولم يجد ابن زياد بداً من الهرب خوفاً على نفسه [١] ، فنزل في حماية سيد الأزد ، مسعود بن عمرو . واستطاع الأزد أن يستميلوا ربيعـــة واليمن إلى جانبهم ، فاتفقوا على أن يردوا ابن زياد إلى دار الإمارة . وما زالوا يتحرشون بتميم حتى ثاروا ، وعلى رأسهم الأحنف ، ومعهم القيسية ،فقتلوا مسعود بن عمرو الأزدي. وأحرقوا دار مالك بن مِسْمَع سيد ربيعة . واستطاع رجل آخر من بني يربوع اسمه عتّاب بن ورقاء الرِّياحي أن يخضع الخارجين على الجماعة من أهل الرّي . وبذلك حفظ بنو تميم العراق لابن الزبير ، حتى قدم عماله [٢]

وكانت تميم في موقفهـــا هذا قسمين : قسما يتعصب لابن الزبير ويدعو له ، يتزعمه بنو يربوع ، وعلى رأسهم سَلمَة بن ذؤيب الرِّياحي . وقسماً لا يحارب اليمنية والربعية إلا على الحِفـــاظ ، ولأنهم بدءوهم بالعدوان ، وهؤلاء يمثلهم سعد بن زيد مناة — وهم فرع ظـــاهر من تميم يتميز بشرفه — وعلى رأسهم الأحنف بن قيس [٣] .

من ذلك نرى بوضوح أن بعض تميم والقيسية كانوا زبيرية ، واليمن وربيعة كانوا أمويين . وليس في ديوان جرير الذي بين يدينا شعر يبين اتجاهه في هذه الفترة ، ولكنا نستطيع أن نجزم بأنــه كان زبيرياً ، شأنه في ذلك شأن قومه

---

(١) ابن الاثير ٣ : ٣٢٠ (احداث سنة ٦٤) .

(٢) ابن الاثير ٣ : ٣٢١ — ٣٢٦ (احداث سنة ٦٤) .

(٣) ابن الاثير ، نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٣ وما بعدها .

من بني يربوع ، الذين كانوا من أظهر فروع تميم تعصباً لابن الزبير . ولكن جريراً لم يكن من وجهاء قومه وأصحاب رأيهم حتى يدخل في ذلك . ثم هو رجل مسالم ، حريص على أن يبعد بنفسه عن مواطن الشبهة ، وما قد يعرضه في غده للشر ، فهو يكتفي بأن يؤيد ابن الزبير بقلبه . على أنه لم يكن معنياً بشؤون الناس ومشاكل السياسة ، فكل مواهبه الهجائية تتجلى في مهاجمة الأفراد ، ولا تتجاوز ذلك إلى الجماعات . وقد كان همه في ذلك الحين أن يجيب الذين تجمعوا عليه من شعراء قومه . فالبَعِيث المجاشعي قد دخل بينه وبين غسان ، معيناً أخواله السَّليطيين . ثم ثقل حمله بدخول الفرزدق ، حين أفحش جرير على بني مجاشع ، وتناول أعراضهم ، فحَمِيَ الفرزدق لهم ، وانضم للبعيث في مهاجمته. ومما يؤيد ما نذهب إليه ، من انشغال جرير في ذلك الوقت بمهاجاة هؤلاء الشعراء ، قوله في أول أمر الفرزدق ، مخاطباً الحارث بن ربيعة المخزومي ، والي ابن الزبير على البصرة :

أبا خالد أبليت حزماً وسؤدداً وكلُّ امرىءٍ مُثْنًى عليه بما يُبلي

أبا خالد لا تُشمِتن أعاديا يودون لو زلَّت بمَهْلَكةٍ نعلي

والحارث بن ربيعة المخزومي كان والياً على البصرة لابن الزبير ، بين عامي ٦٥ هـ – ٦٨ هـ ، لأن الكوفة والبصرة ضمتا لمصعب عام ٦٨ [1] . ويؤيد ذلك أيضاً قول جرير للبَعِيث ، قبل أن يدخل الفرزدق بينهما :

ويوم عبيد الله خضنا براية وزافرةٍ تمَّتْ إلينا تميمها[2]

---

(١) ابن الأثير : ٣ : ٣٥٦ ، ٣٩٧ (أحداث سنتي ٦٦ ، ٦٨) .

(٢) الزافرة الجماعة . المنبر الشرقي يقصد به منبر خراسان . الحطيم ما بين الركن وزمزم والمقام حيث يتحطم الناس للدعاء . الاركان أركان الكعبة المشرفة الاربعة .

عن المنبر الشرقي ذادت رماحنا وعن حُرمةِ الأركانِ يُرمى حطيمُها

وهو لا يستطيع أن يفخر بذلك في ملك الأمويين ، ولا يمكن إلا أن يكون في خلافة ابن الزبير . ومما يصور زبيرية جرير ، هذه القصة التي يرويها الأغاني في وفوده على عبد الملك بن مروان ، ومـا لقي من مصاعب في سبيل الوصول إليه [1] . فقد أوفده الحجاج مع ابنه محمد ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه ومعاونته . فلم يزل محمد بن الحجاج يلح على عبد الملك حتى أذن له . فلما استأذن في الإنشاد قال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك في الحجاج ؟ ألست القائل :

من سَدَّ مُطَّلَعَ النفاق عليكُمُ أم مَنْ يصول كصولة الحجاج ؟

إن الله لم ينصرني بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته . أولست القائل :

أم من يغار على النساء حفيظةً إذ لا يثقن بغَيْرة الأزواج ؟

يا عاض كذا وكذا من أمّه ! والله لهَممتُ أن أطير بك طَيْرةً بطيئاً سقوطها ! اخرج عني ! فأُخرِج بشَرّ حال . فلما كان بعد ثلاث شفع إليـه محمد بن الحجاج وقـال له : يا أمير المؤمنين . إني أديت رسالة عبدك الحجاج وشفاعته في جرير ، فلما أذنت له خاطبته بما أطار لبه منه وأشمت به عدوه ، ولو لم تأذن له لكان خيراً له مما سمع ، فإن رأيت أن تهب كل ذنب له لعبدك الحجاج ولي فافعل . فأذن له . فاستأذن في الإنشاد . فقال : لا تنشدني إلا في الحجاج فإنما أنت للحجاج خاصة . فسأله أن ينشده مديحه فيه ، فأبى وأقسم أن لا ينشده إلا من قوله في الحجاج ، فأنشده وخرج بغير جائزة . فلما أزف

(1) الأغـاني ٨ : ٦٦ .

الرحيل ، قال جرير لمحمد بن الحجاج : إن رحلت عن أمير المؤمنين ، ولم يسمع مني ولم آخذ له جائزة ، سقطت آخر الدهر . ولست بارحاً بابه أو يأذن لي في الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الإذن له . فقال جرير : ارحل أنت وأقيم أنا. فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بقول جرير ، واستأذنه له ، وسأله أن يسمع منه ، وقبّل يده ورجله . فأذن له . فدخـــل فاستأذن في الإنشاد فأمسك عبد الملك . فقال له محمد : أنشد ويحك . فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطـايا   وأندى العالمين بطُـون راح

فلما وصل جرير في إنشاده إلى هذا البيت اهتز عبد الملك وطرب .

ويؤيد زبيرية جرير كذلك ، تعصبه للقيسية ، وما يملأ ديوانه من ترديـــد أيامهم مع تغلب ، التي كانت ممالئة لبني أمية . يقول للأخطل :

وقيسٌ أذاقوك الهوان وقوَّضوا   بيوتكم في دار ذُلٍّ ومَحْرَب
فوارسُنا من صُلْب قيسٍ كأنهم   إذا بارزوا حرباً أسنَّةُ صُلَّب[1]

ويقول مؤيداً حلف تميم لقيس ، ومخاطباً الأخطل :

وقدأورَدَتْ قيسٌ عليكَ وخندِفٌ   فوارسَ هدَّمن الحياضَ التي تَجْبِي[2]

---

(١) الصلب (على وزن سكر) الشديد . حربه ماله سلبه . وحرب (كفرح) اشـــتد غضبه . ومحرب اسم مكان أو مصدر ميمي منه .

(٢) خندف امرأة ينسب اليها بنوها . وهم فرعان : مدركة بن الياس بن مضر (جـد قريش) وطابخة بن الياس بن مضر (جد تميم) . ومضر شعبان كبيران: خندف ويشمل قريشا وتميما ، وقيس عيلان وهو يضم قبائل كثيرة مشهورة منها هوازن وسليم وثقيف وعبس وذبيـان . جبى الماء في الحوض جبا وجبيا جمعه .

ويقول للفرزدق :

لنا قيسٌ عليكَ وأيُّ يومٍ إذا ما احمرَّ أجنحةُ العُقاب[1]

ويقول له :

ولقد جَهِلتَ بشتم قيس بعدما ذهبوا بريش جناحك المكسور
قيس وجــدٌّ أبيك في أكياره قواد كل كتيبــةٍ جمهور[2]

ويقول له :

لقد لحق الفرزدق بالنصارى لينصرهم وليس به انتصار
تخاطر من وراء حِمَايَ قيسٌ وخِندفُ عزٌّ ما حَمِيَ الذِمار

وهنا يبدو وجه الخلاف الشديد بين جرير والفرزدق . فالفرزدق أبيٌ يكرم نفسه ويعتد بحسبه . وهو يمدح الأمويين حين لا يجد بداً من الدخول فيما دخل فيه الناس ، ولكنه لا يقدم عليهم ولا يزورهم . أما جرير فهو يلتمس السبيل للوصول إليهم ، ويحتمل في سبيل ذلك المكاره ، طمعاً في عطائهم . وهو يحتال لذلك ، فيتصل بالحجاج أول الأمر ، لأن ذلك أهون عليه ،ولأن الحجاج قَيْسي من ثقيف ، فهو أقرب إلى الصفح عنه . ويجهد جرير نفسه في مدح الحجاج ، ويقول فيه أجود ما قال في مدح إنسان ، حتى يبلغ رضاه ويستطيع أن يضمن شفاعته عند الخليفة .

كان جرير رجلاً من غمار الناس ، ولم يكن بالرجل الصلب الذي يقوى على

---

(١) العقاب الراية . وانما تحمر من الدم .
(٢) الاكيار جمع كير ، وهو المنفاخ الذي ينفخ به الحداد ليذكي النار .

النضال والكفاح . فهو يؤثر العافية ، ويحرص على إرضاء الحكام والرؤساء . يتقرب بالمدح ، ضماناً لسلامته واطمئنانه ، وطمعاً في مالهم وعطائهم ، ويبلغ في ذلك حد التلون والنفاق . لا يكاد يصل إلى عبد الملك حتى يرضيه بشتم ابن الزبير (أبي خبيب) والتعريض به في أول قصيدة مدحه بها فيقول :

دعوتَ الملحدين أبا خُبَيب   جِماحاً، هل شُفيتَ من الجماح[1]
فقد وجدوا الخليفةَ هِبْرِزِيّاً   ألفَّ العيص ليس من النواحي[2]
فما شجراتُ عِيصِك في قريش   بعَشَّات الفروع ولا الضواحي[3]
رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا   وبَيَّنَت المِراضُ من الصِّحاح

ولا يكاد الحجاج يموت ، حتى يستبيح جرير لنفسه أن يعرِّض به عند سليمان بن عبد الملك ، إرضاء له ، لما هو معروف من تباغضهما . وهو لا يستحي ن يفعل ذلك ، مع ما سلف من مدائحه الرائعة فيه ، ومن إحسان الحجاج إليه. يقول لسليمان إنك قد أنقذت الناس من بلاء عظيم. ويصف تعذيب الحجاج للناس في سجنه المشهور (دِيماس) وتنكيلَه بهم . فهذا رجل مكبل بالقيود ، وذاك قتيل ، وتلك امرأة علقت من ثديها :

أجَرْتَ من المظالم كل نفس   وأديت الذي عَهِد الرسولُ

(١) الجماح العناد والخلاف . الملحد المخالف . ومنه الالحاد بمعنى الكفر لانه انحراف عن الدين .

(٢) الهبرزي الخالص . الالف الملتف . العيص الشجر . هذا مثل ضربه ، يريد انه من وسط العز ليس من نواحيه .

(٣) العشة (بفتح العين وتشديد الشين) الشجرة اللئيمة المنبت الدقيقة القضبان . الضواحي التي سقط ورقها فبدت عيدانها .

ويدعوك المكلَّفُ بعد جَهْدٍ وعانٍ قد أضرَّ به الكبُول

وما زالت معلقــــةً بثدي بني الدَّيّاس أو رجل قتيل

فَرَجْتَ الهمَّ والحَلَقاتِ عنهم فأحيى الناسُ والبلدُ المحُول

كان جرير لا يبالي غير سلامته ، فهو لا يهجو إلا من تعرض له من الشعراء ، ولا يعرض لنقد الولاة والعمال أو مهاجمة سياستهم . وهو لا يرتزق بالهجاء ، لأن ذلك قد يعرضه للشر ، ولكنه يعوّل في ذلك على المدح ، ويسوم نفسه في سبيل المال أقبح الذل ، وأبغض الإلحاف . فهو لا ينتظر عطاء من يمدحه ، ولكنه يصرح بالسؤال مستجدياً ، ويكثر من الشكوى متمسكناً ، وكأنه يستكثر بذلك من العطاء ، ويراه داعياً للزيادة .

يقول لعبد العزيز بن الوليد :

إلى عبد العزيز شكوتُ جهداً من البَيْضاء أو زمن القتّاد

سنين مع الجراد تعرَّقَتْنا فما تُبقِي السنون مع الجراد؟[1]

ويقول للحجاج :

ألا نشكو إليك زمان مَحْلٍ وشربَ الماء في زمن الجليد

ويقول لمعاوية بن هشام (وهو هنا مداعب خفيف الروح) :

---

(1) البيضاء السنة التي لا نبات فيها . وزمن القتاد حين يرعى الناس رعي القتاد فيلهبوا فيه النار لتأكل شوكه ، ثم ترعاه الابل . تعرق العظمة وعرقها أكل ما عليها من اللحم .

ماذا ترى في عيال قد برمتُ بهم   لم تُحْصَ عِدَّتهم إلا بعـــدّاد
كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيـــةً   لولا رجاؤك قد قتَّلْتُ أولادي

ومن دعابته في السؤال المُلحِف قوله لسليمان بن سعد صاحب ديوان العطاء باليمامة :

تركتُ عيالي لا فواكه عندهم   وعند ابن سعد سكر وزبيب
تَحَنَّى العظامُ الراجفاتُ من البِلى   وليس لداء الركبتين طبيب
كأن النساء الآسرات حَنَيْنَني   عريشاً فمشيي في الرجال دبيب[1]
منعتَ عطائي يا ابن سعد وإنما   سبقتَ إليَّ الموتَ وهو قريب
فإن ترجعوا رزقي إليَّ فإنـه   متاع ليـــال والحياة كَذُوب

ومن قبيح إلحافه قوله في بعض مدائحه لبني أمية :

أشكو إليك فاشتكي ذرية   لا يشبعون وأمهم لا تشبع
كثروا عليَّ فما يموت كبيرهم   حتى الحساب ولا الصغير المرَضع
وإذا نظرتُ يَرِيبني من أمهم   عين مهجَّجَة وخد أسفع[2]
وإذا تَقَسَّمت العيالُ غَبُوقَها   كَثُر الأنين وفاض منها المدمع
رِشْني فقد دَخَلَتْ عليَّ خَصاصةٌ   مما جمعتَ وكلَّ خيرٍ تجمع[3]

---

(١) العريش الهودج . الآسرات اللائي يأسرن المحامل والهوادج ، والأسر الشد والعصب.
(٢) المهججة الغائرة العينين . السفع سواد يعلو حمرة الخدين .
(٣) الخصاصة الفقر والحاجة . راشه وصله بمال ، كأنه جعل له ريشا بعد أن كان عاريا.

ولعل الفرزدق لم يبعد كثيراً عن الصواب حين صوّر شرَه جرير في جمع المال ، وابتذاله نفسه في السؤال ، مع أن قومه من تميم كانوا يستطيعون أن يغنوه ويكفوه ، حيث يقول :

يظل بأسواق اليمامة عاجزاً ... إذا قال بيتاً بالطعام يُكايلُه
ولو جعلوا لابن المراغة درهماً ... على إسْكَتَيْها قال إني مزاوِلُهْ
لظل مُكِباً يبتغي بلسانه ... ليخرجه إذ لم تنله أنامله
تقدَّمْ عليها يا جرير فإن تكن ... رفيقاً إذا استلقت فإنك نائله
أظنُّ بنا زوج المراغة أنه ... من الفقر لاقية الهُزال فقاتله
وقد كان في الدنيا مَرادٌ لقَعْبِه ... وفي هَجَرٍ تَمْرٌ ثقال جِلَالُه[1]
وكانت تميمٌ مطعميه ونابتاً ... بهم ريشُه حتى توَازَى نَواصِلُه[2]

ومع ذلك فلم يكن جرير بالمادح المجيد . فالرقة والسهولة الغالبتان على شعره تحرمان مديحه ما ينبغي له من قوة وشدة أسْر . وهو لا يقع على صفات الملوك والخلفاء ، ولا يعرف كيف يمدحهم ، فهو من هذه الناحية لا يقارَن بشاعر كالأخطل .

يقول لسليمان بن عبد الملك ، وكأنه يمدح رجلاً كريماً من عامة الناس :

---

(1) راد المكان جال فيه مستكشفا ، مراد اسم مكان منه . القعب اناء يحلب فيه اللبن . هجر موضع من ديار بني تميم مشهور بكثرة نخيله . الجلة (بضم الجيم) وعاء للتمر يتخذ من سعف النخل .

(٢) يريد استواء قصاره وطواله على التشبيه بالزرع . ونصل النبات ما يبرزه من أكمته .

يهينون المخاضَ لكل ضيف   إذا ما حُبَّ في السنة الجميلُ[1]

ولا يوصف الناس بأنهم ضيوف الخليفة ولكنهم رعيته .

ويقول لعبد العزيز بن مروان حين رحل إليه يمدحه بمصر :

إذا ما أناخ الراغبون ببابكم   مع الوفد لم ترجع عِيابُهمُ صِفْرا

وذلك أدنى ما يقال في رجل . فلو أن هذه العياب عادت مملوءة تِبْناً أو تراباً لما كانت صفرا .

ويقول في مدح يزيد بن عبد الملك إنه نزل به ضيفـاً فأكرمه وغطاه من فضل لحافه :

ما مَن جفانا إذا حاجاتُنا نزلَتْ   كمن لنا عنده التكريم واللُّطَف

كم قد نزلتُ بكم ضيفاً فتَلحَفُني   فضلَ اللحاف ونعم الفضل يُلتَحف

وليس مثل جرير ضيفاً على مثل يزيد ، وإنما هو معتف يرجو فضله ويسعى لسَيْبه . واستعارة اللحاف هنا للفضل من أقبح الاستعارات .

ثم يقول إن له حساداً لا يغنون غناءه :

يا رب قوم وقوم حـاسدين لكم   ما فيهم بدَلٌ منكم ولا خلف

وهذا نزول بالخليفة إلى مستوى عامة الناس .

---

(1) الجميل الشحم المذاب . يكنى بذلك عن الجدب .

ويقول لعبد الملك :

لله طوقك الخلافـــة والهدى والله ليس لمـــا قضى تبديل

وليس يحسن استعمال التطويق في النعمة ، فإنما يطوق الناس البلاء والمصائب . فالطوق أدنى إلى أن يصور التضييق والتنكيل .

يقول للوليد بن عبد الملك :

وترى الجفان يَمُدها قَمَعُ الذرى مدَّ الجداول بالأَتِيِّ المفعَم[1]

والقِدْر تَنهِمُ بالمَحال وترتمي بالزَّوْر همهمةَ الحصان الأدهم[2]

وليس يوصف الخليفة بأنه يمد للناس جفاناً يعلوها شحم السنام ، وبأن قدوره تغلي بالقطع من فقار الظهر ، كأنها الحصان الأدهم حين يهمهم ويصهل . فذلك قليل جداً على الخليفة . وإنما يمدح به عامة الناس الذين ينتابهم الفقر .

ويقول لهشام :

وكان أبوك قـــد علمت معد يفرج عنهم الكُرَب العظاما

وقد وجدوك أكرمهم جدوداً إذا نسبوا وأثبتهم مقـاما

وتُحرِز حين تضرب بالمعلَّى من الحسَب الكواهلَ والسناما

وليس نسب الخليفة موضع بحث ، ولا هو مما يحتاج إلى إثبات ، أنه أفضل الناس نسباً .

---

(١) الذروة السنام . قمعة الذروة أعلى السنام . الجداول الأنهار . الأتي الجاري .

(٢) المحال فقار الظهر واحدها محالة . الزور الصدر . الهمهمة صوت دون الصهيل .

ويقول له في مديحة أخرى:

فيا ابن المطعمين إذا شتونا ... ويا ابن الذائدين عن الحريم

فما الأم التي ولدت أباكم ... بمُقرفة النِجار ولا عقيم [1]

فلو أن أماً ولدت شرطياً لم تكن عقيماً.

ويقول للعباس بن الوليد:

فيا ابن المطعمين إذا شتونا ... ويا ابن الذائدين عن الذمار

وتمطر من نداك يداك فضلاً ... إلى كرم الشمائل والنِجار

وتوقد نار مكرمة وأخرى ... إذا ما المَحْلُ أَخْمَدَ كلَّ نار

وكأن بيت الخليفة مجهول يحتاج إلى أن توقد أمامه النار ليهتدي إليه الضيفان.

كانت السهولة الغالبة على شعر جرير صورة من طبعه السمح، ونفسه الرقيقة المطمئنة. فقد كان جرير رجلاً مؤمناً شديد التمسك بدينه، يؤثر السلامة والعافية في الآخرة كما يرجوهما في الدنيا. كان إذا صلى الصبح جلس في فناء منزل أمام داره، لا يكلم أحداً حتى تطلع الشمس، ولا يبرح موضعه ولو تناحر الحي [2]. وقد مرت به جنازة وهو يملي على رجل قصيدته:

ودع أمامة حان منك رحيل ... إن الوداع لمن تحب قليل

---

(1) القراف المخالطة. النجار الأصل. مقرفة النجار مختلطة النسب، به ضعف في بعض أصوله أو أطرافه.

(2) النقائض ١ : ٣٢

فقطع الإنشاد وجعل يبكي . ثم قال : شيبتني هـذه الجنازة [1] . ولقي الفرزدق بني وهما حاجان ، فقال له الفرزدق :

فإنك لاق بالمحصَّب من منى فخاراً فحدثني بمن أنت فاخر

فلم يجبه إلا بقوله : لبيك اللهم لبيّكَ [2] .

وهذه الرقة الغالبة على طبعه ، جعلته من أكثر شعراء عصره توفقاً في الغزل والرثاء . وبهذا كان يمتاز من زميليه الأخطل والفرزدق . لم يفرغ جرير للغزل ، ولم ينشىء فيه قصائد مستقلة ، ولكنه كان يقدم لمدائحه وأهاجيه بنسيب يسيل رقة وعذوبة . وكان جرير يعرف من نفسه هذه الرقة ، فهو يقول : ما عشقت قط . ولو عشقتُ لنَسَبْتُ نسيباً تسمعه العجوز فتبكي على ما فاتها من شبابها [3] . انظر إلى قوله في مقدمة قصيدة يهجو بها الفرزدق :

فلما التقى الحيان ألقيتُ بالعصَى ومات الهوى لما أصيبت مَقاتلُه
لقد طال كتماني أمامة حبَّها فهذا أوان الحب تبدو شَواكله
ويوم كإبهام القطاة مُزَيَّنٍ إليّ صباه غالبٍ لي باطلُه
لهوتُ بجِنّيٍّ عليه سُمُوطه وإنسٍ مجاليه وأُنسٍ شمائله
فلو كان هذا الحبُّ حباً سلوتُه ولكنه داءٌ تعود عَقابِلُه

هذا شعر معظم جماله في ألفاظه السمحة الرقيقة ، التي تطرب الأذن

(1) الاغاني ٨ : ١٥
(2) الاغاني ٨ : ٣٣
(3) الاغاني ٨ : ٤٣ .

وتستخف القلب. ولقد حق لجرير أن يصبو ويبكي ، حين قدم المدينة فاستمع إلى أشعب يغنّي في قوله :

يا أختَ ناجية السلام عليكم ... قبل الفراق وقبل لوم العُذَّل

لو كنتُ أعلم أن آخرَ عهدِكم ... يومُ الفراق فعلتُ ما لم أفعل

فجعل يستعيده وهو يبكي حتى اخضلّت لحيته . والذي يقرأ رثاء جرير لزوجته وولده (سَوَادة)، لا يستطيع أن ينتشل نفسه من الحزن العميق الذي أملاهما ، والرقة الباكية التي تفيضان بها . ولقد ماتت زوجة الفرزدق ، فلم يجد النادبات من شعره ما يندبنها به ، فندبنها بقصيدة جرير هذه التي رثى بها زوجته .

هذه بعض مواهب جرير الشعرية وملكاته . وإنما كانت تتجلى هذه المواهب في كامل قوتها وروعتها حين يهجو الأفراد . فقد كان هذا الرجل الرقيق الطبع جَرِوَّ هِراش كما يقول الحجاج ، يندفع في الهجاء متدفقاً لا يمل ، وكأنه يمارس أحب الهوايات إلى نفسه . وكان يعينه على ذلك هدوء طبعه وبرود أعصابه . فقد كان ينهشه ثمانون شاعراً من معاصريه ، لم يستطع أحدهم أن يُحْفِظه أو يثير غضبه ، فهو يستمع إلى هجائهم في اطمئنان ، ثم يرد عليهم بهذا الاطمئنان نفسه ، فيطيل مقدماته في النسيب ، مستأنياً لا يستعجله الغضب ، حتى إذا أرضى منه نفسه ، تناول خصمه متهكماً ساخراً ، مفتناً في تهكمه وسخريته بما يضحك منهم الناس ، ويثير حولهم عواصف الضحك ، ويضيّق عليهم الدنيا . فحيثما ذهبوا وجدوا هجاءه فيهم قد سبق على الألسن، يُتَنَدر به في كل مكان. يقول ابن سلام : كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا أنشد لجرير ، وكان جرير أصبرهما . دخل رجل على الفرزدق فقال : وردت اليوم المربد قصيدة لجرير تناشدها الناس . فامتقع لون الفرزدق . فقال الرجل: ليست فيك يا أبا فراس.

فقال : فيمن ؟ قال : في ابن لجأ التيمي . قال : أحفظت منهـا شيئاً ؟ قال : علقت منها بيتين [1]

كان جرير ممتازاً في حسه اللفظي ، عالماً بوحي الكلمات وأسرارها . فهو إذا تغزل رأيت ألفاظه تسيل رقة وعذوبة في مثل قوله :

عوجي علينا واربعي ربة البغل ولا تقتليني لا يحل لكم قتلي

ليالِيَ إذ أهلي وأهلُك جيرةٌ وإذ لا نخاف الصرم إلا على وصل

وإذ أنا لا مالٌ أريد ابتياعه بمالي ولا أهل أبيع بهم أهلي

وإذا رثى رأيت ألفاظه تقطر حزناً وكمداً ، في مثل قوله يرثي ولده (سوادة) :

قالوا نصيبُك من أجرٍ فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي

فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرتُ كعظم الرِّمَّة البالي

إن الثَّوِيَّ بذي الزيتون فاحتسبي قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي

وإذا هجا كانت ألفاظه مشحونه بالسخرية والاستهزاء ، تستعجل القارىء بالضحك ، قبل أن يفهم ما تضمنت من معنى . يقول للفرزدق :

عُدوا خَضَافِ إذ الفحول تُنُجِّبَتْ والجَيْثَلُوطَ ونُخْبَةً خوارا [2]

وإذا فخرت بأمهات مجاشع فافخر بقَبْقَبٍ واذكر النَّخْوارا

---

(1) ابـن سـلام ١٣

(2) النخبة الجبان

وتأمل اختياره لهذه الألقاب العجيبة ، وإلى غرابتها المضحكة، في الجيشلوط (وهو لفظ مخترع ، كأن معناه الكذاب السلاح ، مركب من جلط وجشط وسلط) وقَبْقَب والنِخْوار .

ويقول له :

بئس الفوارس يا نَوَارُ مجَاشِعٌ   خُورٌ إذا أكلوا خزيراً ضَفْدَعوا

وتأمل هؤلاء القوم الذين يُضَفْدِعون (أي يسلحون ويضرطون) .

ويقول له :

فإن مجاشعاً فتعرَّفوهم   بنو جوخى وخجخج والقِذام

وتأمل اختياره لهذه الأسماء الغريبة ، وهي أسماء بعض من كان يشتغل بالحدادة من رقيقهم ، يتهم نساء مجاشع بهم . ويقول : هؤلاء القيون هم آباؤهم .

ثم انظر أخيراً إلى هذه الأبيات العجيبة ، ولا تتعب نفسك في فهمها ، فهي تؤدي ما أريد بها بمجرد ملامستها للأذن ، وتستفز الضحك بخصائصها الصوتية وحدها :

أنت ابنُ هاتيكَ وتيكَ تِيكا   أشبهتَ منها شبهاً يُخزيكا
أشبهتَ حُمرانَ وعُصْل كِيكا   أما ترى الحمرةَ في بنيكا
يا ابن التي كانت تُمشّي حِيكا   كان بين إسكتَيْها ديكا
فرْجُ آستها مثل مَشَقٌ فيكا   تقول لما مَلَّت التَّوريكا
عال أخاكَ العبدَ عن أبيكا

وقد وُهب جرير مع هذا الحس اللفظي الممتاز عيناً نقادة ، تقع على العيوب ووجوه النقص من أول نظرة ، وتهتدي إلى مواضع السخرية، اهتداء المغناطيس إلى دقائق الحديد المنتشر،ومن وراء هذه الملاحظة الدقيقة النقادة خيال خصب، وذكاء نفاذ ، يمده بالصور الغريبة في الافتنان ، البارعة اللاذعة ، يتناقلها الناس متندرين . فمن أمثلة هذا الهجاء الذي يعتمد على الصور ، قوله يصف بني مجاشع بالسمن والترهل ، مع قلة الغَناء في الحروب :

متى تغمز ذراع مجاشعي   تجد لحماً وليس على عظام
فمـــا صدق اللقاء مجاشعيٌّ   وما جمع القناة مع اللجام
تولون الظهور إذا لَقيتم   وتدنون الصدور من الطعام

وقوله فيهم :

تلقى ضِفَنّاً مجاشعٍ ذا لحية   وله إذا وضع الإزار حِران[١]
من كل منتفخ الوريد كأنه   بغل تقاعَسَ فوقه خُرْجان

وقوله للتيم :

وتَيْمٌ تُماشيها الكلاب إذا غدوا   ولم تمش تَيْمٌ في ظلال الخوافق
وتيم بأبواب الزُّروب أذلة   وما تهتدي تيم لِباب السُرادق
وتمسح تيم قُصَّة التيس وأسته   ولا يمسحون الدهرَ غُرةَ سابق

وقوله للبَعيث المجاشعي :

---

(١) الضفن القصير المكتنز . الحر (بكسرتين) موضع العورة من المرأة .

يَفِيشُ ابنُ حمراءِ العِجانِ كأنه   خِصيُّ بَرَاذِينٍ تَقَاعَسَ في الوحل[1]

وقوله في الأخطل :

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرَى   حكَّ أستَه وتمثل الأمثالا

وقوله للفرزدق :

إذا أسفرت يوماً نساءُ مجاشع   بدت سَوْءَةٌ مما تُجن البراقع

مَنَاخِرُ شانَتْها القيونُ كأنها   أنوفُ خنازيرِ السوادِ القَوَابع

مَبَاشيم من غِبِّ الخزير كأنما   تُصوِّتُ في أعفاجهن الضفادع[2]

وقوله له :

وأوصى جُبَيرٌ إلى غالب   وصيةَ ذي الرَّحم المُجهَد

فقال ارفقَنَّ بليٍّ الكتيف   وحكٍّ المَشَاعب بالمبرد[3]

وفاز الفرزدق بالكلبتين   وعدل من الُحمَم الأسود[4]

---

(١) ابن حمراء العجان يكنى بذلك عن ان امه اعجمية ليست بعربية . والعجان الموضع الذي بين القبل والدبر .

(٢) الخزير والخزيرة دقيق يخلط بالماء ويوضع على النار حتى يتماسك قوامه ، وقد يوضع فيه لحم. أو هو مرقة تتخذ من بلالة النخالة. الاعفاج الامعاء . وغب كل شيء عاقبته.

(٣) الكتيف ضباب الحديد ، والواحدة كتيفة ، وهي حديدة عريضة يغلق بها الباب . المشاعب جمع مشعب (على وزن منبر) وهو المثقب الذي يثقب به .

(٤) الكلبتان ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى . العدل (بفتح العين وكسرها) المثل والنظير . الحمم (بضم الحاء وفتح الميم) الفحم .

فرَقّعْ لجدك أكيـــاره وأصلح متـــاعك لا تفسد
وأدْنِ العـــلاة وأدن القدوم ووسّع لكيرك في ا َلمقـْعَد"[1]

وهو يتهم جدة الفرزدق بعبدها ُجبيّر ، ويقول إنها ولدت ابنهـــا غالباً (أبا الفرزدق) منه . ثم هو يمر بذلك مرور من ُيلقِي الخبر وكأنه حقيقـــة مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات . ومن ذلك قوله :

وَجـــدْنا ُجبَيْراً أبا غالب بعيدَ الْقَرابـــة من مَعْبَـد

ومن أمثلة الهجاء الذي يعتمد على النكتة المضحكة قوله في هجاء التـَّيْم :

ولو ُيدفَنُ التّيْمي ثم دعوتَه إلى فضل زاد جاء يسعى من القبر
وآية لؤم التيم أن لو عددتم أصابع تَيْمِيٍّ نقصن عن العشر

وقوله فيهم :

يا تيمُ إن وجوهكم ـ فتقنعوا ـ ُطبِعَتْ بالأم خاتم وكتاب
قوم إذا حضر الملوكَ وفودُهم ُنتِفَت شواربهم على الأبواب

وقوله فيهم :

وتيم يفخرون وَضرْبُ ُتيْمٍ كضَرْب الزَّيْف بار على التجار

وقوله للفرزدق في نفس المنفى ، حين طرد من الحجاز ، لسوء سيرته وإفحاشه في شعره :

---

(١) العلاة (بفتح العين) السندان الذي يطرق عليه الحديد .

نفاكَ حجيجُ البيتِ عن كلِّ مَشْعَرٍ كما رُدَّ ذو النُميَّتَين المزيَّفُ

ويقول للأخطل :

أتزعم ذا المناخر كان سِبْطـــاً يهوديـــاً وتزعمه أباكا

وهو بذلك يشير إلى ما يروى من أن الخنزير كان من بني إسرائيل فمسخ .

هذا الخيال الخصب ، وهذه النكتة البارعة ، قد جعلت جرير من أخطر الهجائين ، في إطلاق الألقاب على خصومه ، وترويج الاشاعات الباطلة ، يكررها في شعره ، ويفتنّ في عرضها ، حتى تصبح عند الناس حقيقة مؤكدة .

فهو يلقب الأخطل بدَوْبَل ، لأنه كان نصرانياً يأكل الخنزير . يقول له :

بكى دَوْبَلٌ لا يُرْقِىء اللهُ دمعَه ألا إنما يبكي من الذل دوبل[١]

ويقول :

فكم من خبيث الريح من رهط دوبل بدجلة لا تبكي عليه النوائح

ويقول :

فإنك يا خنزير تغلب إن تقل ربيعة وزنٌ من تميم تكذَّب

ويلقب أبا الفرزدق بحوض الحمار ، لأنه كان أحدب داخل الصدر طويل اللحية :

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعرفوا منه قَفــاً ومقلَّداً وعِذارا[٢]

---

(١) الدوبل الخنزير او ذكره أو ذكر ولده .

(٢) العذاران جانبا اللحية . وهو كذلك ما سال من اللجام على خد الفرس . والمقصود هنا المعنى الأول . المقلد موضع القلادة .

ويقول :

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعلموا   عَقْدَ الاخادع وانشناجَ المِرفَق[1]

شَرُّ الخليقـة من علمنـا منهم   حوضُ الحمار وشر من لم يخلق

ويلقب بني نمير بالتيوس :

فصبراً يا تيوس بني نمـــير   فإن الحرب موقدة شهـــابا

ويسمي الفرزدق القرد لقصره ودمامة وجهه ، ويلقبه أحياناً القرد الأصلع لجمعه الصلع إلى القصر والدمامة :

إنّ البَلِيَّةَ لا بليةَ مثلَهـــا   قردٌ يعلِّـــل نفسه بالباطل

ويقول :

ولقد صككت بني الفَدَوْكَس صَكَّةً   فلقوا كما لقي القُرَيْد الأصلع[2]

ويلقب رجلاً من سعد اسمه أبو كامل (ضرة الأرنب) :

أخالفت سعداً وحكامهـا   أيا ضَرَّةَ الأرنب الحافـــل

ويلقب رجلاً آخر اسمه ميجاس (دودة الحَش) :

لو كان غيرُك يا ميجاسُ يشتمنا   يا دودَةَ الحَشِّ يا ضُلَّ بن ضُلَّال[3]

---

(١) الاخدع عرق في الرقبة وهو فرع من الوريد ، والاخادع جمعه . يقال لوى فلان أخدعه أي امرض وتكبر ، وسوى أخدعه أي ترك الكبر . المرفق مفصل الذراع ، وانشناجه تقبضه.

(٢) بنو الفدوكس بيت من بيوت تغلب : وهم قوم الاخطل .

(٣) الحش الكنيف .

ويلقب شَبَّة بن عقال (سلح النعامة) :

فضح الكتيبة يوم يضرط قائماً سَلْحُ النعامة شَبَّةُ بن عِقَال

وجرير بعد هذا أمهر الناس في اختراع الإشاعات وترويجها. يُصْهِر الفرزدق إلى قوم من بكر حين يخطب ابنتهم حدراء ، فلا يزال جرير يشنع بها ، حتى يمنعها أهلها منه ، كفاً لشره وهجائه . ويتهم ليلى أم غالب (جدة الفرزدق) بجبير عبدها – وكان قيناً – ويكرر ذلك حتى يشيع بين الناس .

تلقى نساء مجاشع من ريحهم مرضى وهنّ إلى جُبَير نُزَّع
ليلى التي زفرت وقالت حبذا عَرَق القِيانة من جبير ينبع

ويتهم جِعَثِن أخت الفرزدق برجل من مِنْقَر ، ولا يزال يفتنّ في تصوير اتصاله أفحش افتنان ، ويفصل أقذر تفصيل ، حتى تصبح جعثن سبة الفرزدق وقومه ، ولا يرى الناس قوله فيها إلا حقيقة . ثم يقر في آخر عمره بأنها كانت من صالحات النساء ويستغفر الله .

كان الفرزدق يشنع بجرير ، ويختلق الإشاعات حوله وحول قومه . ولكن لم تكن له جرأة جرير وبراعته ، فهو يشنع بصلة بني يربوع بالحمير ، وهو شيء بعيد عن المعقول ، قد يتندر به الناس ، ولكنهم لا يصدقونه . فأما جرير فهو يلتقط مادة هجائه من الواقع المشاهد ، القريب من المعقول .

وقد كان جرير يعالج موضوعاته معالجة الفنان الموهوب ، الذي يلمّح ولا يصرح ، ويتناول الأشياء من أطرافها مترفقاً ، ويشير إليها ولا يلمسها .

يقول في أعور نبهان :

وأعورَ من نَبْهانَ أمّا نهارُه فأعمى وأمّا ليلُه فبصير

ويقول لعمر بن لَجأ معيراً بأمه :

ما بال بَرْزة في المَنْحَاة إذ نذرت صومَ المحرَّم إن لم يطلع القمر

ويقول له :

ولقد هممتُ بأن أدمّر بارقاً فرقبتُ فيهم عمَّنا إسحاقا

وهو بذلك ينفيهم عن العرب وينسبهم إلى بني إسرائيل. وأبرع ما في البيت أنه يدخر كل ما فيه من لذع للكلمة الأخيرة . فالقارىء لا يرى بالبيت بأساً حتى تُلقى هذه الكلمة كالقنبلة .

ويقول لتَيْم :

ترى الأبطال قد كُلِموا وتَيْمٌ صحيحو الجِلْد من أثر الكلوم

ويقول للفرزدق :

فإن مجاشعاً جمعوا فِيَاشاً وأستاهاً إذا فَزِعوا رِطابا

يتهمهم بالجبن ، ويقول إنهم يسلحون لفرط ما بهم من فزع .

ويقول في نساء بني نُمَيْر :

إذا قامت ـ لغير صلاة وِتْرٍ ـ بُعَيْدَ النوم أنبحَت الكلابا

ويقول لبني مجاشع :

الظاعنون على أهواء نسوتهم والخافضون بدارٍ غيرِ مِحْلال

وجرير بعد كل هذا ساخر من خصمه ، متهكم به ، لا تراه غاضباً أبداً . وقد جعل هذا الهدوء لسخريته لذعاً كأنه السياط . انظر إلى قوله في تعيير بني مجاشع بلَقيط بن زُرارة ، الذي قتل في بعض الحروب :

وخورُ مجاشعٍ تركوا لَقيطــاً   وقالوا حِنْوَ عينِك والغرابا[1]

جعلهم يتحدثون إلى الميت ، ويطلبون إليه أن يحافظ على عينه من الغراب.

وقوله للتيم:

وإنك لو لقيت عَبيــد تَيْم   وتَيْماً قلتَ أيُّهم العبيــد

وقوله للأخطل :

أدِّ الجِزَى ودع الفخار بتغلب   واخسأْ بمنزلة الذليــل الصاغر

وقوله له :

قال الأُخيطل إذ رأى راياتنا   يا مار سَرْجِسَ لا نريد قتالا

وقوله :

إذا ما كان خالك تغلبيــاً   فبادِلْ إن وجدتَ له بِدالا

أبعلَ التغلبية لا تطأهــا   فلا ديِناً أصبتَ ولا جَمالا

---

(١) حنو العين عظم الحاجب المنحني على العين . يهزء به فيقول : احفظ الغراب بعينيك، فإن انصرفت من مراقبته سقط عليها فأكلها .

وقوله له :

قيسٌ وخِنْدِفُ إن عددت فَعَالهم خير وأكرم من أبيك فعـــالا

إن حَرَّموك لتحرُمَنَّ على العِدا أو حللوك لتؤكَلَنَّ حلالا

ويقول للفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مِربْعاً أبشر بطول سلامـــة يا مِرَبّع

ويقول معيراً إياه قتل الزبير بن العوام وهو في جوار قومه مجاشع :

فأدُّوا حَوارِيَّ الرسول ورَحْلَه إلى أهله ثم افخروا بعدُ أو دَعُوا

كل هذه الخصال كفلت لشعر جرير السيرورة والذيوع ، وجعلت منه أبرع هجاء عرفه الأدب العربي في مهاجـــة الأفراد . فلم يعرف الأدب العربي شاعراً تعرض له مثلُ هذا العدد الضخم من الشعراء الذين تعرضوا لجرير ، فكان لا يمل الرد عليهم ولا يضيق به . وكأن مواهب هذا الرجل الشعرية ، لم تكن تسخو وتجود إلا على الهجاء .

الفرزدق

الحديث عن جرير لا بد أن يستدعي الحديث عن الفرزدق ، فهما صِنْوان لا يفترقان ، ربطت بينهما الأقدار في النشأة ، فكان مولدهما في عامين متقاربين، سبق إليه الفرزدق ببضع سنوات . وربطت بينهما في الوفاة فماتا في عام واحد ، وربطت بينهما في النسب فكانا من قبيلة واحدة ، وربطت بينهما بعد كل ذلك في هذا التلاحم والتنافس ، الذي دام بينهما نحواً من أربعين عاماً ، يتهاجيان بما لم يتهاجَ بمثله شاعران في جاهلية أو إسلام ، كما يقول ابن سلام .

ويتفق الذين أرخوا لهما على أنهما ماتا في عام واحد ، ثم يختلفون في تحديده، بما لا يسبق عام ١١٠ هـ ، ولا يتأخر عن ١١٤ [1] . ويرجح أبو الفرج أن تكون وفاتها في عام ١١٤ هـ ، لأن للفرزدق شعراً في يوم كاظمة (١١٢ هـ) ، ولا بد أن تتأخر وفاته عنه . ويؤيد ما يذهب إليه أبو الفرج أن الفرزدق مدح خالد بن عبد الملك بن الحكم والي المدينة ، وخالد هذا قد وليها عام ١١٤ هـ . ويتفق المؤرخون كذلك على أنـــه جاوز التسعين . ويؤيد ذلك عندنا قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها عبدالله بن عبد الأعلى بن أبي عَمْرة الشَّيباني :

سما لك شوق من نَوَار ودونها   مَهَامِهُ غُبْرٌ آجناتُ المَناهِل [2]

ومن بعد أن أكملتُ تسعين حِجَّةً   وفارقتُ عن حِلْمِ النُّهى كلَّ جاهل

---

(١) العقد الفريد ٦ : ٢٢٢ ، ابن خلكان ٢ : ٢٦٥ ، الشعر والشعراء ١٧٦ و ١٧٩

(٢) المهامه جمع مهمه وهي الصحراء . المنهل الآجن الراكد الفاسد .

وقول جرير في رثائه :

فتى عاش يبني المجد تسعين حجة ... وكان إلى الخيرات والمجد يرتقي

فمولد الفرزدق على ذلك حوالى عام ٢٤ هـ ، أو قبله بقليل .

ويؤيد ذلك قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ – ٩٦ هـ) . ويفهم من جوها أنها في أوائل عهده بالخلافة :

ألم يك جهلاً بعد ستين حجة ... تذكُرُ أم الفضل والرأسُ أشيب

ويؤيد ذلك أيضاً قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ – ١٠٥) :

تقول أما ينهاك عن طلب الصبا ... لِداتُك قد شابوا وإن كنتَ أكبرا

من ابن الثمانين الذي ليس وارداً ... ولا جائياً من غَيْبَةٍ مُتَنَظَّرا

وقوله بعد ذلك في مدح هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ – ١٢٥ هـ) ، ولا بد أن يكون في أول خلافته :

رمتني بالثمانين الليالي ... وسهمُ الدهر أصوبُ سهمِ رامي

نستطيع إذن أن نطمئن إلى هذا التاريخ ، الذي يصور الفرزدق أسن من جرير ببضع سنوات ، وأن نرفض ما يتعارض معه من الروايات ، مثل قول صاحب الأغاني [1] « حج الفرزدق بعد ما كبر وقد أتت له سبعون سنة ، وكان هشام بن عبد الملك قد حج في ذلك العام » . فالمعروف أن هشاماً حج عام

---

(١) الأغاني ١٩ : ٤٠ .

١٠٦ هـ . فمولد الفرزدق على هذه الرواية عام ٣٦ وهو مناقض لما يروي أبوالفرج نفسه في موضع آخر [١] ، من أن الفرزدق كان يجيد الهجاء في أيام عثمان (٢٣ - ٣٥ هـ) . ومناقض كذلك لما يروي في موضع ثالث [٢] من أن أباه وفد به على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد موقعة الجمل (٣٦ هـ)، فقال له : إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه . فقال له : علمه القرآن .

وإذا كانت الأقدار قد ألفت بين جرير والفرزدق من وجوه ، فقد خالفت بينهما من وجوه أخرى ، فكانا متناقضين من نواحي كثيرة . فجرير خامل الأجداد ، شديد الشعور بنقصه ، ساخط على القدر الذي لم يجيء به إلى الدنيا إلا عن طريق أبيه . وهو عاق له ضيق به . أما الفرزدق فهو عظيم الأب والجد، شديد الشعور بامتيازه وتفوقه ، راض عن آبائه ، شديد الفخر بهم . وجرير رقيق القلب ، عميق الإيمان ، ليس في سيرته خروج على الدين أو العرف . وهو مسالم ، حسن العلاقة بالولاة والحكام وبالناس . أما الفرزدق فهو فظ غليظ القلب ، لم يدخل الإسلام قلبه ولم يتغلغل فيه ، ففي سيرته خروج على العرف والدين . وهو جلف جاف كثير الخلاف ، مولع بالمشاكسة والمراء . ولذلك ساءت علاقته بالولاة جميعاً . وكان جرير لرقته وإيثاره حياة الوداعة والهدوء لا يتكسب بالهجاء . وكان يبتذل نفسه في السؤال ، ويهينها في سبيل المال . أما الفرزدق فكان شديد الاعتداد بشخصه ، يفرض نفسه على الناس فرضاً، ويسألهم في عنف ، وكأنه يرى في مالهم حقاً له ، ويهجوهم إذا امتنعوا عنه وأبوا أن يبذلوا له . وهو كذلك شديد الاعتداد بنفسه حين يسأل الخلفاء والولاة ، لا يتوسل إليهم إلا بنسبه ومكانته من قبيلته . وكان جرير زبيري الهوى قيسي النزعة ، يمثل الحزب اليربوعي من تميم . أما الفرزدق فكان لا يعتد بغير قبيلته، ولا يفكر إلا في حسبه وشرف أجداده ، فهو يمثل حزب الأحنف من تميم .

---

(١) الأغاني ١٩ : ٦

(٢) الأغاني ١٩ : ٥٠

وجد الفرزدق في جرير منافساً خطيراً له حين نبغ في الشعر ، ورآه يسرع إلى المجد ، وقد أوشك أن يبتلع كل من اعترض طريقه من شعراء تميم ، حتى كاد يحتل من القبيلة مكان الشاعر الأول ، فحسده هذا الرجل التياه بنفسه ، ووقف في طريقه ، ليضع حداً لتقدم هذا الخامل ، الذي يريد أن يحتل بشعره من تميم مكاناً ينافسه به. وقد يتحدث الرواة عن بعض الأسباب المباشرة لتهاجي هذين الشاعرين ، ولكن المدقق لقراءة شعرهما وما تبادلا من نقائض ، يحس أن التنافس على الزعامة الشعرية في القبيلة ، والنزاعَ حول شرف الدفاع عنها هو الدافع الأول إلى هذه المعركة الشعرية الخطيرة ، التي لم تنته إلا بموت الفرزدق .

يقول الفرزدق مخاطباً جرير :

واسأل بنا وبكم إذا وردَتْ مِنًى ... أطرافُ كلِّ قبيلةٍ مَنْ يَسمَع

صوتي وصوتَك، يخبروك من الذي ... عن كل مَكْرُمَةٍ لِخنْدِف يَدْفَع[1]

ويقول له :

ستعلم يا حيض المراغة أيُّنا ... له حين يدعو من تميم قَماقِمُه[2]

ألم تَعْوِ عن قيس بن عَيْلان باسطاً ... إليهم يَدَيْ مستطعِمٍ لا تُطاعِمُه

بأعراض قوم خِندِفيِّين منهمُ ... لُؤَيُّ بن فِهْرٍ والسُّعودُ ودارِمُه

ويقول له :

منعتُ تميماً منكَ ، إني أنا ابنها ... وراجلُها المعروفُ عند المواسم

أنا ابنُ تميمٍ والمحامي وراءها ... إذا أسلَم الجاني ذِمارَ المَحارم

---

(١) خندف زوجة الياس بن مضر . وهي الام التي يجتمع عندها تميم وقريش .

(٢) القمقام (بفتح القاف وضمها) السيد كثير العطاء .

ونلاحظ هذا التنافس كذلك حين يَعرِض الشاعران لذكر سعد – وهي من أشرف فروع تميم وأكبرها ، فيها الزِبْرِقان بن بدر والأحنف بن قيس – حيث نرى أن كلا منهما يحاول أن يكسب تأييدها ، وأن يضمها إلى جانبه .

يقول جرير في بعض نقائضه :

ولم أنس من سَعْدٍ بقُصْوان مَشْهَداً — وبالأُدَمى ما دامت العينُ تَطْرِفُ
وسعدٌ إذا صاح العدو بسَرْحِهم — أبَوا أن يُهَدُّو للصياح فأزْحموا
ديارُ بني سعدٍ ولا سعد بعدَهم — عفَتْ غيرَ أنقاءِ بيَبْرِينَ تَعزِف
اذا نزَلَتْ أسلافُ سعدٍ بلادَها — وأثقالُ سعدٍ ظلت الأرضُ تَرْجف

فيجيبه الفرزدق بقوله :

تُبَكّي على سعد وسعدٌ مقيمةٌ — بيَبْرِينَ منهم من يزيد ويُضعِف
على ما وراء الردم لو دُكَّ منهمُ — لماجوا كما ماج الجرادُ وطَوَّفوا [1]
فهم يعدِلون الأرض لولاهم استوت — على الناس أو كادَتْ تسير فتُنسَف
ولو أن سعداً أقبلت من بلادها — لجاءت بيبرين الليالي تَزَحّف [2]

كان الفرزدق عميق الإحساس بتفوقه وامتيــازه . فجده صعصعة محيي الوئيدات ، الذي جعل على نفسه أن لا يسمع بموءودة إلا فداها ، فجاء الإسلام

---

(١) يقصد بالردم سد ذي القرنين الذي ورد ذكره في سورة الكهف . بنـاه على أهـل ياجوج وماجوج ليكف اذاهم عن الناس . طوفوا خرجوا كالطوفان .
(٢) هذا من القلب ، وهو شائع في شعر العرب . أراد : لجاءت بيبرين (وهو موضع) بالليالي (اي بجيش مثل الليالي) .

وقد فدى ثلاثمائة موءودة أو أربعمائة ، فيما يقول الرواة . وأبوه غالب النبي يذهب في كرمه إلى حد الإسراف والإتلاف ، يعطي النـاس ولا يسألهم فيم يسألونه ، ويبلغ به جنون الكرم والحرص على التفوق فيه أن يعقر كل إبله ، وهي تتجاوز المائة ، بل تبلغ أربعمائة فيما يرى بعض الرواة ، فيُنْهِبَها الناس منافسةً لرجل منهم سولت له نفسه أن يجاريه ويضاهي نفسه به [1] .

كان الفرزدق يحس هـــذا الامتياز منذ نشأته ، فهو طموح مفتون مِلْءُ رأسه الغرور . ويبدو ذلك في القطعة ، التي يظهر أنها من أول شعره ، يخاطب بها أمه وقد أرسلته في غنم يرعاها – وكان غلاماً – فأغار عليها الذئب فاختطف كبشاً ، فلما راح إليها لامته :

ولائمتي يوماً على ما أتت بـه	صروفُ الليالي والخطوبُ القَوارع
فقلتُ لها فِيئِي إليك وأقصري	فأومُ الفتى سيف بوصليه قاطع [2]
تلوم على أن صبَّح الذئبُ ضأنَها	فألوى بكبشٍ وهو في الرَّعي راتع
وقد مر حول بعد حول وأشهُرٌ	عليه ببؤسٍ وهو ظمآن جائع
فلما رأى الإقدام حزماً وأنـه	أخو الموت من سُدَّت عليه المطالع
أغار على خوفٍ وصادف غِرَّةً	فلاقى التي كانتْ عليها المَطامِع
وما كنتُ مِضياعاً ولكنَّ همتي	سوى الرَّعي مفطوماً وإذ أنا يافع
أبيتُ أسوم النفسَ كلَّ عظيمة	إذا وَطُوَّتْ بالمكثِرين المضاجع

(1) الاغاني ١٩ : ٢ – ٥

(2) فيئي اي ارجعي . اوم الفتى ظمؤه ورغبته . يقول اني لاتمنى الموت بسيف قاطع من الحاحك في اللوم .

ويبدو هذا الطموح الجريء في قصة قدومه على معاوية ، مطالباً بميراث عمه الحُتات وكان قد قدم عليه وأخذ عطاءه ألف دينار ، ثم لم يلبث أن مات. فردّ معاوية عطاءه إلى بيت المال ، فقدم عليه الفرزدق – وكان غلاماً – فقال :

أبوك وعمي يا معاوي ورّثا — تراثاً فيحتاز التراثَ أقاربُه

فما بالُ ميراثِ الحُتاتِ أكلتَه — وميراثُ حربٍ جامدٌ لكَ ذائبُه

فلو كان هذا الأمرُ في جاهليّةٍ — علمتَ منَ المولى القليلُ حَلَايبُه[1]

ولو كان هذا الأمرُ في غيرِ مُلْكِكم — لأداهُ لي أو غَصَّ بالماء شاربُه

وكم من أبٍ لي يا معاويَ لم يكن — أبوكَ الذي من عبد شمس يُقاربه

وقد صادف هذا الطموح وهذا الشعور بالامتياز من طبع الفرزدق خشونة وجفاء ، فبلغ حد الجنون والمرض . فهو لا يرى أن قبيلته ستجد من يملأ فراغه ويحل محله إن مات :

ألا ليت شعري ما تقول مجاشع — إذا قال راعي النِّيب أودَى الفرزدق

ألم أكُ أكفيها وأحمي ذِمارها — وأبلغ أقصى ما به مُتَعَلَّق

ويقول مفاخراً بتحمل غرامات قومه :

أرى كلَّ جانٍ من تميم إذا جنى — لهم حَدَثاً كانت عليَّ جرائمُه

وقد علم الجانون أنَّ ابنَ غالب — لكلِّ دمٍ قالوا هرقناه غارِمُه

---

(١) الحلايب جمع حلبة (بفتح الحاء وسكون اللام) وهي الدفعة من الخيل في الرهان . القليل حلايبه اي الضعيف .

وهو لا يدع الفخر بنفسه بين أيدي الملوك والأمراء حين يمدحهم . يقول في قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز وهو والي الحجاز :

وقومٍ أبوهم غالبٌ أنا مالُهم ... وعامٍ تمَشّى بالفِراء أراملُه

ومجدٍ أذودالناسأن يَلحَقوا به ... وما أحدٌ أو يبلغَ الشمسَ نائلُه

أنا الخِندِفيُّ الحَنظَليُّ الذي به ... إذا جَمعَتْ ركبانَ جمع منازلُه

أرى كلَّ قومٍ ودَّ أكرمُهم أباً ... إذا ما انتمى لو كان مِنَّا أوائلُه

وهو يقرن نفسه به حين يقول :

إليكابنَ لَيلَى باابن لَيلَىتجوَّزَتْ ... فلاةً ودوايًّا دِفانًا مناهِلُه [1]

ويفد مع جرير على يزيد بن عبد الملك ، وبين يـــديه بُنيّةٌ له ، فيقول له الفرزدق : إن يكن دارم يضرب فيها فهي أكرم العرب [2] .

ويقول في قصيدة يمدح بها مِسْمَع بن المنذر بن الجارود :

لها سُورةٌ كان المُعلَّى بنى لها ... مكارمَ ما كانت يدان تنالها [3]

من الناس إلا من قريش ودارم ... إذا سبقَ الأيدي القصارَ طِوالُها

وقد ظل الفرزدق زماناً وهو ممتنع على خلفاء بني أمية ، يمدحهم من بعيد ،

---

(١) ليلى أم عمر بن عبدالعزيز ، واسم جدة الفرزدق لأبيه ليلى كذلك . الفلاة والداوي والدوى والدو كلها أسماء للصحراء . دفان المناهل أي مطموسة من شدة الرياح بها. فالمسافر فيها لا يجد حاجته من المـــاء .

(٢) الأغـاني ١٩ : ٧ . (٣) السورة (بضم السين) المنزلة والشرف .

ولا يرحل إليهم . وقد كان سليمان أولَ من رحل إليه منهم، فهو يقول في أول قصيدة مدحه بها :

فلو كان لي بالشام مثلَ الذي جبَتْ ثقيفُ بامصار العراق وأكثرا[1]
فقيل أأتِه لم آته الدهرَ ما دعا حمامٌ على ساقٍ هديلا فقرقرا[2]
تركتُ بني حرْبٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتيه والمتَخيَّرا
أباك . وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أو ليؤْمنَ أوْجرا[3]
فما كنتُ عن نفسي لأرحلَ طائعاً إلى الشام حتى كنتَ أنت المؤمّرا
فحبُّكَ أغشاني بلاداً بغيضَةً إليَّ وروميًّا بعمَّانَ أقشرا[4]

وهو لا يرى لنفسه وقبيلته كفؤاً إلا قريشاً . يقول :

وليس بعَدْلٍ إن سبَبْتُ مُقاعِساً بآبائي الشمِّ الكرام الخضَارم
ولكنَّ عدلاً لو سببتُ وسبَّني بنو عبد شمس من مَنافٍ وهاشم

ويقول لابن الزبير ، حين احتكمت إليه النوّار فحكم لها ، وتعرض الفرزدق بعد ذلك لابن الزبير بشعر أغضبه ، فقال له : يا ألأم الناس ! هل أنت وقومك إلا جالية العرب ؟ يقصد بذلك إجلاء تميم عن تِهامة قبل

---

(1) مثل الذي جبت ثقيف يقصد الحجاج بن يوسف لانه من ثقيف . يقول لو كان لي في الشام مثل ما يجبى الحجاج من مال العراق ما أتيتها . انما جئت من أجلك .

(2) القرقرة صوت ترجيع الحمام وهديله .

(3) الاوجر الخائف الوجل .

(4) عمان كانت من أعمال دمشق ، سميت باسم عمان بن لوط عليه السلام . الاقشر الاحمر

الإسلام بمائة وخمسين عاماً لوثوبهم على البيت واستلابه . فأجابه الفرزدق بأبيات بدأها بقوله [1] :

فإن تَغْضَبْ قريشٌ ثم تغضَب ... فإن الأرضَ ترعاها تميم

بل إنه لا يعدل بقبيلته شيئاً ، ولا يرى لهم كفؤاً أو نظيراً . فلولاهم لضاع الإسلام والمسلمون :

وأفضلُ من يمشي على الأرض حيُّنا ... وما ضَمِنَتْ في الذاهبين قبورُها
لنا دونَ مَن تحتَ السماء عليهم ... من الناس طُرًّا شمسُها وبدورُها
أخذنا بآفــاق السماء عليهم ... لنا بَرُّها من دونهم وبحورُها
ولو أنّ أرضَ المسلمين يحوطُها ... سوانا من الأحياء ضاعَتْ ثُغورُها
لنـا الجن قد دانتْ وكلُّ قبيلةٍ ... يدين مُصَلُّوها لنا وكَفُورُها

ويقول :

ولو أنَّ أمَّ الناس حواء حاربَتْ ... تميمَ بن مُرٍّ لم تجد من يُجيرُها

وقدم على يزيد بن عُمَيْر الأسيدي – وكان على البصرة – فوقف على بابه ، فأبطأ في الإذن له . فغضب الفرزدق وانصرف قائلاً :

ألم يَكُ من نُكْسِ الزمان على أستِه ... وقوفي على باب الوَقّاحِ أزاوِلُه
فإن يك شرطياً فإني ابن غالب ... إذا جمعَتْ رُكْبانَ فَجٍّ منازِلُه

---

(1) الاغاني ٩ : ٣٢٨

وكان الفرزدق يتكلف في حياته مظهر السادة ، فكان لا يُرى إلا مُقنّعاً – وكان القناع من سيما الرؤساء – قال الجاحظ : والقناع من سيما الرؤساء. والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أن رسول الله ﷺ كان لا يكاد يُرى إلا مقنّعاً [1] .

يقول له جرير :

وتقول ظبيةُ إذ رأتك مقنّعاً   أنت الخبيثُ عِمامةً وإزارا

ويقول له:

وتقول جِعْثِنُ إذ رأتك مقنّعاً   قُبِّحْتَ من أسدٍ أبي أشبال

وقد كثرت الروايات واضطربت الأقوال في ميل الفرزدق السياسي ، فبعض هذه الروايات يصوره أموياً مروانياً ، وبعضها يصوره شيعياً. ويستطيع الباحث أن يجد لكل هذه الروايات ما يؤيدها من شعره . فمما يصور زبيريته ، قوله يؤنب أبا حاضر الأسدي لفراقه قومه – وكانوا زبيرية – وانضوائه مع مالك بن مِسْمَع إلى الأزْد – وكانوا مراونية :

عجبتُ لأقوامٍ تميمٌ أبوهم   وهم في بني سعدٍ عِراضُ المبَارِك
وكانوا سَراةَ الحيِّ قبل مسيرهم   إلى الأزْدِ مُصفَراً لِحاها ومالك
ونحن نفينا مالكاً عن بلادنا   ونحن فقأنا عينه بالنيازك [2]
فما ظنكم بابن الحواريّ مُصعَبٍ   إذا افترَّ عن أنيابه غيرَ ضاحك
أبا حاضر إن يحضر البأسُ تلقني   على سابحٍ إبْزِيمُهُ بالسنابك [3]

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٥٨ (٢) النيزك الرمح القصير

(٣) الإبزيم حلقة من حديد في طرف الحزام يشد إليها طرفه الآخر . السنبك (على وزن هدهد) طرف الحافر وطرف حلية السيف . وسنابك الأرض أطرافها .

ومما يصور تشيعه ، القصيدةُ المشهورة التي تنسب إليه في مدح علي بن الحسين . والتي ينكر بعض المؤرخين نسبتها إليه :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ

ويؤيد تشيعَه ما يروى عن تشيع أبيه وعمه أعين – أبي النوار – [1].

أما الشعر الذي يصور مروانيته فهو كثير يملأ ديوانه . وهو في رأينا لا يدل على شيء ، لأن كل الشعراء كانوا يمدحون الأمويين في ذلك الوقت ، عن رغبة أو رهبة .

وإذا تتبعنا سياسته العصبية ، وجدناه يؤيد قبيلة كلب المعروفة بعصبيتها الأموية في مثل قوله :

إذا انتَجَعَتْ كلبٌ عليكم فمكِّنوا   لها الدارَ من سهل المَبَاءَةِ والشِّرْب [2]

فإنهم الأحلافُ ، والغيثُ مِرَّةً   يكون بشرقٍ من بلادٍ ومن غرب

أشدُّ حبالٍ بين حيَّيْن مِرَّةً   حبالٌ أُمِرَّت من تميمٍ ومن كلب [3]

وقوله :

وإنّا وكلباً إخوةٌ بيننا عُرًى   من العَقْدِ قد شَدَّ القُوى من يُغيرها [4]

فمن يأتنا يرجو تفرُّقَ بَيْنِنا   يُلاقِ جبالاً دون ذاك وُعورها

---

(1) الأغاني ١٩ : ٦ – نقائض جرير والأخطل ٢٠٢

(٢) الانتجاع طلب الكلأ والمرعى . المباءة المنزل . الشرب (بالفتح) مصدر شرب ، (وبالكسر) الماء المشروب والمورد .

(3) المرة (بكسر الميم وتشديد الراء) القوة . أمر الحبل اجاد فتله . يقول إن الحلف الذي بين قومه وبين كلب قوي متين . وكانت تميم حالفت كلبا في فتنة عثمان .

(4) القوى جمع قوة وهو الحبل . اغار الفتل شدده وأحكمه .

نُجير على كلبٍ فيَمضِي جوارُنا ويَعقِد من كلبٍ علينا مجيرُها[١]

ويهاجم قيساً مهاجمة صريحة في مثل قوله :

رمى اللهُ فيما بين قيسٍ وبينَنا على كلِّ حالٍ بالعداوة والبعد

وزادهُم رَغماً وعضَّتْ رقابَهم بأيدي تميم مُصلَتاتٌ من الهِنْد

ولكنه يعتز بهم ويربط بينهم وبين قومه في مواضع أخرى فيقول :

إذا خِندِفٌ بالأبطحين تغطرفتْ ورائي وقيسٌ ذَيَّلَتْ بالمُشرَّق

فما أحدٌ إلاّ يرانا أمامَه وأربابَه من فوقهِ حين نلتقي

ومن يلق بحرَيْنا اذا ما تناطحا بخندِفٍ أو قيسِ بن عَيْلان يَغرَق

هما جبلا الله اللذان ذُراهُما مع النجم في أعلى السماء المُحلِّق

فتحنا بإذن الله كلَّ مدينةٍ من الهند أو بابٍ من الروم مغلَق

ويقول :

إذا زخرَتْ قيسٌ وخِندِفُ والتقى صياهما اذ طاح كلُّ صميم

فما أحدٌ من غيرهِم بطريقِهم من الناس الا منهُمُ بمُقيم

..إذا مُضَرُ الحمراءُ يوماً تعطَّفَتْ عليَّ وقد دَقَّ اللجامَ شَكيمي

أبَوا أن أسومَ الناسَ إلا ظُلامةً وكنتُ ابنَ ضِرغامِ العدوِّ ظَلُوم

---

(١) يقول اذا اجرنا كان لجارنا حرمة عند كلب . وكذلك هي تجير علينا فننفذ ما عقدت ونحترم جوارها .

ويهاجم اليمنية متعصباً لقيس ، حين قَتَل المنذرُ بن الجارود عمرَ بن يزيد الأسيدي . ويبلغ من عنفه في ذلك ، أن يهاجم الخليفة هشام بن عبد الملك ، الذي يحمي هذا الحزب اليمني ويتهدده :

فمَنْ مبلغٌ بالشام قيساً وخندِفا ... أحاديثَ ما يُشفَى ببرد سِقامُها
أحاديثَ منـــا نشتكيها إليهم ... ومُظلِمةً يغشى الوجوهَ ظلامُها
فإنْ مَنْ بها لم يُنكِرِ الضيمَ منهم ... فيَغضَب منها كهلُها وغلامُها
يعُدْ مثلُها من مثلِهم فيُنكِّلوا ... فيعلمَ أهلُ الجوْرِ كيف انتقامُها[1]
بغَلبـاء من جمهورِها مضريةٍ ... تُزايلُ فيها أذرعَ القوم لأمُها[2]
فغيِّرْ أميرَ المؤمنين فإنهـــا ... يمانيةٌ حمقـــاء أنتَ هِشامُها

والواقع أن مثل هذه الروايات المتنافرة ، وهذا الشعر المتناقض ، يسهل فهمه إذا لم ننس ما قررنا من أن الفرزدق لم يكن يهب ولاءه وإخلاصه إلا لقومه من تميم . وهو بعد هذا مستقل في تفكيره السياسي – إن جاز لنا أن نستعير هذا الاصطلاح المعاصر ، لذلك العصر الغابر – فهو ينقد كل شيء ، ولا يتمسك بتأييد الدولة في كل سياستهـــا ، ولكنه يهاجمها حين يبدو له أن الولاة لا يسيرون سيرة عادلة ، وحين يرى أن سياسة الدولة أو الحكام ، تتعارض مع مصلحة تميم .

وبينما نجد جريراً في مدائحه يكثر من الشكوى ، ويبالغ في وصف بؤسه وفقر أهله ، استدراراً للعطف ، واستكثاراً من العطاء ، نجد الفرزدق لا يتوسل إلى ممدوحيه إلا بكرمه ونسبه ، فهو يسألهم في إباء وترفع. يمدح عبد الرحمن بن عبدالله بن شَيْبة الثقفي – وأمه أم الحكم ابنة أبي سفيان – فيقول :

---

(١) يشير الى خروج يزيد بن المهلب من قبل عل الدولة (وهو يمني من الأزد)

(٢) اللأمة (بفتح وهمز) الدرع

وما ساقَها من حاجةٍ أجحفَتْ بها　　اليك ولا من قِلَّةٍ في مجاشع
ولكنها اختارَتْ بلادَكَ رغبةً　　على ما سواها من ثنايا المَطَالع[1]

ويمدح الوليد بن عبد الملك ، فلا يتوسل إليه بفقره كما يفعل جرير ، ولكنه يتوسل إليه بشرفه قائلاً :

أغِثْني بكُنْهِيي من نزارٍ ومُقْبَلِي　　فإني كريمُ المشرقَين وشاعرُه

وهو يفرض نفسه على الناس ، فيطالبهم وكأنه يجبي ضريبة مفروضة يدفعونها اتقاء شره . كانت مَيَّةُ بنت الصَّلت بن حُرَيث بن جابر الحَنَفي تعطيه في كل سنة خمسمائة درهم ، فلم يزل يجيء إليها مطالباً بها ، حتى خرج إليه ابن أخ لها فطرده[2] . وأتى خالدبن عبدالله القَسْري، يُستحمله في ديات حملها فقال له : إيهٍ يا فرزدق ! كأني بك قد قلت : آتي الحائكَ ابن الحائك[3] ، فآخذ من ماله إن أعطاني ، أو أذمه إن منعني . فأنا حائك ابن حائك ولست أعطيك شيئاً ، فاذمني كيف شئت . فهجاه الفرزدق بشعر كثير منه :

ليتني في بَجِيلة اللؤم حتى　　يُعزَلَ العامـلُ الذي بالعراق[4]
فإذا عامـلُ العراقَيْن ولَّى　　عُدْتُ في أسرةِ الكرامِ العِتاق

كان الفرزدق مغروراً شديد الاعتداد بنفسه . وقد جعله هذا الغرور عياباً

---

(١) وما ساقها الضمير يعود الى ناقته . الثنايا جمع ثنية (بفتح ثم كسر ثم ياء مشددة) وهي الطريق في الجبل . المطالع المرتفعات .

(٢) ديوان الفرزدق ٣٩٤ .

(٣) الحائك بن الحائك ، لأنه يمني ، واليمن تعير باحتراف الحياكة والملاحة . والعرب تحتقر أصحاب الصناعات .

(٤) بجيلة قبيلة يمنية ينتسب اليها خالد بن عبد الله القسري والي العراق .

الناس ، لا يعجبه شيء ، لأنه لا ينظر إليهم إلا مستخفاً ، ولا يراهم إلا دونه . وهو من هذه الناحية يشبه المتنبي شبهاً كبيراً . كان الفرزدق يحس امتيازه بآبائه وأجداده إلى حد الجنون ، وكان المتنبي يحس امتيازه بمواهبه ، ويغلو في تقديرها إلى حد الهوس والخبال . وقد أسرف المتنبي في هجاء الناس حتى قتله الهجاء ، وأسرف الفرزدق في الهجاء فعرضه ذلك لشر متصل ، فلم يكن إلا سجيناً أو فاراً من السجن ، لاجئاً إلى من ينقذه منه . وقد ساءت علاقته بكل ولاة العراق ، ولم يسلم من هجائه منهم أحد . هجا زياد بن أبيه ، وظل طول حياته فاراً منه ، لم يستقر حتى مات . ثم هجا الحجاج من بعده ، وهجا عُمر بن هُبَيرة ، وهجا خالد بن عبد الله القسري ، بل لقد هجا الخليفة هشام بن عبدالملك ، حين حج معه فلم يعطه إلا خمسمائة درهم فقال فيه :

يُرددُني بين المدينة والتي إليها قلوبُ الناس يَهوي مُنيبُها
يُقلّب عيناً لم تكن لخليفةٍ مشوَّهــةً حولاء بادٍ عيوبُها[1]

وقال فيه :

لَبِئس أميرُ المؤمنين أميرُكم وبئس أميرُ المؤمنين هشام
تنَايَكُ عينــاه اذا ما لقيتَه تبيَّنَ فيــه الشؤم وهو غلام[2]

وقال لزياد حين تهدده ، لهجائه بني فُقَيْم ، فهرب منه إلى سعيد بن العاص بالحجاز[3] :

(١) كان هشام بن عبد الملك أحول . التي تهوى اليها قلوب الناس هي مكة المكرمة .

(٢) تنايكت الأجفان انطبق بعضها على بعض .

(٣) راجع قصة هذه الابيات في تاريخ الطبري ٤ : ١٧٩ ــ ١٨٦ (أحداث سنة ٥٠) . وفي رواية الشعر خلاف بين الديوان والنقائض والطبري . وبنو فقيم (بصيغة التصغير) هم فقيم بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . وكانوا ينسؤون الشهور في الجاهلية .

ألا مَن مبلغ عني زياداً   مُغَلْغَلَةً يخُب بها البريد[1]
باني قد فررت الى سعيد   ولا يُسْطاعُ ما يحمِي سعيد
فررتُ إليه من ليثٍ هِزَبْرٍ   تَفَادَى عن فريسته الأُسود[2]
فإن شئتُ انتسبتُ إلى النصارى   وإن شئتُ انتسبتُ إلى اليهود[3]
وإن شئتُ انتسبت إلى فُقَيم   وناسَبَني وناسَبْتُ القرودُ
وأبغضُهم إليَّ بنو فقيم   ولكن سوف آتي ما أريدُ

وقال يهجو الحجاج ويتهدد الأمويين بالخروج عليهم :

إن تنصفونا يال مروانَ نقتربْ   اليكم والا فاذنوا ببعـــاد
فإنّ لنا عنكم مَراحاً ومَذهباً   بعِيسٍ الى رِيحِ الفَلاةِ صَوادي
مُخَيَّسَةٍ بُزْلٍ تَخَايَلُ في البُرَى   سَوَارٍ على طُول الفَلاةِ غَوادي[4]
وفي الأرض عن ذي الجَوْر منأىً ومذهبٌ
وكلُّ بلادٍ أوطنَت كبِلادي

---

(١) مغلغلة رسالة او قصيدة تتغلغل وتذهب بعيدا على السن الرواة حين يتناقلونها . يخب يسرع .

(٢) الليث والهزبر الاسد . تتفادى عن فريسته تتجنبها .

(٣) في هذا البيت اقواء وهو معدود من عيوب القافية . فالدال هنا مجرورة ، وهي في الابيات السابقة مرفوعة .

(٤) مخيسة محبوسة لا تسرح، لتعلف وهي في أماكنها لا تبرحها ، لتسمن وتشتد . البازل من النوق التي بزل نابها اي ظهر . البرة (بضم ثم فتح) حلقة توضع في انف البعير اذا كان منها هائجا ثم تربط الى حبل ، فاذا شد به البعير انقاد ولم يستطع المقاومة . تخايل في البرى يكني بذلك عن قوتها وشدة نشاطها .

وماذا عسى الحجاجُ يبلغُ جهدَه   اذا نحن جاوَزْنا حَفيرَ زياد
فبأستِ أبي الحجاجِ وأستِ عجوزه   عُتَيِّدُ بَهْمٍ ترتعي بوهادِ [1]

وقال في عمر بن هُبَيْرة الفَزاري، حين ولاه يزيد بن عبد الملك وعزل أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك :

ولَّتْ بمَسلَمَةَ الركابُ مودَّعاً   فارعَيْ (فَزارةُ) لا هَناكِ المَرتَعُ
ولقد علمتُ لئن فَزارةُ أُمِّرَتْ   أن سوف تَطْمَعُ في الإمارة (أشجَعُ)
إن القيامةَ قد دنَتْ أشراطُها   حتى أميةُ عن فَزارةَ تُنْزَعُ

ثم قال فيه :

أميرَ المؤمنين وأنت والٍ   شفيقٌ لست بالطَّبِعِ الحريصِ [2]
أأطعمتَ العراقَ ورافِدَيْه   فَزاريًّا أحذَّ يدَ القميصِ [3]
ولم يك قبلَها راعي مخاضٍ   ليأمنَه على وَرِكَيْ قَلُوصِ
تفَيْهَقَ بالعراق أبو المثنَّى   وعلَّم قومه أكلَ الخبيصِ [4]

---

(1) عتيد مصغر عتود (بفتح العين) وهو الحولي من المعز . حفير زياد موضع بين البصرة ومكة . الوهاد جمع وهدة (بفتح فسكون) وهي الأرض المنخفضة .

(2) الطبع الشديد الطمع .

(3) رافداه دجلة والفرات . احذ يد القميص ، لم يرد القميص انما اراد يده . اي لص تطمت يده في الحد .

(4) ابو المثنى كنية يكنى بها المخنثون من الرجال . الخبيص لون من الطعام يصنع من التمر والسمن . تفيهق في كلامه تنطع وتشدق كأنه يملأ فمه به .

سَتَحمِله الدنيئةُ عن قليلٍ   على سِيسَاءِ ذِعْلِبةٍ قَمُوص[1]

وقال حين ولي خالد القَسْري ، مشيراً إلى هدمه منائر المساجد ، وكان قد هدمها لصعود الناس إليها ينظرون إلى الجيران :

ألا قطع الرحمنُ ظهرَ مطيَّةٍ   أتتنا تَمطّى من دمشق بخالد
وكيف يؤم المسلمين وأُمُّه   تدين بأن الله ليس بواحد[2]
بَنَى بَيْعَةً فيها الصليبُ لأمه   وهدَّم من كُفرٍ منارَ المساجدِ

وقال فيه حين حفر النهر الذي سماه المبارك :

أهلكتَ مالَ الله في غيرِ حقّه   على نهرِكَ المشؤومِ غيرِ المُبارَك
وتضربُ أقواماً صِحاحاً ظُهورُها   وتترك حقَّ الله في ظَهرِ مالكِ[3]
أإنفاقَ مالِ اللهِ في غيرِ كُنْهِه   ومنعاً لِحَقّ المُرمِلاتِ الضَّوانك

وقال متشفياً في جلده ، حين غضب عليه سليمان بن عبد الملك ، فأمر به أن يجلد ، وذلك لجلده رأس الحَجَبة – وكان قرشياً – فأخذت سليمانَ الحميةُ له ، وغضب حتى همَّ بقطع يده ، لولا شفاعة يزيد بن المهلب فيه :

(١) الدنيئة الفعل الخسيس . السيساء منتظم فقار الظهر من الفرس والحمار . القموص الدابة التي تقمص بصاحبها ، وذلك بأن ترفع يديها وتطرحهما وتعجن برجليها . الذعلبة الناقة السريعة . يقصد بذلك أن دناءته ستحمله على مركب صعب .

(٢) كانت أمه نصرانية .

(٣) يقصد مالك بن المنذر بن الجارود . وكان أحد الناس قد ادعى عليه قرية ، فأبطل خالد حقه . يقول له : تعاقب البريء ، وتحمي الظالم .

لعمري لقد صابَتْ على ظهر خالد ... شآبيبُ ما استَهْلَلْن من سَبَل القَطْرِ [1]

أتَضرِبُ في العِصيان تزعُمُ من عصا ... وتعصِي أميرَ المؤمنين أخا قَسْرِ؟

وأنتَ ابنُ نصرانية طال بَظْرُها ... غذتك بأولاد الخنازير والخمر

فلولا يزيدُ بنُ المهلب حلَّقَتْ ... بكفَّيك فتخاءُ إلى الفَتْخِ في الوكْرِ [2]

لعمري لقد سار ابنُ شَيْبَة سيرةً ... أرَتْكَ نجومَ الليل ظاهرةً تجري [3]

فخُذْ بيديك الحتفَ إنك إنما ... جُزيتَ قِصاصاً بالمحَدْرَجةِ السُّمر [4]

أظُنُّكَ مفجوعاً برُبْعِ منافقٍ ... تَلَبَّسَ أثوابَ الخيانةِ والغدرِ [5]

وقال فيه :

سلوا خالداً لا أكرمَ اللهُ خالداً ... متى وَلِيَتْ قَسْرٌ قريشاً تَدِينُها

أقبلَ رسول الله أم بعد عهده ... فتلك قريشٌ قد أَغَثَّ سمينُها

رجونا هُداه لا هدى الله خالداً ... فما أُمُّه بالأم يُهدَى جنينُها

---

(١) الشآبيب الدفعات من المطر ينهل مرة بعد مرة ، وشؤبوبا بعد شؤبوب . انهل المطر واستهل اشتد انصبابه . أسبل المطر انهل . والسبل المطر المسبل

(٢) الفتخاء اللينة الجناح والفتخ فراخها . يقول له لولا شفاعة يزيد لقطع الخليفة يديك فتخطفتهما العقبان تطعم بهما صغارها .

(٣) ابن شيبة هو الحجبي الذي ضربه خالد مائة سوط لانه لم يفتح له الباب وتثاقل .

(٤) المحدرجة المفتولة . ويقصد بالمحدرجة السمر السياط .

(٥) ربع منافق يعني يده وكأنها ربع جسده لان للانسان يدين ورجلين ، فاذا قطعت منها يد فقد ربع اطرافه .

وبلغ من جرأة الفرزدق على الولاة ، أنه دخل على بلال بن أبي بُردَة ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

فإن أبا موسى خليل محمد   وكفَّاه يُمنَى للهُدى وشمالها

فقال ابن أبي بردة : هلكتَ والله يا أبا فراس . فارتاع الفرزدق وقال : وكيف ذلك ؟ قال ذهب شِعرُك . أين مثــلُ قولك في سعيد وفي العباس بن الوليد . – وسمّى قوماً – فقال الفرزدق : جئني بحسَب مثل أحسابهم حتى أقول فيك كقولي فيهم . فغضب بلال حتى دُعي له بطست فيه ماء بارد ،فوضع يده فيها حتى سكن . ثم كلمه فيه جلساؤه وقالوا: قد كفاك الشيخ نفسه،وقلما يبقى حتى يموت . فلم يَحُل الحول على الفرزدق حتى مات [1] .

ولكن هذا الغرور الجنوني والكبرياء الجامحة ، كان يقابلها ضعف شديد عن احتمال المكاره والصمود للكفاح . فقضى الفرزدق حياته خائفاً ، وكان شعره مزاجاً من هذين المرضين الخطيرين : شعور بالعظمة وشعور بالرهبــة والخوف . وخير ما يمثل هـــذا اللون من الشعر ، الذي هو مزاج من الشعور بالرهبة والشعور بالعظمة ، قوله وهو في سجن خالد القَسْري، يتوسل إلى هشام أن يطلقه ويأمر بالعفو عنه :

دعوتُ أمينَ الله في الأرض دعوةً   ليفرُج عن ساقٍ خيرَ الخلائف

فيا خيرَ أهل الأرض إنك لو ترى   بساقٍ آثار القيودِ النواسف [2]

إذاً لرجوتُ العفوَ منك ورحمةً   وعدلَ إمامٍ بالرعيــة رائف

---

(١) الاغاني ١٩ : ٣٥

(٢) النواسف التي قد نسفت الجلد والشعر .

فإن أكُ محبوساً بغير جريرة ... فقد أخذوني آمناً غيرَ خائف

وما سَجَنوني غيرَ أنّي ابنُ غالبٍ ... وأني من الأثرَيْن غير الزعانف[1]

وأني الذي كانت تَعُد لثغرها ... تميمٌ لأبيات العدوِّ القاذف

وإني لأعداء الخنادف مِدْرَهٌ ... بذَحل غنيٌّ بالنوائب كالفِ

لجامُ شجًى بين اللهاتَيْن من يقع ... له في فم يركَبْ سبيل المَتالف

وإن غبتُ كانوا بين راوٍ ومُحتَبٍ ... وبين مُغيبٍ قلبُه بالشَنَائف[2]

وبالأمس ماقد حاذروا وقعَ صولتي ... فصيّف عنها كلُّ باغٍ وقاذف[3]

وقد علم المَقْرونُ بي أنّ رأسه ... سيذهب أو يُرمى به في النَفَانف[4]

أرى شعراء الناس- غيري- كأنهم ... بمكة قُطّانُ الحمام الأوالف

ولو كنتُ أخشى خالداً أن يروعني ... لطِرْتُ بوافٍ ريشُه غيرَ جادف[5]

كما طرتُ من مصريْ زيادٍ وإنه ... لتَصْرِفُ لي أنيابُه بالمَتالف

وما كنتُ أخشى أن أرى في مخيَّسٍ ... قصيرَ الخطا أمشي كمشي الرواسف[6]

---

(١) الاثرين جمع الاثرى وهو الكثير العدد . أصل الزعانف اجنحة السمك ثم اطلقت على الدعي الملصق الذي ليس بصريح النسب .

(٢) الضمير في (كانوا) لأعداء الخنادف . إن غبت كانوا بين راو لهجائي أو محتب يسمع ما هجيت به أو مضمر للشحناء . والشنائف البغضاء ، والفعل شنف له (كفرح) وشنفه .

(٣) صيف وصاف اي عدل عنها .

(٤) النفنف الجبل القائم كأنه الحائط . او هو المهوى بين جبلين .

(٥) جدفة قطعه . وجدف الطائر طار وهو مقصوص الجناحين .

(٦) التخييس التذليل ، والمخيس (بكسر الياء وفتحها) السجن لأنه يذل ، او لانه موضع الاذلال .

أبيت تطوف الزُّطُّ حولي بجُلْجُل   عليَّ رقيبٌ منهم كالمحَالِف[1]

وقد كان الفرزدق لا يدعى إلى وال أو أمير إلا خاف وتوقع الشر . عبث به رجلان فقالا له : أَجب ! الأمير يدعوك – وهما يلعبان معه – فهرب وترك رداءه معهما . ثم قال فيهما :

وما كنتُ لو فَرَّقتماني كلاكما   بأمِّكما عريانَتَيْن لأفرقا

ولكنما فرقتماني بضَيغَم   إذا ما رأى قِرْناً أَبَنَّ ودقدقا[2]

وكان خوفه الشديد يلجئه في كثير من الأحيـــان إلى التقرب من الشُّرَط فيمدحهم بشعر غث ضعيف استجلاباً لرضاهم [3] وهو بعـــد هذا كثير ذكر الخوف في شعره . وخير ما يتصوره في ممدوحيه من الفضائل ونبيل الصفات ، أنهم يؤمنون الخائفين . ولم تكن مِدْحة من مدائحه تخلو من طلب الأمان أو الحماية .

يقول لبِشْر من قصيدة يمدحه فيها :

لو أنني كنتُ ذا نفسَيْن إن هلكَت   إحداهما كانت الأخرى لمن غبرا[4]

إذاً لجئتُ على ما كان من وَجلٍ   وما وجدتُ حذاراً يغلب القدرا

كلُّ امرىء آمنٍ للخوف أَمَّنَهُ   بِشْرُ بن مروان والمذعورُ من ذَعَرا

---

(١) الزط قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة (جمع جلواز وهو الشرطي) وحراس سجون الجلجل الجرس الصغير والجلجلة التحريك وشدة الصـوت .

(٢) بن بالمكان وأبن أقام. دقدق سمع له صوت وجلبه .

(٣) الديوان ص ٦٦٠ و ٨٧٦ .

(٤) غبر هنا بمعني بقي . وهي من الأضداد .

ويقول في مدح العباس بن الوليد بن عبد الملك :

وكم من كريم يشتكي ضعفَ عظمه أقمتَ له ما يشتكي بالسقائف[1]
وآمنتَه مما يخـاف اذا أوى اليك فامسى آمناً غيرَ خائف

ويقول في مدح سليمان بن عبد الملك :

سليمانُ غيثُ المُحلِين ومَن به عن البائس المسكين حُلَّتْ سلاسله

ويقول في مدح يزيد بن عبد الملك :

ولا جارَ بعد الله خيرٌ من الذي وضعتُ إلى أبوابه رَحل خائف
إلى خيرِ جارٍ مُستَجارٍ بحبله وأوفاهُ حبلاً للطريد المُشارِف[2]
على هوة الموت التي إن تقاذفت به قذفته في بعيد النفانف

ويمدح المهلب فيقول :

كان المهلبُ للعراق وقـايةً وحَيا الربيعِ ومَعْقِلَ الفُرّار[3]

ويمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك بقوله :

من يات رابيَةَ الوليد ودِفْئَها من خائف لجريرةٍ لا يُضْرَرِ

ويمدح أسد بن عبدالله القسري لإنقاذه من سجن خالد فيقول :

رمى بي إليه الخوفُ حتى أتيتُه وقد يَمْنَعُ الحامي إذا ما تَمَنَّعا

---

(١) السقائف الجبائر التي يوضع فيها العضو المكسور .

(٢) المشارف الذي اشرف على الهلاك .

(٣) الحيـا هـو المطـر .

به حطم اللهُ القيودَ وأومنَتْ مخافةُ نفسٍ طومنَت أن تَفزّعا
فما يَحْيَ لا أخش العدوَّ ولا أزَلْ على الناس أعلو مِن ذُرى المجد مَفرَعا

وشعر الفرزدق الذي صوّر فيه خوفه وحاله في السجن من أروع الشعر وأجمله . يقول للوليد بن عبد الملك مصوّراً خوفه من الحجاج :

وقد خفتُ حتى لو أرى الموتَ مُقبِلاً ليأخذني ـ والموتُ يكرهُ زائرُه ـ
لكان من الحجاج أهونَ روعةً إذا هو أغضى وهو سامٍ نَواظرُه
أدِبُّ ودوني سَيْرُ شهر كأنني أراكَ وليلٌ مستحيرٌ عساكرُه[1]
ذكرتُ الذي بيني وبينك بعدما رمى بي من نجدَيْ تهامة غائرُه
فأيقنتُ أني إن نأيتُك لم يَرِدْ بيَ النأيُ إلاَّ كلُّ شيءٍ أحاذره
وأن لو ركبتُ الريحَ ثم طلبتَني لكنتُ كشيءٍ أدركَتْه مقادره
فلم أرَ شيئاً غيرَ إقبالِ ناقتي إليكَ وأمري قد تَعَيَّتْ مصادره[2]
أخاف من الحجاج سَوْرَةَ مُخْدِرٍ ضواربَ بالأعناق منه خوادِرُه

ويقول مصوّراً رهبة الحجاج في نفوس الناس :

إذا ما بدا الحجاجُ للناس أطرقوا وأُسكِتَ منهم كلُّ من كان ينطق

---

(١) عساكره ظلمته . واستحارتها لبوثها .

(٢) يدل هذا البيت على أن الفرزدق رحل للوليد . وهو يعارض ما ورد في رائيته التي مدح بها أخاه سليمان بن عبد الملك من بعد ، فزعم فيها أنه أول خليفة أموي يرحل اليه (ص ٢٤١ بالديوان) . ويبدو أنه اعتبر نفسه مكرها في رحلته هذه . فهو لم يرحل اليه راغبا فيه ، ولكنه رحل اليه طالبا للأمان حين لم يكن من الرحيل بد .

فما هو إلا بائلٌ من مخـــافةٍ وآخر منهم ظَلَّ بالريق يَشْرَقُ
وطارت قلوبُ الناس شرقاً ومغربا فما الناس إلا مُهْجِسٌ أو مُلَقْلِقُ[1]

ويقول لمالك بن المُنذِر بن الجارود مصوّراً حاله في سجن خالد ، متبرئاً من هجائه :

وإذا حُمِلْتُ إلى الصلاة كأنني عِبْءٌ يميل بِعِدْلِهِ المعدولِ
يمشي الرجالُ به على أيديهمُ لله دَرٌّ مقيَّـــدٍ محْمُول
إن القرَى سُجِنَتْ معي نيرانُه عن كلِّ نازل جَنْبَةٍ ودَخيل[2]
قد كنتُ أُطعِمُهنَّ كلَّ سمينـة للطارقين بأسرع التعجيـــل
يا مالِ هل لكَ في أسيرٍ قد أَتَتْ تسعون فوق يَدَيْه غيرُ قليل[3]
فتَجُزَّ ناصيتي وتفرُجَ كُرْبتي عني وتطلق لي يداك كُبولي[4]
يامالِ هل أنا مُهلكي ما لم أَقُلْ وليُعْرَفَنَّ من القصائد قيلي

ويقول له من قصيدة يمدحه بها :

وكيف بمن خمسون قيداً وحلْقَةً عليه مع الليل الذي هو أدهمُ
أبيت أقاسي الليلَ والقومُ منهمُ معي ساهرٌ لي لا ينامُ ونُوَّمُ

---

(١) الهجس الصوت الخفي تسمعه ولا تفهمه . اللقلقة اضطراب الصوت .

(٢) نازل الجنبة الضيف الذي ينزل في ناحية من البيت، والدخيل الضيف الذي ينزل داخـــل البيت .

(٣) يا مال يخاطب مالك بن الجارود . مال ترخيم مالك . تسعون يعني تسعين قيدا .

(٤) يطلب منه الفرزدق أن يقص شعر رأسه ويطلقه . وجز الناصية عند العرب فيهمعنى الاذلال . وكذلك كانوا يفعلون بأسراهم اذا منوا عليهم باطلاقهم .

ولو أنها صُمُّ الجبـــال تحمّلت كما حملت رجلاي كادت تحطّم
.. وعلّمني مَشْيَ المقيَّـــدِ خالدٌ وما كنتُ أدنى خطوِهِ أتعلَّم
أقول لرِجلَيَّ اللتين عليهمـــا عُرًى وحديدٌ يحبِسُ الخطْوَ أبْهَم
أما في بني الجارود من رائحٍ لنا كما راح دُفَّاعُ الفرات المثلَّم

ويقول أيضاً مصوراً حاله في سجن خالد ، متبرئاً من هجائه ، حين احتفر النهر الذي سماه (المبارك) من قصيدة يمدحه بها :

ألا تذكرون الرَّحمَ أو تُقْرِضونني لكم خُلُقاً من واسع الحلم ماجد
يقول لي الحدَّادُ هل أنت قائم وهل أنا إلا مثلُ آخرَ قاعِدِ[1]
كأني حَرُورِيٌّ له فوق كعبه ثلاثون قيداً من قَرُوصٍ مُلاكِدِ[2]
وراوٍ عليَّ الشعرَ ما أنا قلتُه كمعترِضٍ في الرمح دون الطرائد[3]

ويقول من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك :

إذا قلتُ للحراس هل ليلتي دنَتْ من الصبح أو كانت جنوحاً نجومُها
يقولون ما يَنْزلن إلا تَنزُّلاً بطيئاً ومسودًّا علينا أديمهـــا
فليت مكان الأربعين التي لها بساقيَّ آثارٌ مبينٌ وشومُهـــا

---

(١) الحداد السجان لأنه يحد الناس ، والحد المنع .

(٢) الحرورية الخوارج . قروص قيد يقرص ويعض في الرجل . الملاكد اللازم .

(٣) الطرائد جمع طريدة وهي ما طردت من وحش أو غيره . شبه نفسه بالذي يعترض دون الطريدة فيصاب بالرمح خطأ وليس هو بالمقصود .

أخا نجدةٍ عندي أخوه فَجَعْتُه   به والمنايا جانباتٌ حُتُومُهــــا

فنازلني بالسيف عنه ودونـــه
مع السيف خِضْبُ الأرض بادٍ شَكِيمُها[1]

كان الفرزدق أعرابياً جافياً غليظ الطبع . وتبدو هذه الغلظة وهذا الجفاء في فنه وفي حياته على السواء . أما فنه فالخشونة بادية في ألفـاظه وفي صوره . فالكلمات تبدو في شعره قلقة متنافرة ، وكأنه يجمعها بقوته واقتداره ، شاءت أو لم تشأ . فهو يؤلف بينها متعسفاً ، وكأنه ينحت من صخر كما كان يقول النقاد القدماء في تصويره . وقد كان يقول : أنا أشعر الشعراء ، وقـد يأتي عليّ وقت وقلع ضرس أهون عليّ من بيت شعر . وذلك صحيح . ولكنا نضيف إليه أن الشعراء يَدّعون الإنشاء في مثل هذه الأوقات ، حتى تصفو نفوسهم وتسخو قرائحهم . وهم يجعلون الرغبة في قول الشعر هي الذريعة إلى إنشائه ، كما كان يقول أبو تمام في وصيته للبحتري . أما الفرزدق ، فقد كان يمضي مكابراً ويجتلب الشعر من غير وجهه ، فيبدو وكأنه يقتلعه من نفسه اقتلاعـاً ، أو كأنه يقلع أضراسه على حد تصويره . ولذلك كثرت المعاظلة في شعره . انظر إلى تراكيب الألفاظ في مثل قوله حين يتبرأ مما نسب إليه في هجاء المبارك :

فلا رَفَعَتْ إن كنتُ قلتُ التي رَوَوا   عليّ رِدائي حينَ ألبَسهُ يَدِي

يريد أن يقول : فلا رفعت يدي ردائي حين ألبسه إن كنتُ قلتُ التي رَوَوا عليّ .

---

(١) الحتوم جمع حتم (بفتح الحاء وسكون التاء) وهو القضاء . الجانب : الذي لا ينقاد والغريب . وجانبه مشى الى جنبه . الخضب (بكسر الخاء وسكون الضاد) نوع من الحيات او ذكرها الضخم . الشكيم الانفة والمقصود هنا الشراسة . يقول ليت لي مكـان هذه القيود فارسا ينازلني ثائرا لاخيه الذي قتلته ففجعته به ، ينازلني بسيفه ، ومن دونه حية ضخمة ابـدت شراستها .

وفي قوله يمدح يزيد بن عبد الملك :

فلا أمٌ إلا أمٌ عيسى علمتُهــــا كأُمكَ خيراً أمهاتٍ وأمجدا[1]

وفي قوله يمدح عمر بن الوليد بن عبد الملك :

إلى ابن الإمامين اللذين أبوهما إمامٌ له لولا النبوةُ يُسجَد

وفي قوله يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك :

تجاوزتَ عنهم فضلَ حِلْمٍ كما عفا بمَسْكَنَ والهنديُّ تعلو ذكورُها
أبوك جنوداً بعدَ ما مرَّ مصعبٌ تَفَلَّذَ عنه وهو يَدعُو كثيرُها

وانظر إلى الارتباك الذي يبدو في رثائه لمحمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج بن يوسف ، وقد ماتا في جمعة واحدة ، على ما في الأبيات من تضمين قبيح :

لئن صبرَ الحجاجُ ما من مصيبة تكون لمرزوءٍ أَجلَّ وأوجعا
من المصطَفى والمصطَفى، من ثقاتِه خليلَيْه ، إذ باتَا جميعاً فودَّعا[2]
..فلا صبرَ إلاَّ دونَ صبرٍ على الذي رزئتَ على يوم ٍ من الباس أشنَعا
على ابنِك وابن الأُمِّ إذ أدركتْهما الـ منايا وقد أفنَيْن عــاداً و تُبَّعا

وإلى قوله في هجاء الطرماح بن حكيم الطائي :

وماطيءٌ إلا مَجوسٌ كأنهم بهائم تعلو الأمهــاتِ فحولُها
وما تلكمُ إلا مَجوسٌ نساؤها بنـــاتُهم آباؤهن بُعولُها[3]

---

(1) يقصد بام عيسى سيدتنا مريم رضي الله عنها .
(2) يقصد بالمصطفى والمصطفى ابنه واخاه .
(3) يتهمهم بانهم مجوس يتزوجون امهاتهم وبناتهم .

وانظر إلى كثرة الضمائر وتراكيبها واضطرابها في قوله يهجو عمر بن هُبَيْرة :

ولكن أبوها مِنْ لؤي بن غالب　　مَنَافٌ له منها من المجد كاهلُه

ملوكٌ وأبناءُ الملوك أتَتْهُم　　من الله بالفُرقانِ منه رسائلُه

وانظر إلى الالتواء المتعب ، الذي يجعل شعره أقرب للأحاجي والألغاز في قوله يمدح جميل بن حُمْران الفَزاري :

أنت ابنُ أمِّ امرىءٍ تُنْمَى إذا نُسِبَتْ　　حيث انتمت بأبيها بنتُ حسانا

نالت به الشمسَ لو كادتْ تناوَلُها　　بالجد إن كان مجدٌ عندها كانا

لم يوهب الفرزدق ما وهب جرير من سلامة في الذوق ، وامتياز في الحس اللفظي ، فألفاظه كالصخر دائماً ، ولذلك كان أكثر ما يصادفه التوفيق إذا افتخر . انظر إلى قوله في قصيدته المشهورة (عَزَفْتَ بأعْشَاشٍ) حين يصور كرم قومه وقت الجدب ، كيف يصف العواصف العاتية ، فيخيل إلى السامع أن العالم قد أوشك على نهايته ، وان الأرض قد زُلْزِلَتْ زِلْزَالَها ، وأخرجت أثقالها . فالسماء قد اغبرت آفاقها ، والرياح الحمراء تهجم على البيوت في عنف فتنكشف ستورُها. وذعرت النوق الضخمة التي امتلأ سنامها بالشحم، فاندفعت تتبعها صغارها ، تقطع في طريقها الحبال التي شدت إليها البيوت . وشُغِل عنها راعيها في هذا البرد القارس ، فهو يباشر النار بصدره وبكفيه ، لا يتحرف عنها ، ولا يحس لذعها وحرارتها . وظهر نجم الشِعْرَى في السماء ، ينذر بشتاء شديد ، وجدب يتقشر منه وجه الأرض . وأخذت الثلوج تتساقط على أسنمة الإبل ، تعلوها كأنها قطن مندوف . وأجد البرد الكلاب ، فاندفعت إلى النار تقاتل عنها أصحابَها لتربض فيها . فإذا انتهى الفرزدق من هذا التصوير الرائع لشدة البرد ، وقسوة الجَدْب ، قال : في مثل هذه الأزمات، تجدنا أكرم الناس وأكثرَهم بذلاً للضيفان :

إذا اغبرّ آفاقُ السماءِ وكشّفتْ ... كُسُورَ بُيوتِ الحيِّ حمراءُ حَرْجفُ (١)

وهتّكَت الإطنابَ كلُّ عظيمةٍ ... لها تامِكٌ من صادق النيِّ أعرفُ (٢)

وجاء قريعُ الشَّوْلِ قبلَ إفالِها ... يَزِفُّ وراحتْ خلفَهُ وهي زُفّفُ (٣)

وباشَرَ راعيها الصِّلا بلَبانه ... وكفّيه حرَّ النـــار ما يَتَحرّفُ (٤)

وأوقدَت الشِعرى مع الليل نارَها ... وأمست مُحُولاً جِلدُها يتوسّفُ (٥)

وأصبحَ موضوعُ الصقيع كأنه ... على سَرَواتِ النيبِ قطنٌ مُندّفُ (٦)

وقاتل كلبُ الحيِّ عن نار أهله ... ليَرْبضَ فيها والصِّلا مُتَكَنّفُ (٧)

وجدتَ الثرى فينا إذا يَبِسَ الثرى ... ومن هو يرجو فضلَه المُتَضيّفُ (٨)

---

(١) آفاق السماء جوانبها . الكسور جمع كسر (بكسر فسكون) وهو ما وقع على الارض من الخباء . الحرجف الريح الشديدة .

(٢) الاطناب الحبال التي يشد بها الخباء . التامك السنام العظيم ، الني الشحم . اعرف مرتفع .

(٣) القريع فحل الابل . الشول الابل التي جفت البانها . افالها صغارها . يزف يعدو مسرعا .

(٤) الصلا (بكسر الصاد) النار . اللبان الصدر . يتحرف ينحرف عن النار ويحيد .

(٥) الشعري نجم يطلع في اول الشتاء . وامست يعني الارض . محولا من المحل (بفتح فسكون) وهو الجدب . يتوسف يتقشر من الجفاف وقلة المطر .

(٦) سروات النيب اسنمتها . النيب مسان الابل .

(٧) الصلا متكنف اجتمع عليه الناس وقعدوا حوله .

(٨) الفرزق متأثر في بعض صوره ومعانيه بطرفة حيث يقول :

انا اذا ما الغيم امسى كأنه ... سماحيق ترب وهي حمراء حرجف

وجاءت بصراد كأن صقيعه ... خلال البيوت والمنازل كرسف

وجاء قريع الشول يرقص قبلها ... من الدفء والراعي لها متحرف

ترد العشار المنقيات شظيها ... الى الحي حتى يمرع المتصيف

تبيت اماء الحي تطهى قدورنا ... ويأوى الينا الاشعث المتجرف

هذا التوفيق العجيب الذي يصادف الفرزدق في الفخر ، وفي تصوير مناظر الصحراء ، وحياة البدو ، يجافيه وينحرف عنه ، حين يتغزل أو يرثي أو يعرض لما يحتاج إلى الرقــة من فنون الشعر . انظر إلى جفاء غزله ، حين يطلب إلى صاحبته أن تديه لأنها قد قتلته . فإن لم تفعل قتلها بالسيف .

فلم أر مقتولاً ولم أرَ قاتــلا   بغير سلاح مِثْلَهــا حين أقصدا
فإن لا تُفادي أو تديه فلا أرى   لهــا طالباً إلا الحسامَ المهندا

وحين يهددها بالتخليد في جهنم ، لأنها تسفك دمه بغير جريرة .

يا ويح أختِ بني كنانة إنها   لبخيلة بشفــاء من لم يجرم
فلئن سفكتِ دمـاً بغير جريمة   لتُخَلَّدِنَّ مع العذاب الأَلأم
ولئن حملتِ دمي عليكِ لتَحمِلنْ   ثِقْلاً يكونُ عليك مثل يلَمْلَمْ[1]

وإلى سوء اختياره للألفاظ ، مع تراكب العبارات ، في قوله يرثي الحجاج :

فلم أرَ يوماً كان أنكى رزيَّةً   وأكثر لَطًّا للعيون الذَّوارف
من اليوم للحجاج لما غدَوا به   وقد كان يحمي مُضْلِعات المكالِف

فاختياره لكلمة (لطًّا) هنا ، على ما فيها من ثقل ، غير موفق . وسوء اختيار الفرزدق للكلمات ، وبلادة حسه اللفظي ، واضح في اختياره لأسماء أولاده ، فقد سمى أحدهم خَبَنْطَـة ، وسمى الثاني سَبَنْطَـة ، وسمى الثالث لَبَنْطَـة . ولو أن الأسماء كانت شيئاً يُشترَى ، لقد كان له عن هذه الأسماء مندوحـة .

---

(١) يلملم جبـــل .

ولو أن عدواً لهم أراد أن يلقبهم بأثقل الألقاب ، ما اختـــار غير الأسماء التي سماهم بها أبوهم .

وانظر إلى خشونة التصوير ؛ حين يشبّه صاحبته لفرط حيائها بمن ألحّ عليه النزف ، أو أنهكه السل .

يشبّهنَ من فرط الحياء كأنها   مِراضُ سُلالٍ أو هوالِكُ نُزّفُ

وحين يتمنى لها ولنفسه أن يكونا بعيرين أجربين ، يخـاف الناس عدواهما فيتركونهما منفردين ، ليعيشا في عزلة سعيدين :

فيا ليتنا كنا بعيرَيْن لا نَردُ   على منهلٍ إلا نُشَلُّ ونُقذَفُ

كلانا به عَرٌّ يخاف قِرافُــه   على الناس مَطْليُّ المساعِرِ أخشَفُ[1]

وانظر بشاعة تصويره لكرم العباس بن الوليد بن عبد الملك ، حين يقول إن الندى والجود قد صاحباه ، وقد تحالفوا على إغراق البشر - وهو يقصد بإغراق البشر إغداقَ النعم عليهم :

إن الندى صاحِبَ العباس حالَفَهُ
والجودَ .هم أخوةٌ قد أغرقوا البشرا

(1) العر (بفتح العين) الجرب ، القراف المخالطة ، المساعر اصول الفخذين والابطين وهي اول ما يصيبه الجرب . اخشف يابس الجلد من الجرب . مطلى المساعر اي مطلي بالقطران . ولكثير أبيات شبيهة بهذه حيث يقول :

الا ليتنا يا عز من غير ريبة   بعيرين نرعى بالخلاء ونعزب

كلانا به عر فمن يرنا يقل   على حسنها جرباء تعدى واجرب

اذا ما وردنا منهلا صاح أهله   علينا فما ننفك نرمى ونضرب

وانظر إلى خشونة ذوقه ، حين يمدح يزيد بن عبد الملك ؛ فيقول له إنك فعلت ما أعيا أباك :

تناولتَ ما أعيى ابنَ حربٍ وقبلَه   وأعيى أباك الحازم الُمتخيَّرا

وإنما يُمدح الخليفة بأنه كريم ابن كرام ، شجاع ابن شجاع .

وانظر إلى جفاء ذوقه ، حين يصور لذع الخمر القوية ، وشدة تأثيرها في الشارب فيقول :

شربنا في بني جُشَمٍ بن بكر   شراباً ليس من سَقَط المتاع
شراباً يضرِط الباسرُ منه   ويذهب بالُمَلْيَلَة والصداع[1]

وقد كان الفرزدق لجفاء طبعه بعيداً عن التأثر العميق بالإسلام ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم يرقق طبعه الوحشي الفظ . فهو يعيش بشعوره وعواطفه في الجاهلية ، يهجم على اللذة متهتكاً ، ويفتخر بذلك ، ولا يبالي أن يصم نفسه بالزنا وشرب الخمر ، في بلد إسلامي ، يتحرج فيه الناس من إعلان هذه الآثام الغليظة ، وينكرونها أشد الإنكار . يقول في نديم له اسمه (دَيْكَل) :

شربتُ ونادمتُ الملوكَ فلم أجد   على الكاس نَدْماناً لها مثلَ (دَيْكَل)
أقلَّ مِكاساً في جَزورٍ سمينة   وأسرع إنضاجاً وانزالَ مِرجَل
فتى كرمٍ يهتز للمجد لا ترى   نداماهُ الا كلَّ خِرقٍ مُعَذَّل[2]
عشيةَ نسَّينا قَبيصَةَ نعلَه   فبات الفتى القَيسيُّ غيرَ مُنعَّل

---

(1) الملبلة وجع الظهر . الباسور المرض المعروف وجمعه بواسير .
(2) الخرق (بكسر الخاء) الجواد . معذل يلام على اسرافه وتبذيره .

ويقول في هجاء جرير :

إن تك كلباً من كليب فإنني ... من الدارميين الطوال الشقاشق[1]

نظَـلُّ ندامى للملوك وأنتم ... تمشُّون بالأرباق مِيلَ العواتق[2]

وانا لتَجري الخمرُ بين سَراتنا ... وبين أبي قابوس فوق النَّمارق

لدُنْ غُدوةً حتى نروح وتاُجه ... علينا وذاكي المسك فوق المَفارِق

ويذهب مذهب الفتاك المتهورين من شعراء الجاهلية ، أمثـال الأعشى وامرىء القيس ، فيصف نزوله عند شيخ مسن ، وتظاهره أمامه بالتقوى ، حتى اطمأن إليه وضيَّفه ، ثم غلبه على زوجته :

نُبِّئْتُ عند الشيخ مُهراً يبيعه ... من آل الحرُون لم تُقطَّع أباجلُه

فلما أتيتُ الشيخَ يرجُف رأسُه ... وتُرعَدُ من بعد المشيب مفاصلُه

قرأت عليه سورةَ الكهفِ واقفاً ... لياخذَ فيه الحِلْمُ والجهلُ شامله

وأطرقْتُ إطراقَ الشُّجاع وشمَّرَتْ ... عن الساقِ تشميراً رقيقاً ذلاذله[3]

فما زلتُ حتى قال : هل أنت نازلٌ ... فإنك ممن لا تُخاف غوائلُه

فلما انبرَت للغَيِّ والشيخُ غافلٌ ... من الخِدْر تُخفي شخصَها وتضائله

---

(١) الشقشقة لهاة البعير يخرجها عند هيجانه .

(٢) الارباق العرى التي تشد إليها البهم . الواحد ربقة (بكسر الراء) . العواتق جمع عاتق وهو ما بين المنكب والعنق .

(٣) الشجاع الثعبان . الذلاذل أسافل القميص الطويل ، جمع ذلذل (على وزن هدهد) . وقيل أثواب تلبس بعضها فوق بعض ، كل واحد منها أقصر مما تحته ، لتظهر كلها للناظرين.

فقلت أبَرقٌ لاح في مدلهمـــة من الليل أم ريمٌ لطيفٌ أنامله

فبيتُّ لها في مَرصدٍ كنتُ أدريِ به الوحشَ لايُخشَى عليَّ غوائله[1]

ويهجو المهلب فيقول إن قومه من الأزد كانوا ملاحين ، فهم نَبْط لم يعبدوا الأصنام في الجاهلية :

فكيف ولم يأتوا بمكة مَنسَكا ولم يعبدوا الأوثانَ عند المُحصَّبِ

ولم يَدعُ داعٍ يا صباحاً فيركبوا إلى الروع إلا في السفين المُضَبَّب[2]

ويكرر ذلك في قصيدة أخرى يهجوه بها :

وكيف ولم يَقُدْ فرساً أبوكم ولم يحمل بَنيه إلى الدُوّار[3]

ولم يعبد يَغُوثَ ولم يشاهِد لِحُمَيْرَ ما تدين ولا نِزَارِ

وما لله تسجد أزْدُ بُصْرى ولكنْ يسجدون لكل نار

ويفتخر بظلمه للناس ، على طريقة الجاهليين ، في مواضع كثيرة من شعره . ومن ذلك قوله :

إذا مضرُ الحمراء حولي تعطَّفت عليَّ وقد دقَّ اللِجامَ شَكِيمي[4]

---

(١) دري الصيد (كضرب) يدريه دريا ختله . وكذلك تدراه (بتشديد الراء) وادراه (بتشديد الدال) . وراجع كذلك ابياتا اخرى في الديوان تشبه هذه الابيات في رائيته :

الا من لشوق انت بالليل ذاكره وانسان عين ما يغمض عائره

(٢) يقول انهم لا يعرفون الا ركوب السفن . ولم يركبوا الخيل قط في قتال حين يصيح الداعي : يا صباحاً . والتضبيب شدة القبض على الشيء .

(٣) الدوار (على وزن كتان بفتح الدال) صنم كانت تنصبه العرب وتدور حوله . وقد تضم الدال ، وقد تخفف الواو فلا تشدد كما هي هنا في البيت .

(٤) الشكيم الحديدة المعترضة في فم الفرس والتي يتصل بها اللجام من طرفيها . دقه قطعه

أَبَوا أن أسوم الناسَ إلا ظُلامةً   وكنتُ ابنَ مِرْغام العدو ظَلُوم

وقوله :

لِخندفَ قبل الناس بيتان، فيهما   عديدُ الحصى والمأثُراتُ العظائم

إذا ما هبطنا بلدةً كان أهلُها   بها وُلِدوا يَظْعَنْ بها كلُّ جارم[1]

لنا العزُّ مَنْ تحلِل عليه بيوتُنا   يمُتْ غَرَقاً أو يَحتملْ أنفَ راغم[2]

وقد اقترن جفاء الفرزدق بفتكه وفجوره ، فأنتج قدراً ضخماً من الشعر الممعن في الفحش والفظاظة وبجافاة الذوق في آن معاً . انظر إلى ما يقول هذا الرجل الغليظ القلب ، في زوجته حَدْراء حين ماتت :

يقولون زُرْ حَدْراءَ والتُّربُ دونها   وكيف بشيءٍ وَصْلُه قد تَقَطَّعا

ولستُ وإنْ عزَّتْ عليَّ بزائرٍ   تراباً على مَرْسومةٍ قد تَضَعْضعا

وأهوَنُ مفقودٍ إذا الموتُ ناله   على المرءِ مِن أصحابه من تقنَّعا

وأهوَنُ رُزْءٍ لامرىءٍ غيرِ عاجزٍ   رزيّةُ مُرْتجِّ الروادف أفْرعا

وانظر إلى ما يقول هذا الرجل الفظ المفحش ، في رثاء جارية كانت قد حملت منه ، ثم لم تلبث أن ماتت :

وغِمْدِ سِلاحٍ قد رُزِئتُ فلم أَنُحْ   عليه ولم أبعث عليه البواكيا

---

(۱) الظعن الرحيل . الجارم الذي ارتكب جرما . ويقصد به هنا الشديد الجريء على الناس .

(۲) الرغام التراب . وارغمه الصقه بالتراب اي اذله . يحتمل انف راغم يعني يعيش ذليلا

وفي جوفه من دارم ذو حفيظةٍ　　لو أنَّ الليـــالي أنساته لياليـــا
ولكن رأيتُ الدهر يعثرُ بالفتى　　ولا يستطيع ردَّ ما كان جائيا
وكم مِثْلِه في مثلهـا قـد وضعتُه　　وقد كنتُ وثَّـاباً أُجرُّ الدواهيا
ولكن وقـاني ذو الجلال بقُدْرَةٍ　　شُرورَ زواني الناسِ إذ كنتُ زانيا

والفحش شيء أصيل في طبع الفرزدق . فهو ولوع بالتفصيل العـاري عن الاحتشام ، وكأنه يجد لذة في استعادة تجاربه ، وجر النـــاس إلى المشاركة في التمتع بعرضها . يقول من قصيدة يمدح بها هشاماً ، ويختم الغزل فيها بقوله :

مَشَيْنَ إليَّ لم يُطمَثْنَ قبلي　　وهُنَّ أصحُّ من بَيْض النعام[1]
فبِتْنَ بجـــانبيَّ مُصرَّعاتٍ　　وبِتُّ أفضُّ أغلاقَ الختام

وليس الفحش وحده هو الذي يسترعي النظر في مثل هذا الشعر ، ولكنا نلاحظ فيه أيضاً أنه يذهب فيه مذهب الفتك والهجوم على اللذة .

يمدح يزيد بن عبد الملك ، فيقدم لمدحه بمقدمة طويلة تستغرق ثلاثين بيتاً ، وهي من أفحش الغزل تفصيلا ، وأكثره إمعاناً في التدقيق العاري المتحلل من كل القيود الخلقية . يبدأها بقوله :

وآلفةٍ بَرْدَ الحجال احتوَيْتُها　　وقد نام من يخْشى عليها وأصحرا[2]

بل هو يحض الناس على الفجور ويدلهم على سبيله في قوله :

(١) الطمث افتضاض البكـارة .
(٢) الديوان ص ٤٢٧ — ٤٣١ .

عليكَ الدوُّ إنَّ بمستواه نساء الجنّ في البلد الرّقاق[1]
فتنكح ما اشتهيتَ بغير مَهْرٍ ولا عَدْوَى عليكَ ولا صَداقٍ[2]

وبينا نجد جريراً يبكي حين تمر به جنازة وهو يملي بعض شعره ، فيقطع الإملاء وقد أخذته رهبة الموت ، نجد الفرزدق يقول للحسن البصري ،وقد اجتمع به في جنازة فسأله وهو يعظه : ما أعددتَ لهذا اليوم ؟ فيجيبه :شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة . وقد كان يبدو للفرزدق في بعض الأحيان أن يتكلف النسك ، ويحمل نفسه على طريق الصالحين من أهل العبادة ، فيقول في ذلك شيئاً من الشعر . ولكن قارىء هذا الشعر لا يجد فيه أثراً لخشوع أو إيمان ، بل هو يكاد يستفزه للضحك ، وكأن فيه شيئاً يشبه التهاون الساخر – وإن كان غير مقصود – يقول يوم لقيه الحسن البصري في الجنازة :

لقد خاب من أولاد دارم من مشى إلى النار مشدودَ الخناقَةِ أزرقا
إذا جاءني يومَ القيامةِ قائدٌ عنيفٌ وسوّاقٌ يسوق الفرزدقا
أخافُ وراء القبر إن لم يُعافني أشدَّ من القبر التهاباً وأضيقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم يذوبون من حر الصديد تمزّقا

هذا شعر مضحك بقافيته القافيّة ، وبهذه القافات التي يستكثر منها في ثنايا البيت ، فتجعله كقحقحة الدجاج الذي يتهيأ للبيض ، وبهذه الصورة التي يتخيل فيها الفرزدق ألوان العذاب ، من شد الخناق ، والقائد العنيف ، والسواق الذي

---

(1) الدو الصحراء.الرقاق (بفتح الراء) الارض المستوية اللينة التراب ، تحته صلابة.

(2) العدوى طلبك من الوالي أن يعديك على من ظلمك بأن ينتقم لك منه اسم من اعداه اي نصره واعانه عليه .

(يسوق الفرزدقا) ، إلى آخر هذه الأخيلة ، التي تصور رجلاً يتكلف الخشوع ويحمل نفسه عليه حملاً .

وانظر بعد هذا إلى قصيدته التي يهجو فيها إبليس ويبدأها بقوله :

أطعتُك يا إبليسُ سبعين حِجَّةً فلما انتهى شيبي وتمّ تمامي

فررتُ إلى ربي وأيقنتُ أنني مُلاقٍ لأيام المنون حِمامي

فهي أبعد الأشياء عن هجائه . وكأنه كان ينطق فيها بلسانه ، كما قال له الحسن البصري ، حين ذهب إليه فقال له : إني هجوت إبليس فاسمع . قال : لا حاجة لنا بما تقول . قال : لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس إن الحسن ينهى عن هجاء إبليس . قال له الحسن : اسكت فإنك بلسانه تنطق [1]

وبعد ، فقد كان الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذي استطاع أن يصمد لجرير من كل معاصريه ، وأن يكيل له بمثل كيله . وهو إن لم يستطع أن يبلغ مبلغه في هدوء الأعصاب ، وامتلاك النفس ، وذكاء القلب ، فقد استطاع أن يدانيه من وجوه كثيرة . فمن ذلك براعته في خلق الصور وابتكارها ، والتمادي في توليدها والكشف عن أجزائها ، حتى تبدوَ واضحة مشرقةً من كل نواحيها . يقول لجرير معيراً ذلة عماته وخالاته ، وابتذالهن في رعي الغنم ، ويتهمهن بعبد من الرعاة اسمه يَسار :

كم عمَّةٍ لك يا جريرُ وخالةٍ فَدْعاء قد حَلَبَتْ عليَّ عِشاري [2]

---

(1) الاغاني ١٩ : ١٤ والديوان ص ٧٧٠

(2) الفدع خروج مفصل الابهام مع ميل في القدم قليل ، يعيره بأنها راعية . عشار جمع عشراء (بضم ثم فتح) وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة اشهر او ثمانية .

كنا نُحاذِرُ أن تَضيع لِقاحُنا … ولَما إذا سمعَتْ دعاءَ يَسارِ [1]
شغَّارةٍ تَقِذُ الفصيلَ برجلها … فَطَّارةٍ لقوادِمِ الأبكارِ [2]
كانت تُراوحُ عاتقَيْها عُلْبَةً … خلفَ اللقاحِ سريعةَ الإدرارِ [3]

ويقول في قوم من بني العدوية نزل برجل منهم اسمه أبو المهَّل في موضع يقال له (العِدَّان) فلم يعطوه إلا فصيلا :

ألا قَبحَ اللهُ القلوصَ التي سَرَتْ … برجلي إلى خَصْيِ العِدَانِ الْمُهَمَّلِ
بني أمِّ عَيلانٍ كأنَّ لحاهُمُ … مَخالي شعيرٍ عُلِّقَتْ فوقَ أبْغُلِ
تجمَّعتُمُ لي في فَصيلٍ كأنما … تجمَّعتُمُ لي في أغرَّ مُحجَّلِ

ويقول لمالك بن الجارود :

لعمرك ما أشبهتَ جدَّكَ مالكاً … ولا جدَّكَ الجارودَ ياعصَبَ الكلبِ
وما مالكٌ إلا عجوزٌ كبيرةٌ … مُضَبَّبَةُ الأسنانِ تَزحَفُ في الرَّكْبِ

ويقول لرجل من جيرانه :

قُعودُكَ في الشَّرْبِ الكرامِ بَلِيَّةٌ … ورأسُكَ في الإكليلِ إحدى الكبائرِ
فما نطُفَتْ كأسٌ ولا طابَ طعمُها … ضرَبْتَ على حافاتِها بالمَشافرِ

---

(١) يسار اسم راع ، يقول اذا سمعت هذه المراة دعاء الراعي تركت الابل وذهبت اليه .

(٢) الشغارة التي تشغر الفصيل برجلها اذا دنا من امه ليرضع ، الفطارة من الفطر (بفتح الفاء) وهو الحلب بالسبابة والوسطى مع الاستعانة بطرف الابهام . والقوادم الخلفان (بكسر الخاء) المتقدمان من البقرة والناقة (والخلف من الناقة كالضرع للشاة) . ويقال ان الابكار تحلب فطرا لانه لا يمكن حلبها ضبا لقصر الخلف ، والضب الحلب باربع اصابع مع الاستعانة بالابهام ، او الحلب باليدين جميعا .

(٣) العلبة قدح ضخم من جلود الابل او من الخشب يحلب فيها . تراوح عاتقيها علبة اي تضعها على هذا العاتق تارة وعلى العاتق الاخر تارة . اللقاح (بكسر اللام) الابل ، واحدتها لقوح (بفتح اللام) ولقحه (بفتح اللام وكسرها) وهي الناقة الحلوب .

ومن الهجاء الذي يعتمد على السخرية قوله في هجاء طيء :

ولو أنّ عصفوراً يمدُّ جناحه على طيءٍ في دارها لاستظلّتِ

وقوله في هجاء رجل اسمه صالح بن كُدَيْر . وقد دخل عليه. فوجد بين يديه دراهم منثورة ، فسأله إياها ، فتنقّى له صغارها :

يقولون صَبِّح صالحاً فاستغِثْ به وما صالحٌ ؟ ريح الخُرُوء بصالح!

وقوله يهجو محمد بن جرير بن عبدالله البجلي :

تَنَحَّ أهانَ اللهُ مَثْواكَ خاسئاً عن اسمِ نَبِيٍّ المسلمين مُحَمَّدِ

وقوله في هجاء رجل من بني نهشل :

فمِعْزَاكَ أصلِحْها التِّلادَ فإنما سَنَاؤكَ فيها أن تَنِبَّ وترضعا

سيأتي ابنَ مسعودٍ على نأي داره ثناءٌ إذا غَنّى به الركب أقذعا[1]

وقوله في هجاء رجل من قومه أقرضه مائة درهم . ثم ألح في طلبها حتى دفعها إليه ، وبراعة السخرية هنا تستند إلى الواقعية التي تحكي أسلوب عامة الناس في مألوف حديثهم :

أفي مائةٍ أقرضتَها ذا قرابةٍ على كلِّ بابٍ ماءُ عينِك يَدْمَعُ ؟

تسيلُ مآقيكَ الصَّدِيدَ تلومني وأنت امرؤٌ قَحْمُ العِذارَيْن أصلعُ

فدونَكَها إني أخالُكَ لم تَزَلْ لدُنْ خرجتْ من باب بيتِك تَلْمَعُ[2]

تنادي وتدعو اللهَ فيها كأنما رُزِئت ابن أمٍّ لم يكن يتضعضع

---

(١) التلاد والتليد ما ولد عندك من مالك . وهي منصوبة على البدل من الضمير في (أصلحها) . نبيب التيس صياحه عند السفاد . يسخر به قائلا سيأتيك ثناء ولكنه ثناء مقذع .

(٢) لمع بيده (كمنع) أشار . كأنه لا يزال يرفع يديه متحسرا .

وقريب من هذا الأسلوب ، قوله يتهكم بالأنصار ، حين تحداه رجل منهم أن يقول مثل شعر حسان :

وبالله لولا أن تقولوا تكاثرتْ علينـــا تميمٌ ظالمين وأسرفوا
لما تُرِكَتْ كفٌّ تشير بإصبع ولا تركتْ عينٌ على الأرض تَطْرِف

والفرزدق إن كان يقصر عن جرير في الهجاء الشخصي ، فهو يتفوق عليه تفوقاً ظاهراً في الهجاء الاجتماعي ، الذي يبدو فيه أوسع أفقاً ، وأشمل نظراً. فالدارس للحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، يستطيع أن يجد صورة منهـــا في شعر الفرزدق ، هي أوضح بكثير مما يستطيع استخلاصه من شعر جرير . فقد استطاع الفرزدق أن يصور فساد الحكم وتجبر الولاة ، وظلم الجباة ، وانتشار الرشوة ، وتأثر الحكام بالقبلية . وقدّم لنـــا صوراً واضحة للسجون في ذلك العصر . فبينما كانت عين جرير النقادة لا تقع إلا على الأفراد من الناس ، كان الفرزدق يقف من عصره موقف الرقيب ، الذي يفتح عينه على كل ما حوله من أحداث ، لينهال بسوطه على المنحرفين عن جادة الصواب .

الموالي والهجاء

عرفت الدولة الأموية بتعصبها لعنصر العرب ولكل ما هو عربي، والاستخفاف بهذا الخليط من الأجناس، الذين حملتهم سيوفُ العرب على الخضوع، فسكتوا كارهين، ولَبِسَ بعضهم الإسلامَ على فسادٍ ودَخَلٍ. وبينما كان العرب ينظرون إلى هـــذا السيل من الموالي، الذي يتدفق عليهم مع الفتوحات، أسرى من الرجال والوِلْدان، وسبايا من الجواري والإماء، نظرَ الغالب إلى المغلوب، كان هؤلاء الموالي يخفون في أنفسهم حقداً يتربص ملتمساً مُتنَفَّساً ومنفذاً. فالعرب الذين كانوا في جاهليتهم لا يحترمون إلا القوى، فرداً كان أو جماعة أو أمّة، ظل في سوادهم – وفي الأعراب منهم خاصة – بقية من هذا الإحساس، لم تتغلب عليها سماحة الإسلام في دعوته إلى الإنصاف والأخوة في الله. فهم لا يرون هذا الخليط من الأسرى والإماء إلا عبيداً أرقاء، قد أباحهم السيف لهم ليسخروا في خدمتهم. والموالي – ومعظمهم من الفرس – لا يرون العرب إلا بدواً جفاة، قد أتاهم الملك عفواً، ليس في قديمهم ما يؤهلهم لسيادة أو تدبير سياسة. وإنما هو الحظ ومحض الصدفة قد أسعدهم، حين حباهم بالنبي ﷺ، فقضى لهم الغلبة، ونكب هذه الأمة العريقة، فقضى عليها الذل والاستعباد.

ولم يكن بد لهذه الجيوش الجرارة من الموالي من أن تعيش وتلتمس طريقهـا للحياة، وتستر هذه الحسرة اللاذعـــة، وهذا الحقد الدفين بستار من الرياء. فاتخذ بعضهم صناعة الغنـــاء، وكسب مكانه بالزلفى والغلبة على قلوب هؤلاء البدو، الذين بهرتهم الألحان الجديدة المترفة، وما يصاحبها من آلات موسيقية

لا عهد لهم بمثلها . ولم تكن فتنتهم بهذه الطائفة نفسهـــا من مغنين ومغنيات ، بأقل من فتنتهم بألحانهم الجديدة وموسيقاهم . فقد كانت هـــذه الطائفة تنشر البدع الجديدة في أساليب الحياة الاجتماعية ، في نفس الوقت الذي تفتن فيـــه الناس بهذا البدع الجديد من ضروب الغناء .

فهذا هو ابن سريج يخفي صلعه بجُمَّةٍ مركبة ، ويخضب أطراف أصابعه بالحناء ، ويلبس الثياب المُصبَّغة ، ويسير في الطرقات عابثـــاً ، يجر وراءه جرادة قد شد رجلها بخيط ، يطيرها ويجذبها كلما تخلفت عنه . وهو يصحب جماعة من المترفين العابثين من شباب العرب في مواسم الحج ، يتعرضون للنساء في طوافهن . يحج مرة مع عمر بن أبي ربيعة على نجيبين ، رحالتاهمـا ملبستان بالديباج ، وقد خضبا النجيبين . ويحج معه مرة أخرى ، وقد ركب عمر نجيباً مخضوباً بالحناء مشهَّر الرَّحْل بقراب مذهب ، وركب ابن سريج بغلة شقراء ، ومعه غلام له يقود فرساً أدهم أغر محجَّلاً ، في عنقه طوق ذهب ، ومع عمر جماعة من حشمه وغلمانه ومواليه ، وعليه حلة موشية يمانية ، وعلى ابن سريج ثوبان هراويان مرتفعان [1] .

وهذا هو حنين الحيري ، يتخذ الأزياء الفارَسية الزاهية الألوان ، فيغني عند بِشْر بن مروان وعُودُه في حِجْره ، وعليه قباءٌ زاهي اللون ، وجُبَّة واسعة من الفرو الأحمر طويلة الكم تتذبذب يداها ، وخفان مَوْشيَّان [2] . وهذا هو الغَرِيض ، يُصنّع نفسه ويُبرّقها – كما يقول صاحب الأغاني [3] – حين يغني ، فيضرب بالعود ، وينقر بالدف ، ويوقّع بالقضيب ، فيفتن النـــاس بغنائه وبوضاءة وجهه وحسن زيه .

---

(١) الاغاني ١ : ٢٤٩ – ٢٧٤
(٢) الاغاني ٢ : ٣٥٠
(٣) الاغاني ٢ : ٣٦٠

افتتن العرب بهذه الطبقة من الموالي التي اتخذت الغناء ، حتى لقد وقف ابن عائشة يغني في الموسم ، فحبس الناس ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكادت الفتنة أن تقع ، فجيء به إلى هشام بن عبد الملك فقال له : يا عدو الله ! أردت أن تفتن الناس ؟ فأمسك ابن عائشة عنه ، وكان تيّاهاً . فقال له هشام : أرفق بتيهك ! فقال : حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياهاً . فضحك وخلى سبيله [1] .

وبلغ من فتنة الناس بهم أنهم كانوا يحتفلون بمقدمهم ، فيجتمعون لاستقبالهم بما لا يجتمع لمثله خلق في استقبال أمير أو خليفة . قدم حنين الحيري على الحجاز، حين دعاه إليها مغنوها الثلاثة المشهورون — ابن سريج والغريض ومعبد — فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم الخبر ، فخرجوا يتلقونه ، فلم يُرَ يوم كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ . وبلغ من تزاحم الناس على الدار التي نزلوا بها حين ضاقت بهم أنهم صعدوا فوق السطوح فسقط الرواق على من تحته . ومات حنين تحت الردم [2] .

هذه طائفة من الموالي ، قد ابتغت الوسيلة للظهور والثراء والغناء ، وانتقمت بسلاح المستضعف الذي يغزو القلوب والجيوب ، حين يعجز عن مواجهة الخصم . ويمكننا أن نضيف إلى هذه الطائفة أشعب وأضرابه من المهرّجين ، الذين يكسبون مكانتهم بحركاتهم الجسمية ونوادرهم البارعة . فقد مرن أشعب على ألوان من الحركات العجيبة ، فكان يغضّن وجهه ويشنّجه ، حتى يصير عرضه أكثر من طوله ، ويصير في هيئة لم يعرفه أحد بها ، ثم يرسل وجهه ويطوّله ، حتى يكاد ذقنه أن يجوز صدره ، ثم ينزع ثيابه ويتحادب فيصير في ظهره حدبة كسنام البعير ، ويصير طوله مقدار شبر أو أكثر ، ثم يقوم

---

(1) الاغاني ٢ : ٢٠٨

(2) الاغاني ٢ : ٣٥٥

فيتطاول حتى يصير أطول ما يكون من الرجال [١] . وكان مع هذا من أكثر الناس نادرة ، وأحسنهم فكاهة ، وأجودهم أداء للغناء .

وطائفة أخرى من الموالي قد انصرفت للدين ودراسة القرآن والتفقه ، كالحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعطاء بن يسار وربيعة الرأي وابن جُرَيح [٢] . وهؤلاء قد انصرفوا للعبادة ، فأذهب الإسلام غيظ قلوبهم ، وبرأهم مما اتسم به جنسهم من الحقد على العرب والكيد لهم .

وطائفة ثالثة اتخذت الشعر وبرعت فيه ، فأتاح لهم نبوغهم شيئاً من النفوذ . احترف بعضهم السياسة ، فتعصب لهذا الفريق أو ذاك من الأحزاب العربية ، كالذي يروى من تعصب سُدَيف لبني هاشم ، وتعصب شَبِيب لبني أمية [٣] ، ومناصرة أبي العبـــاس الأعمى للأمويين [٤] وانقطاع إسمعيل بن يسار لآل الزبير [٥] . وكان هؤلاء الشعراء في معظمهم منافقين ، لم يعتنقوا هذا المذهب أو ذاك عن عقيدة أو إيمان ، فالعرب عندهم سواء لا يحملون لهم إلا البغض والازدراء ، ولكنهم يلتمسون السبيل للظهور ، بما يتكلفون من تصنع الولاء والإخلاص لأصحاب النفوذ . وخير ما يصور علاقتهم بهذه الأحزاب العربية ، ما يروي صاحب الأغاني من قـــدوم إسمعيل بن يسار على الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك — وكان قد تحول إلى الأمويين بعد قتل ابن الزبير وإفضاء الملك إليهم — استأذن اسماعيل على الغَمْر فحجبه ساعة ، ثم أذن له ، فدخل يبكي ، فقال له الغَمْر : مالك يا أبا فائد تبكي ؟ قال : وكيف لا أبكي ؟ وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أُحجَب عنك ؟ فجعل الغمر يعتذر إليـــه ، وهو يبكي ، فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر . وخرج من عنده ، فلحقه رجل فقـال

---

(١) الأغاني ١٧ : ٩٥
(٢) ضحى الاسلام ١ : ٢٧
(٣) الأغاني ١٤ : ١٦٢
(٤) الأغاني ١٥ : ٥٦
(٥) الأغاني ٤ : ٤٠٨

له : أخبرني ويلك يا إسمعيل ، أي مروانية لك ولأبيك ؟ قال : بغضُنا إياهم . امرأته طالق ، إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح ، وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له قل لا إله إلا الله ، فقال لعن الله مروان ، تقرباً إلى الله تعالى وإبدالاً له من التوحيد ، وإقامةً له مقامة [1] . وقد كان إسمعيل هذا شعوبياً شديد التعصب على العرب ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً . وكذلك كان ابنه إبراهيم [2] . دخل إسمعيل على هشام بن عبدالملك في خلافته ، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصر ، فاستنشده — وهو يرى أنه سينشده مديحاً له — فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم :

يا ربع مية بالعلياء من رِيم ... هل ترجعن إذا حُييتُ تسليمي

إلى أن انتهى إلى قوله :

إني وجدِكَ ماعودي بذي خور ... عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ... ولي لسان كحد السيف مسموم

أحمي به مجد أقوام ذوي حسب ... من كل قَرْمٍ بتاج الملك معموم

جَحاجِحٌ سادةٌ بُلجٌ مَرازِبَةٌ ... جُردٌ عِتاقٌ مَساميح مَطاعيم

مَنْ مثلُ كسرى وسابور الجنود معاً ... والهُرْمزان لفخرٍ أو لتعظيم

أُسْدُ الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الفرس والروم

يمشون في الحلق الماذي سابغةً ... مشي الضراغمةِ الأُسدِ اللّهاميم

هناك إن تسألي تُنبَيْ بأن لنا ... جُرثومةً قهرتْ عِزَّ الجراثيم

---

(١) الاغاني ٤ : ١٢٠

(٢) الاغاني ٤ : ١٢١ و ١٢٧

فغضب هشام وقال : يا عاض بَظْر أمّه ، أعَلَيَّ تفخر ؟ وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غُطّوه في الماء ! فغطوه في البِركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه وهو بشر حال ، ونفاه من وقته ، فأخرج عن الرُّصافة منفياً إلى الحجاز [1] . ومما يصور نفاق هذه الطائفة من الموالي في علاقتهم بسادتهم ، ما يروي الطبري ، من أن الوليد بن يزيد لما اشتد به الضيق وأخذه الثوار من كل مكان ، قال : من جاء برأس فله خمسمائة . فجاء قوم بأرؤس . فقال الوليد : اكتبوا أسماءهم . فقال رجل من مواليه ممن جاء برأس : يا أمير المؤمنين ! ليس هذا بيوم يُعمَل فيه بنَسِيئَة [2] .

ومن هذه الطائفة جماعة كانوا يكيدون للعرب بإثارة الفتن والتحريش بين السادة والقادة ، كالذي حدث في مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وما تلاه من وقوع الحرب بين سيدنا علي وبين معاوية رضي الله عنهما . ومنهم من كانت وسيلته إلى الكيد هي إفساد العقيدة بدس الأحاديث الكاذبة واختراع التأويلات الباطلة كالذي أقحم على التشيع من مفتريات .

وآثر بعض الشعراء من الموالي أن يبتعد عن السياسة ومغامراتها ، وما تجر على محترفيها من مكاره ، فكسبوا مكانتهم بهجاء الناس . وهؤلاء كثير ، منهم الحزين الكناني ، وفيه يقول أبو الفرج: كان هجّاء خبيث اللسان ساقطاً يرضيه اليسير ، ويتكسب بالشر وهجاء الناس [3] . ومنهم ابن الخياط ، كان ماجناً خليعاً هجّاء خبيث اللسان [4] . ومنهم ابن ميادة ، كان عِرّيضاً للشر يطلب مهاجاة الشعراء ومسابة الناس . وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول :

اعرَنْزِمِي مَيَّادُ للقوافي واستمعيهن ولا تخافي
ستجدين ابنَك ذا قِذَافِ [5]

---

(1) الاغاني ٤ : ٤٢٢
(2) الطبري ٥ : ٥٥٦
(3) الاغاني ١٤ : ٧٦
(4) الاغاني ١٨ : ٩٤
(5) الاغاني ٢ : ٢٦٣

ومنهم أبو عطاء السِّنْدي [1] . ومنهم زياد الأعجم [2] . ومنهم يزيد بن مُفَرّغ الذي اشتهر بأهاجيه في آل زياد ، وصلابته في احتمال أذاهم وصبره على اضطهادهم [3] .

وقد كان كثير من هؤلاء الشعراء لا يكتمون تعصبهم لقومهم ، وتهكمهم بكل ما هو عربي ، حتى لقد غلب عليهم الاستهتار ، وروي عن بعضهم ما يصور الاستخفاف بالإسلام ، وكأنهم لم يروه إلا مذهباً سياسياً ، قد أتاح للعرب هذا النفوذ العريض ، الذي قوّض دولتهم ، وجعلهم في هذا المكان من الذل والاستعباد .

فمثال تعصبهم قول ابن ميّادة - وكان ابن أمّ وَلَد - [4] :

أنا ابن أبي سلمى وجديَ ظالم   وأمي حَصَانٌ أخلَصَتْها الأعاجم
أليس غلام بين كسرى وظالم   بأكرم من نيطت عليه التمائم

وقوله له :

لنا الملك إلا أن شيئاً تعده   قريش ولو شئنا لداخت رقابها
وإن غضبَتْ من ذا قريش فقل لها   معاذ الإله أن أكون أهابها

وقوله :

فضلنا قريشاً غير رهط محمد   وغير بني مروان أهل الفضائل

---

(1) الاغاني ١٦ : ٨١
(2) الاغاني ١٤ : ١٠٢
(3) الاغاني ١٧ : ٥١
(4) الاغاني ٢ : ٢٦٢ . وابن ام ولد اي ان امه كانت جارية ابيه العربي . وميادة أم الشاعر التي ينتسب إليها فارسية ، وأبوه عربي من غطفان .

وقد لقيه إبراهيم بن إسمعيل فقال له أنت فضلت قريشاً ؟ وجرّده وضربه أسواطاً [1] .

ومن أمثلة هذا التعصب كذلك ما يروى من أن زياداً الأعجم كان يخرج وعليه قَبَاء ديباج تشبُّهاً بالأعاجم ، حتى لقد مر به يزيد بن المهلب ذات يوم وهو على حاله تلك ، فأمر به فقُنِّع أسواطاً ومزق ثيابه قائـــلا : والتُرْكُ تتشبه لا أمّ لك ؟ [2] .

أما استهتارهم ومجافاتهم للإسلام فالأمثلة عليه كثيرة .كان زياد الأعجم عند عمر بن عبد الله بن مَعْمَر بفارس . وقدم عليه غزال بن محمد الفقيه من مصر فكان غزال يحدثه بحديث الفقهاء ، فقال زياد :

يحدثنا أن القيامـــة قد أتت	وجاء غزال يبتغي المال من مصر
فكم بين باب الترك إن كنت صادقاً	وإيوان كسرى من فلاة ومن قصر

ومر به يزيد بن حبناء الضّبي وهو ينشد هجاء مفحشاً ، فقال له : ألم يأن لك أن ترعوي وتترك تمزيق أعراض الناس ؟ ويحك حتى متى تمادى في الضلال؟ كأنك بالموت قد صبحك أو مساك . فهجاه زياد بقوله [3] :

يحذرني الموتَ ابنُ حبناء والفتى	إلى الموت يغدو جاهداً ويروح
وكل امرىء لا بد للموت سائر	وإن عاش دهراً في البلاد يسيح
فقل ليزيدٍ يا ابن حبناء لا تعظ	أخاك وعِظْ نفساً فأنت جَنُوح

---

(١) الاغاني ٢ : ٢٩٤ و ٣٣٠
(٢) الاغاني ١٤ : ١٠٤
(٣) الاغاني ١٤ : ١٠٧

تركتَ التُّقَي والدين دين محمد لأهل التقى والمسلمين يلوح

وتابعتَ مُرّاقَ العراقين سادراً وأنت غليظ القُصْرَيَيْن صحيح [1]

وروى الزبير بن بكار أن أباه ولي الحجاز ، فألزم ابن الخياط حضور الصلاة مع الجماعة ، فجاء ابن الخياط وأنشده :

قل للأمير يا كريم الجنس يا خير من بالغَوْر أو بالجَلْس [2]

وعُدَّتي لولدي ونفسي شغلتني بالصلوات الخمس

فقال له : ويحك . أتريد أن أستعفيه لك من الصلاة ؟ والله لا يعفيك وإن ذلك ليبعثه على اللجاج في أمرك ثم يضرك عنده . فمضى وقال : نصبر إذن حتى يفرج الله تعالى [3] وقد حُدَّ ابن الخياط في الخمر ، جلده مالك بن أنس . فلما ولي ابن سعيد القضاء في المدينة قال فيه [4] :

بَكَّتَنِي النـــاس لأنْ جُلِدْتَ وَسْطَ الرَّحَبَةْ

وأنني أزني وقـــد غنيت في المحتسِبَة [5]

أعزف فيهم بعصا ابـ ن مالك المقتَضَبَة

فقلت لمـــا أكثروا عليَّ فيمَ الجَلَبَة

ذا ابنُ سعيدٍ قد قضى وحالُنـــا مقتربـة

---

(١) السادر المتحير والذي لا يبالي ما صنع . القصريان ضلعان يليان الترقوتين .

(٢) الغور ما انخفض من الارض ، والجلس ما غلظ .

(٣) الاغاني ١٨ : ٩٧ (٤) الاغاني ١٨ : ٩٩

(٥) المحتسبة طائفة من الشرطة يمشون في الطرقات لمراقبة الناس واخذ المستهترين والمخالفين .

لا بل له التفضيل فيـ ـما لم أَنَلْ والغلبـة
بحسنِ صوت مطرب وزوجـــةٍ مُعتَصِبَة

وكان الحزين الكناني مدمنـــاً للشراب فاسد الدين . وفد على عبدالله بن عبد الملك فقال له : أي الرقيق أعجب إليك ؟ قال : ليختر لي الأمير . فاختار له عبد الله أحدهم وقال : رضيت لك هذا ، فإني رأيته حسن الصلاح . فقال الحزين : لا حاجة لي به فأعطني أخاه . فأعطاه إياه .

وكان بعض هؤلاء الشعراء – على مكانتهم في الشعر – لا يفصحون ولا يحسنون النطق بالعربية . كان أبو عطاء السِندي يجمع بين لثغة ولُكْنة فلا يكاد يفهم كلامه . كان يقول (مرهبا مرهبا هيا كم الله) يقصد : مرحبا مرحبا حيا كم الله . وكان يقول (زز) يعني زُجٌ . و (زرادة) يعني جرادة . ويقول (أزُنّ) يعني : أظن . ويقول (بنو سَيطان) يعني : بنو شيطان.وكانالناس يسمعونه فيكتمون الضحك ولا يجسرون على إظهاره خوفاً من شره (٢) . أتى سليان بن سليم فأنشده :

أعوَزَتْني الرُّواةُ يا ابن سُلَيم وأبى أن يُقِيمَ شِعْري لساني
وغلا بالذي أَجمجِمُ صدري وجفاني لعُجْمتي سلطاني
وازدرتني العيون إذ كان لوني حالكاً مُجْتَوًى من الألوان
فضربتُ الأمور ظهراً لبطنٍ كيف أحتال حيلةً للساني
وتمنيتُ أنني كنت بالشعـ ـر فصيحاً وبان بعضُ بياني

(١) الأغاني ١٤ : ٧٩

(٢) الأغاني ١٦ : ٨٣ و ٨٧

فأكفِني ما يضيق عنه لساني　　بفصيحٍ من صالح الغلمان

يُفهِمُ الناسَ ما أقول من الشعـ　　ـر فإن البيان قد أعياني

فأمر له سليمان بوصيف بربري فصيح، فسماه عطاء، وتكنى به، وروّاه الشعر، فكان إذا مدح من يجتديه أو ينتجعه أمره بإنشاده ما قاله [1].

وكان زياد الأعجم لا يحسن النطق بالعربية على ما أتيح له من التقدم في الشعر. وقد ضرب أبو الفرج مثلاً لعجمته بقوله لغلام له دعاه فأبطأ عليه (منذ لدن دَ أوتك إلى أن قلت لي ما كنت تَسْنَعاً ؟) يقصد : منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لي ما كنت تصنع ؟ .

وقد حقق الهجاء لهذه الطائفة ما طمحوا إليه من مكانة، فكان سلاحاً مرهوباً يخشاه الناس، يتقونه بإكرامهم ومداراتهم. روى رجل أنه كان جالساً عند المهلب، فأقبل عليه رجل طويل مضطرب؛ فلما رآه المهلب قال : اللهم إني أعوذ بك من شره. فجاء فقال : أصلح الله الأمير. إني قد مدحتك ببيت صَفَدُه [2] مائة ألف درهم. فسكت المهلب. فأعاد عليه القول. فقال: أنشدنيه. فأنشده :

فتى زاده السلطان في الخير رغبةً　　إذا غيَّرَ السلطانُ كلَّ خليل

فقال له المهلب : يا أبا أمامة، مائة ألف ؟! فوالله ما هي عندنا. ولكن ثلاثون ألفاً فيها عُروض [3]. فالمهلب لم يدفع الثلاثين ألفاً لهذا البيت التافه

---

(1) الاغاني ١٦ : ٨١　　(٢) الصفد (بفتحتين) العطاء .

(٣) العروض جمع عرض (بفتح العين وسكون الراء) وهو المتاع وكل شيء سوى النقد . يريد المهلب ان يعطيه بعض المبلغ نقدا وبعضه متاعا . (الاغاني ١٤ : ١٠٧) .

من الشعر ، فهو لا يساوي شيئاً . وإنما دفعها اتقاء هجائه ، واشترى بها عرضه. ولقد بلغ من رهبة هؤلاء الموالي عند النـــاس ، وجرأتهم عليهم ، أن زياداً هذا شرب يوماً مع حبيب بن المهلب ، فسجعت حمامة على شجرة ، فقال لهـــا زياد :

تَغَنَّيْ أنتِ في ذِمّي وعهدي وذمة والدي إن لم تُطَاري
فإمّا يقتلوك طلبتُ ثأراً له نبأ لأنكِ في جواري

فتحداه ابن المهلب فأصاب الحمامة بسهم تهكماً به ، فانطلق زياد إلى المهلب ابن أبي صفرة شاكياً ، فألزم ابنه دية الحمامة ألف دينار لأنها جارته [1] . وإنما فعل ذلك اتقـاءَ شره . وحج عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، فقال أبوه : سيأتيك الحزين الكناني الشاعر بالمدينـــة ، وهو ذَرِب اللسان ، فإياك أن تحتجب عنه ، وأرضه . ووصفه له ، فقـال إنه أشعر ذو بطن عظيم الأنف . فلما قدم عبدالله المدينة وصفه لحاجبه ، وقال له : إياك أن ترده [2] . بل لقـد بلغ من جرأة الحزين الكناني ، أنه كان يفرض الضرائب على أشراف الناس وعلى بعض القرشيين .

روى صاحب الأغاني أنه ضرب على كل رجل من قريش درهمين في كل شهر ، منهم ابن أبي عتيق ، فجاء يوماً لأخذ درهميه وهو على حمار أعجف ، وكان كُثَيِّر الشاعر جالساً مع ابن أبي عتيق . فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين. فقال له الحزين: من هذا الذي معك ؟ قال:هذا أبو صخر كثيِّر – وكان قصيراً دميماً – فقال له الحزين : أتأذن لي أن أهجوه ببيت ؟ قـــال : لا لعمري لا آذن أن تهجو جليسي ، ولكن أشتري عرضه منك بدرهمين آخرين . ودعا له

---

(١) الأغاني ١٤ : ١٠٣ (٢) الأغاني ١٤ : ٧٧

بها . فأصغى ثم قال : لا بد من هجائه ببيت . قال : أو أشتري ذلك منك بدرهمين آخرين . ودعا له بها . فأخذهما وقال : ما أنا بتاركه حتى أهجوه . قال : أو أشتري منك ذلك بدرهمين آخرين . فقال له كثير : ائذن له وما عسى أن يقول فيّ ؟ فأذن له ابن أبي عتيق فقال :

قصيرُ القميص فاحشٌ عند بيته	يعضُّ القُراد بأسته وهو قائم

فوثب كثير إليه فوكزه فسقط هو والحمار، وخلص ابن أبي عتيق بينهما[1].

وقد كان معظم هجاء هذه الطبقة كما ترى غثاً تافهاً إذا وزن بموازين الشعر . وكان شطر كبير منه مرتجلاً ينشئه الشاعر لساعته . كان الحزين الكناني يمدح محمد ابن مروان ويهجو عمرو بن عمرو بن الزبير . ثم إن ابن مروان سأله أن يكف عن عمرو فأبى ، وقال : لا والله ولا بِحُمْرِ النَّعَم وسُودِها ، لو أعطيتها ما كففت عنه ، لأنه ما علمت كثير الشر ، قليل الخير ، متسلط على صديقه فظ على أهله . (وخَيْرُ ابن عمرٍو بالثريا معلق) فقال له محمد بن مروان : هذا شعر ؟ فقال : بعد ساعة يصير شعراً ، ولو شئت لعجلته ، ثم قال [2] :

شرٌّ ابن عمرو حاضر لصديقه	وخير ابن عمرو بالثريا معلق
ووجه ابن عمرو بإسرٌ إن طلبته	نوالاً إذا جاء الكريم الموفق
فنفس الفتى عمرو بن عمرو إذا غدت	كتائب هيجاء المنية تَبْرَق[3]
فلا زال عمرو للبلايا رَدِيَّةً	تباكره حتى يموت وتَطْرُق[4]
يهرُّ هريرَ الكلب عمرو اذا رأى	طعاماً فما ينفك يبكي ويشهق

---

(1) الاغاني ١٤ : ٧٦

(2) الاغاني ١٤ : ٨٣

(3) برق (كطرب) تحير

(4) ودية أي هدف وغرض

وهذا شعر تافه كما هو بَيِّن . ولكن أمثال هؤلاء الهجائين كانوا من الضعة وضياع الحسب بحيث يكبر على الأشراف ما يقولون لهم وإن كان تافهاً . ثم هم لا يبالون أن يهجوهم الناس . ولذلك كانوا أكثر ما يتعرضون للسادة والوجهاء . ولم يكونوا يتعرضون للذين لا يبالون أن يجيبوهم ؛ ويظهرون عدم الاكتراث بشعرهم . هجا ابن الخياط موسى بن طلحة بن بلال التَّيْمي فقال :

عجب الناس للعجيب المحال   حاض موسى بن طلحة بن بلال

زعموه يحيض في كل شهر   ويرى صُفْرَةً لكل هلال

فلقيه موسى فقال : يا هذا ، وأي شيء عليك ؟ نعم حضت وحملت وولدت وأرضعت . فقال له ابن الخياط : أنشدك الله أن لا يسمع هذا منك أحد فيجترىء على شعري الناس فلا يكون شيئاً ، ولن يبلغك مني ما تكره بعد الآن .

وقد غَلَبَ على هجاء هذه الطبقة الاقتضاب والقصر ، فكان ذلك أدعى لشيوعه وخفته على الألسن ، وأشد للذعه ونكايته . كان عبيدالله بن زياد يقول : ما هجيت بشيء أشد عليَّ من قول ابن مُفَرِّغ :

فكِّر ففي ذاك إن فكرتَ مُعْتَبَر   هل نلتَ مكرمةً إلا بتأمير

عاشت سُمَيَّةُ ماتدرى وقد عُمِرَتْ   أن ابنها من قريشٍ في الجماهير

وقال في هجاء زياد بن سُمَيَّة [2] :

---

(1) الأغاني ١٨ : ٩٥

(2) هو زياد بن أبيه والي العراق الذي اراد معاوية ان يلحقه بابيه ابي سفيان .

فاقسم ما زياد من قريش ولا كانت سُميَّة من تميم
ولكن نسلُ عبدٍ من بَغِيٍّ عريقِ الأصل في النسب اللئيم

وقال فيه :

إن زياداً ونافعاً وأبا بكـ ـرة عندي من أعجب العجب
إن رجالاً ثلاثة خُلقوا في رحم أنثى ما كلهم لأب
ذا قرشيٌّ كما يقول، وذا مولى، وهـذا بزعمه عربي

ويقول زياد الأعجم لكعب الأشقري الشاعر حين هجاه :

قُبيِّلة خيرها وشرها وأصدقها الكاذب الآثم
وضيفهم وسْطَ أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائم

ويقول له :

إذا عذَّبَ اللهُ الرجال بشِعرهم أمنتُ لكعبٍ أن يُعَذَّبَ بالشِّعر

ويقول لرجل من جَرْم :

قضى الله خلق الناس ثم خُلِقْتُمُ بقيةَ خلق الله آخرَ آخِرِ
فلم تُسمَعُوا إلا بما كان قبلكم ولم تُدرَكُوا إلا بدق الحوافر
فلو ردَّ أهلُ الحق من مات منكم الى حقه لم تُدفنوا في المقابر

هذه طبقة من المستضعَفين المغلوبـــين على أمرهم ، فرَضت عليهم القوة الذلّ ، وقَضَى عليهم التعصب المتطرف أن يعيشوا مستعبَدين مهضومي الحقوق ، فتسلح بعضهم بالرياء يستر به حقده الكامن ، وتسلح فريق منهم بالهجاء ، ودفع اليأس فريقاً ثالثاً إلى الزهد ، يلتمسون في نعيم الآخرة المقيم عوضاً من جاه الدنيا الحائل . ولكنهم في جملتهم ظلوا يكيدون للعرب، وينشرون حضارتهم الفارسية في بطء وتصميم ، حتى أتيح لهم الظفر الكامل ، فقوّضوا ملك الأمويين ، وأقاموا على أنقاضه دولة عربية المظهر ، فارسية الروح والصميم .

والحمد لله رب العالمين

مصادر البحث

مرتبة حسب أوائل الحروف

(ا)

الإنباه على قبائل الرواه	لابن عبد البر	السعادة بمصر ١٣٥٠هـ
الأغاني	لأبي الفرج الأصفهاني	دار الكتب المصرية في الأجزاء العشرة الأولى، بولاق فيما يليها
الأمالي	لأبي علي القالي	دار الكتب المصرية
أنساب الأشراف	للبلاذري (أحمد بن يحيى)	الجامعة العبرية بالقدس ١٩٣٨

(ب)

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب	للألوسي (محمود شكري)	التجارية بمصر ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م
البيان والتبيين	للجاحظ (عمرو بن بحر)	التجارية بمصر ١٣٤٥هـ-١٩٢٦م

(ت)

تاريخ ابن الأثير (الكامل)	لابن الأثير (عز الدين علي بن أبي الكرم)	المنيرية بمصر ١٣٤٨هـ
تاريخ الطبري (الأمم والملوك)	للطبري (محمد بن جرير)	التجارية بمصر ١٩٣٩ م
التبصير في الدين	للاسفراييني (شاهفور ابن طاهر)	الأنوار ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م
التنبيه والإشراف	للمسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين)	الصاوي بمصر ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م

(ج)

جمهرة أشعار العرب	للقرشي (أبي زيد محمد بن الخطاب)	التجارية بمصر ١٣٤٥هـ-١٩٢٦م

(ح)

حماسة أبي تمام	لأبي تمام (حبيب بن أوس)	الأزهر بمصر ١٣٤٦هـ-١٩٢٧م

(خ)

الخراج	لأبي يوسف (يعقوب بن إبراهيم)	السلفية بمصر ١٣٥٢هـ
الخراج	للقرشي (يحيى بن آدم)	السلفية بمصر ١٣٤٧هـ
خزانة الأدب	للبغدادي (عبدالقادر بن عمر)	الحلبي بمصر ١٩٣٠م

(د)

ديوان الأخطل		الكاثوليكية بيروت ١٨٩١م
ديوان أعشى همدان (ضمن ملحقات ديوان الأعشى أبي بصير)		لندن ١٩٢٨م
ديوان جرير		التجارية بمصر؟
ديوان الفرزدق		« « ١٣٥٤هـ-١٩٣٦م
ديوان الكميت بن زيد		مطبعة الرسالة ؟
ديوان المعاني	للعسكري (أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل)	التجارية بمصر ١٣٥٢ هـ

(ش)

شرح حماسة أبي تمام	للتبريزي (أبي زكريا يحيى بن علي)	التجارية بمصر ١٣٥٧-٩٣٨
شرح نقائض جرير والفرزدق	لأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى	ط أوروبا

شعراء النصرانية	للأب لويس شيخو	الكاثوليكية بيروت ١٩٢٦م
الشعر والشعراء	لابن قتيبة (أبي محمد عبدالله بن مسلم)	تحقيق السقا ١٩٣٢م

(ط)

طبقات فحول الشعراء	لمحمد بن سلام الجمحي	المعارف ١٣٧١هـ-١٩٥٢م
الطبقات الكبرى	لابن سعد (عبدالله محمد بن سعد)	ليدن ١٣٢٠هـ

(ع)

العقد الفريد	لابن عبد ربه (أحمد بن محمد ابن عبد ربه)	التجارية بمصر ١٩٤٠م
العمدة في صناعة الشعر ونقده	لابن رشيق (الحسن بن رشيق)	« « ١٣٥٣هـ١٩٣٤م
العواصم من القواصم	لابن عربي	السلفية بمصر ١٣٧٥هـ

(ف)

فتوح البلدان	للبلاذري (أحمد بن يحيى)	التجارية بمصر ١٣٥٠-١٩٣٢
الفهرست	لابن النديم (محمد بن إسحق)	التجارية بمصر ١٣٤٨ هـ

(ك)

الكامل	للمبرد (أبي العباس محمد بن يزيد)	التجارية بمصر ١٣٥٥ هـ

(م)

المؤتلف والمختلف	للآمدي (أبي القاسم الحسن بن بشر)	القدسي بمصر ١٣٥٤ هـ
مختصر الفرق بين الفرق	للرسعني (عبدالرازق بن رزق الله)	الهلال بمصر ١٩٢٤
مروج الذهب	للمسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين)	البهية بمصر ١٣٤٦
المعارف	لابن قتيبة (أبي محمد عبدالله بن مسلم)	الحسينية بمصر ١٣٥٣-١٩٣٤

معجم الأدباء — لياقوت الحموي (أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله) — الحلبي بمصر ١٣٥٥ – ١٩٣٦

معجم البلدان — لياقوت الحموي — « «

معجم الشعراء — للمرزباني (أبي عبدالله محمد بن عمران) — القدسي بمصر ١٣٥٤هـ

مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد) — الأزهرية بمصر ١٣٤٨–١٩٣٠

الموازنة بين أبي تمام والبحتري — للآمدي (أبي القاسم الحسن بن بشر) — صبيح بمصر

الموشح — للمرزباني (أبي عبدالله محمد بن عمران) — السلفية بمصر ١٣٤٣

(ن)

النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم — للمقريزي (تقي الدين بن علاء الدين بن محي الدين) — . . . .

نسب عدنان وقحطان — للمبرد (أبي العباس محمد بن يزيد) — لجنة التأليف بمصر ١٣٥٤–١٩٣٦

نقائض جرير والأخطل — شرح أبي تمام (حبيب بن أوس) — الكاثوليكية ببيروت

نقد الشعر — لقدامة (أبي الفرج قدامة بن جعفر) — المكشوف ببيروت ١٩٣٩

نقد النثر — « « — الجامعة المصرية ١٣٥١–١٩٣٣

نهاية الأرب في فنون الأدب — للنويري (أبي العباس أحمد بن عبد الوهاب) — دار الكتب المصرية

(و)

الوساطة بين المتنبي وخصومه — للجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز) — الحلبي بمصر ١٣٦٤–١٩٤٥

وفيات الأعيان — لابن خلكان (القاضي أحمد بن محمد) — الأميرية ببولاق مصر ، الحلبي بمصر ١٣٥٥

وقعة صفين — للمنقري (نصر بن مزاحم) — الحلبي بمصر ١٣٦٥

فهـــرس

نشأة الأحزاب السياسية

(ص ٧ — ٢٠)

الهجاء السياسي

(ص ٢١ — ٧٣)

الأخطــــل

(١١٩ – – ٧٤)

الهجاء الشخصي

(ص ١٢٠ - ١٥٣)

خصمه ص ١٤٧ – الأسلوب القصصي في الهجاء ص ١٥٠ – الهجاء والعقد النفسية : أمثلة من جرير والفرزدق والأقيشر والمغيرة بن حبناء والحكم بن عبدل وشعراء الموالي ص ١٥١

نقائض جرير والفرزدق والأخطل

(١٥٤ – ١٧٣)

النقائض ليست هجاء خالصاً فهي خليط من فنون الشعر التي عرفها العرب ص ١٥٤ – لم يكن الهجاء هو الغرض الأساسي في كل النقائض ص١٥٧ – النقائض منافسة فنية والتزام نفس البحر والروي في النقيضة مظهر للتحدي الفني ص١٥٧ – من الظلم للنقائض أن تقارن بغيرها من فنون الشعر المتأخرة أو شعر الأمم الأخرى، والإنصاف يقتضي أن تقاس بعصرها وبيئتها ص ١٥٧ – النقائض محدودة الغرض فهي شعر شخصي محوره الفرد لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفقها الواسع ص١٥٨ – النقائض على قيمتها التاريخية والعلمية بعيدة عن أذواق المعاصرين ص ١٥٨ – النقائض سجل لكثير من الأحداث التاريخية التي عاصرتها والتي سبقتها منذ وعى العرب تاريخهم ص١٥٩ – تباين شعراء النقائض الثلاثة في أسلوبهم الفني: الأخطل يرضي فنه ، جزالة ألفاظه تضعف هجاءه وتحرمه روح الدعابة ، الأخطل شاعر خاصة ص ١٥٩ – جرير مرح مداعب، جرير لا يجهد نفسه في الشعر، ذيوع شعره وغلبته على قلوب الناس ص ١٦٠ – الفرزدق معنى بفنه ولكنه ليس موهوباً كجرير ، الفرزدق يجاري جريراً في تناول المعاني الهجائية من قرب ص ١٦٠ – الخصائص العامة للنقائض : العامية والابتذال في المعاني ص ١٦٠ ، وفي الألفاظ ص ١٦٤ ، وفي الأخلاق ص ١٦٦ ، تكرار المعاني ص ١٦٦ ، القصص الهجائي ، جرير أكثرهم تفوقاً في هذا المذهب ، والأخطل أكثرهم تخلفاً ص ١٦٧ – الفخر الكثير بالمقدرة الشعرية ص ١٧٠

جرير

(ص ١٧٤ – ٢٠٢)

بنو يربوع: غلبتهم على البصرة والكوفة وخراسان في أيام الفتنة الثانية ص١٧٥ –

ثروة الخَطَفَى جد جرير وخمول عطية أبيه ص ١٧٥ـ مولده في أواخر أيام عثمان حوالى ٣٠ هـ واشتباكه بغسان السليطي ص ١٧٧ - وفوده على يزيد ص ١٧٧ - بنو يربوع يدعون لابن الزبير ص ١٧٨ - تميم في موقفها من الفتنة حزبان ، يتزعم أحدهما سلمة بن ذؤيب الرياحي ، ويتزعم الآخر الأحنف بن قيس ص١٧٨ - خلو شعر جرير مما يدل على لونه السياسي في هذه الفترة وتعليل ذلك ص١٧٩ - زبيريته وتعصبه للقيسية ص١٨٠ - ضعف جرير ونفاقه وصلابة الفرزدق وأنفته ص١٨٢ - جرير يعوّل في التكسب على المدح ولا يهجو إلا من هاجمه ص ١٨٤ - إلحافه في سؤال ممدوحيه ص ١٨٥ - شعر جرير رقيق سهل : عدم اصابته المدح ص١٨٦ - رقة شعر جرير صورة من طبعه السمح ونفسه المطمئنة ص١٨٩ ، إجادته في الغزل والرثاء ص ١٩٠ - مواهب جرير الشعرية تبدو كاملة حين يهاجم الأفراد ص١٩١ : هدوء طبعه وبرود أعصابه ، تهكمه وسخريته ، امتياز حسه اللفظي ص١٩٢ ، عينه نقادة تقع على العيوب وتهتدي إلى مواضع السخرية ، خياله الخصب وذكاؤه النفاذ يمده بالصور الغريبة في الافتنان وبالنكت البارعة اللاذعة ص١٩٤ ، جرير من أخطر الهجائين في إطلاق الألقاب على خصومه وترويج الاشاعات الباطلة عنهم ص ١٩٧ ، جرير فنان أصيل يلمح ولا يصرح ١٩٩

الفرزدق

(٢٠٣ - ٢٤٥)

بين جرير والفرزدق ص٢٠٣ - مولد الفرزدق حوالى سنة ٢٤هـ ص ٢٠٤ - ألفت الظروف بين جرير والفرزدق من وجوه وخالفت بينهما من وجوه ص٢٠٥ ، ضعة جرير وشرف الفرزدق ، رقة جرير وغلظة الفرزدق ، جرير رقيق يؤثر السلام والفرزدق عنيف يحيا حياة نضال ، جرير زبيري قيسي والفرزدق لا يعتد إلا بقبيلته ، جرير ينافس الفرزدق على زعامة تميم في الشعر ص ٢٠٦ - الفرزدق يحاول أن يضع حداً لتقدم جرير وشهرته ، التنافس على الزعامة الشعرية للقبيلة هو الدافع الأول لتهاجيهما ص ٢٠٧ - الفرزدق طموح شديد الإحساس بالتفوق والامتياز إلى حد الجنون والمرض ص ٢٠٧ - والفرزدق لا يرحل إلى الخلفاء ولا

الهجاء والموالي

بعض الموالي يحترفون الغناء ويتغلغلون في البيوت العربية ويفتنون الناس بموسيقاهم وبأزيائهم وبما ينشرون من ألوان الحضارة والبدع ص ٢٤٧، فريق آخر من الموالي ينصرف إلى العلوم الدينية فتذهب غيظ قلوبهم وتعصبهم ص ٢٤٩ ، فريق ثالث يتخذ الشعر صناعة ويحترف السياسة ص ٢٤٩ – وبعضهم يكسب عيشه ومكانته بهجاء الناس ص ٢٥١ – رقة دين هؤلاء الموالي صورة لاستخفافهم بكل ما هو عربي ص ٢٥٢ – بعض شعراء الموالي لا يحسنون النطق بالعربية ص ٢٥٥ – الهجاء يحقق لشعراء الموالي مكانة وجاهاً ص ٢٥٦ – خوف الناس من شعرهم على تفاهته من الناحيـة الفنية ص ٢٥٨ – غلبة المقطوعات القصيرة على هجائهم ص ٢٥٩ – الموالي ثلاث فرق فريق منـافق يستر حقده مداهناً ، وفريق يدفع عن نفسه بالهجاء، وفريق دفعه يأسه إلى الزهد والانصراف عن الدنيا ، ولكنهم في مجموعهم يكيدون للعرب حتى يتحقق لهم الظفر بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية . ص ٢٦١ .